



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك خالد
عمادة الدراسات العليا
كلية التربية للبنات
قسم الدراسات الإسلامية

الآيات القرآنية الواردة في الكفار

"دراسة عقدية تحليلية"

لنيل درجة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة

إعداد الطالبة

تمرة بنت ظافر بن محمد بن سعيد آل سلمان الشهري

إشراف فضيلة الدكتور

علي حسين يحي موسى

الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

جامعة الملك خالد

العام الجامعي ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م


بسم الله الرحمن الرحيم





المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الملك خالد
عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي
كلية التربية للبنات
قسم الدراسات الإسلامية

الآيات القرآنية الواردة في الكفار

"دراسة عقدية تحليلية"

الطالبة / تمرة بنت ظافر بن محمد بن سعيد آل سلمان الشهري

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠ /١١/ ١٤٣٠هـ وتم إجازتها

أعضاء لجنة الحكم

م	الاسم		التوقيع
١ـ	د/ علي حسين يحيى موسى	(مشرفاً ومقرراً)	
٢ـ	د/ عبد اللطيف عبدالقادر الحفظي	(عضو ومناقش داخلي)	
٣ـ	د/ علي إسماعيل الجدة	(عضو ومناقش داخلي)	

١٤٣٠ـ ٢٠٠٩ م

ملخص الرسالة باللغة العربية

الجامعة:الملك خالد.

الكلية المانحة: كلية التربية.

القسم العلمي: الدراسات الإسلامية.

التخصص: عقيدة ومذاهب معاصرة.

عنوان الرسالة: الآيات القرآنية الواردة في الكفار دراسة عقدية تحليلية.

اسم الباحثة: تمرة بنت ظافر بن محمد بن سعيد الشهري.

الدرجة العلمية: ماجستير.

تاريخ المناقشة: ٢٠/١١/١٤٣٠هـ

إن هذا البحث يهدف إلى تسليط الضوء على طريقة القرآن الكريم في دعوة الكفار ومحاورتهم ومجادلتهم بالحسنى وتوضيح العلاقة بينهم وبين المسلمين وتوضيح الحق بالأدلة والبراهين.واستنباط المنهجية الصحيحة في كيفية التعامل مع الكفار في جميع مناحي الحياة المتنوعة والاقتصادية والأخلاقية والسياسية، والمبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، والقائمة على العدل وإعطاء كل ذي حق حقه مهما كان حاله.

وقد تضمنت هذه الرسالة على مقدمة وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختيار هذا الموضوع، والأهداف من البحث، وخطة البحث، ومنهج دراسته ومحتوياته الرئيسية.كما تضمنت على تمهيد وفيه تعريف الكفار، والأمور التي يحصل بها الإسلام، وعموم رسالة الرسول -ﷺ- وأنها ناسخة لجميع الرسالات وخاتمة لها،والدراسات السابقة للموضوع.وقد تحدثت الباحثة في الباب الأول من الرسالة عن اهتمام القرآن بشأن الكفار، وفي الباب الثاني عن بيان القرآن لموقف الكفار من أركان الإيمان والرد عليهم.وفي كل باب فصول وفي كل فصل مباحث وقد تتضمن بعض المباحث مطالب، ثم الخاتمة وتناولت الباحثة فيها أهم النتائج ومنها:

١- إن القرآن الكريم وضع لنا قاعدة عظيمة في الموالاة والمعادة فأمرنا بأن نوالي أهل التوحيد وأن نعادي أهل الكفر والضلال.

٢- إن القرآن الكريم رسم المنهج الصحيح الذي يمكن للأمة الإسلامية من خلاله التعامل مع غيرها من الأمم التي لا يمكن لها أن تعيش بمعزل عنها في عصرنا الحاضر، معاملة تحقق بها مصالحها ولا تساوم بها على دينها.

٣- إن الهدف الحقيقي من القتال وهو تعبيد العباد لله وترك عبادة العباد.

٤- إن جميع الشبه التي أثارها الكفار حول أركان الإيمان لم تقم على دليل ولا برهان وإنما قامت على الظن والعناد والاستكبار.

Summary of the message in English

University: King Khalid.
College Donor: Faculty of Education.
Department: Islamic Studies.
Specialization: faith and the doctrines of contemporary.
Title: Quranic verses contained in the study of kaafir nodal analysis.
The name of the researcher: Tamra Girl Zafer Mohammed Said monthly.
Degree: Master.
Join the discussion: 20/11/1430 H

This research aims to shed light on the Quran to call the infidels and dialoguing with, and to argue well and to clarify the relationship between them and the Muslims and the clarification of the right evidence and proofs. And to develop proper methodology in how to deal with the infidels in all walks of life and diverse economic, ethical, political, based on bringing interests and warding off evil , based on justice, give everyone his due, whatever the case.

This letter contained an introduction and the importance of the topic, the reasons for choosing this subject, and objectives of research, research plan and the methodology of study and its main contents. It also included a preface, where the definition of the infidels, and the things that happen in Islam, the Prophet and the general - and it all Duplicators- ρmessage- messages, and a conclusion to it, and previous studies of the subject. I have spoken to a researcher at the first section of the letter of interest on the Koran the infidels, and in the second section of the statement of the Koran to the position of the infidels out of the pillars of faith and respond to them. In each section the chapters and each chapter Investigation may include some of the FBI's demands, Conclusion and then dealt with the researcher the most important results, including:

1. The Koran put us in a great loyalty and returned Vomrna Nawali that the people of Tawheed and antagonize the people of kufr and misguidance.
2. The Quran fee which can be the right approach to the Islamic nation in which to interact with other nations that it can not live in isolation from the modern age, the treatment had been achieved not compromise the interests of religion.
3. The real purpose of fighting, the paving of the subjects left the worship of God and people.
4. All the similarities raised by the infidels on the pillars of faith were not based on proof or evidence, but was based on conjecture and stubbornness and arrogance.

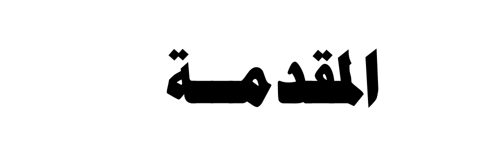
إهداء

أهدي نجاحي إلي أبي وإلي أمي آملة في أن أكون قد رددت جزءا مما قدموه لي و أسعدتهم في تقدمي في مشوار دراستي..

كما أهدي عملي ونجاحي إلي كل من علمني حرفا وساعدني في أن أكون على ما أنا فيه...

أهدي عملي هذا ونجاحي إلي كل من وقف بجانبي وشجعني على أن أعبر طريق الحياة....

كما أهدي عملي هذا لكل من ينتفع به راجية من الله القبول والإخلاص.



المقدمــة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن بعث فيهم أنبياءه ورسله -صلواته وسلامه عليهم- يدعونهم إلى ربهم ويهدونهم إلى صراطه المستقيم، ومن رحمته سبحانه بهذه الأمة أن بعث فيها خير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله؛ فأخرج الله تعالى به من شاء من عباده من الظلمات إلى النور، وهداهم صراطه المستقيم، وجنبهم صراط المغضوب عليهم والضالين، وتركهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

وأزاغ عن هذه الجادة قوماً اجتالتهم الشياطين؛ فسلكت بهم السبل؛ فأوردتهم المهالك. ولقد حذَّر اللهُ نبيه ورسوله محمداً -ﷺ- وأمته منهم فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران:١٤٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾ [الأحزاب:١].

ومن المعلوم أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر (ثورة) المعلومات؛ وذلك عبر وسائل الاتصالات المختلفة، ووسائل الإعلام المتقدمة، وأصبح القاطنون على الكرة الأرضية في جوانبها المختلفة وكأنهم

يسكنون في قرية صغيرة يتبادلون فيها المعلومات بكل يسر وسهوله. ولكن هذا التقدم في الاتصالات والإعلام لا يخلو من أمور سلبية؛ فقد سهّلا على كثير من الحاقدين على الإسلام والمسلمين إثارة الشبهات على هذا الدين وأهله.. ومن هذا المنطلق؛ فلابد أن يهتم المسلمون بالحفاظ على دينهم، وأن يتميزوا في تمسكهم بعقيدتهم؛ حتى يكونوا قدوة للآخرين كما صنع سلف هذه الأمة عندما نشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وفتحوا القلوب قبل فتح البلاد؛ فبالأخلاق يتميز المسلمون على غيرهم.

والمسلمون –كغيرهم– يعيشون على هذه البسيطة، وتربطهم مع غيرهم من أصحاب الديانات المختلفة علاقات وتعاملات في مجالات الحياة المتنوعة؛ الاقتصادية والسياسية.. إلخ، بل الأمر أكثر من ذلك؛ فقد اضطر بعض المسلمين للعيش والسكنى في بلاد الكفار؛ فكانوا جيراناً لهم في المسكن والدراسة وغيرها.

والمتأمل في حال المسلمين وواقعهم اليوم يلحظ التقصير في التزامهم بدينهم، والخلط في المفاهيم الإسلامية الصحيحة في أمور الدين عامة، وفي علاقاتهم مع الآخرين بصفة خاصة، بل أكثرهم يسودهم الجهل بما يجب أن يعملوه ويقوموا به عند تعاملهم وربط علاقاتهم مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى؛ فكثر الخلط في هذا الجانب بين الحق والباطل.

ومن هنا كان اختياري لهذا الموضوع: (الآيات القرآنية الواردة في الكفار – دراسة عقدية تحليلية)؛ إسهاماً مني في تصحيح تلك المفاهيم، ورد الأمور إلى نصابها الصحيح؛ وذلك عن طريق استنباط منهج القرآن الكريم في الاهتمام ببيان حال الكفار في شؤونهم كلها، وكيفية ربط المسلمين للعلاقة معهم، وما الذي يجب على المسلمين حيالهم في كيفية دعوتهم وبيان الحق بدليله ومجادلتهم بالحسنى وعدم سبهم أو سب آلهتهم. ثم إن القرآن الكريم قد اهتم ببيان العلاقة الصحيحة التي يجب

أن تكون بين المسلمين والكفار، ويظهر ذلك في الآيات القرآنية الكثيرة التي جاءت في الاهتمام بالكفار، والتي رسمت الطريقة الصحيحة لتلك العلاقات والتعاملات. وهذا المنهج الذي سطره القرآن الكريم والقائم على العدل مع الكفار. قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾) [المائدة:٨].

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

يعد هذا الموضوع من الموضوعات المهمة في هذا العصر؛ لأنه يناقش قضية حية وهي اهتمام القرآن بشأن الكفار ومجادلتهم بالدليل والبرهان ومحاورتهم بالحسنى، ثم ربط العلاقة معهم بضوابطها الشرعية التي تعطي كل ذي حق حقه مهما كان حاله.

إضافة إلى ذلك التساؤلات التي يثيرها هذا البحث وهي:

١- من هو الكافر، وما الأمور التي يحصل بها الدخول في الإسلام؟

٢- هل رسالة الرسول -ﷺ- عامة لجميع البشر، وهل هي ناسخة لجميع الرسالات السابقة وخاتمة لها؟

٣- هل القرآن الكريم اهتم بشأن الكفار، وما المجالات التي أثارها القرآن الكريم بشأن الكفار، وكيف طرحت، وهل بين القرآن الكريم العلاقة بين المسلمين والمخالفين لهم من أصحاب الديانات الأخرى، ولماذا؟

٤- هل بين القرآن الكريم موقف الكفار من أركان الإيمان الستة، وما الشبهات التي أثارها الكفار، وكيف رد عليها القرآن الكريم؟

٥- ما الدروس المستفادة من ذلك كله؟ وهل يمكن أن نطبقها في واقعنا المعاصر الذي اختلطت فيه المفاهيم؟

فالبحث يجيب على هذه التساؤلات، ومن هنا تظهر أهمية هذا الموضوع في عصر الانفتاح الذي نعيشه الآن.

وقد تجلت أسباب اختياري لهذا الموضوع في النقاط التالية:

١- حاجة المسلمين لإقامة علاقات مع الكفار في مجالات شتى سواء كانت علاقات سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية.

٢- حاجة المسلمين الذي يعيشون بين الكفار لمنهج صحيح على ضوء الكتاب والسنة يسيرون عليه في التعامل مع هؤلاء الكفار.

٣- الإسهام في بيان العلاقة بين المسلمين والكفار، وفي الاهتمام بشأن الكفار ودعوتهم ومحاورتهم بالحسنى، وذلك عن طريق منهج القرآن الكريم.

٤- جهل كثير من المسلمين بأحكام موالاة الكفار ومعاداتهم والتعامل معهم والخلط في ذلك بين الحق والباطل.

٥- ضعف الأساليب المستخدمة في دعوة الكفار وطرق محاورتهم.

كل ذلك حدا بي لأن يقع اختياري على هذا الموضوع (الآيات القرآنية الواردة في الكفار - دراسة عقدية تحليلية)؛ ليكون المنطلق الصحيح من خلال معرفة منهج القرآن في رسم العلاقة بين المسلمين والكفار من جميع الجوانب ويكون ذلك وفق الضوابط الشرعية وقواعد الدين الكلية والمبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد والقائمة على العدل في إعطاء الحقوق والواجبات.

الأهداف من البحث في هذا الموضوع:

١- تسليط الضوء على طريقة القرآن الكريم في دعوة الكفار ومحاورتهم ومجادلتهم بالحسنى وتوضيح العلاقة بينهم وبين المسلمين وتوضيح الحق بالأدلة والبراهين.

٢- استنباط المنهجية الصحيحة في كيفية التعامل مع الكفار في جميع مناحي الحياة المتنوعة والاقتصادية والأخلاقية والسياسية، والمبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد، والقائمة على العدل وإعطاء كل ذي حق حقه مهما كان حاله.

٣- بيان من هو الكافر وما واجبنا حياله، ثم بيان حاله في الدنيا ومآله في الآخرة.

وبفضل من الله تبارك وتعالى وعون منه سبحانه وتوفيقه أعددت هذا البحث لنيل درجة (الماجستير) وهو بعنوان:

الآيات القرآنية الواردة في الكفار- دراسة عقدية تحليلية

وعملت فيه على ضوء الخطة التالية المكونة من مقدمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياري لهذا الموضوع، والأهداف من البحث، وخطة البحث، ومنهج دراسته ومحتوياته الرئيسية.

التمهيد: واشتمل على:

أ- تعريف الكفار.

ب- الأمور التي يحصل بها الإسلام.

ج- عموم رسالة الرسول -ﷺ- وأنها ناسخة لجميع الرسالات وخاتمة لها.

د- الدراسات السابقة.

الباب الأول

اهتمام القرآن بشأن الكفار

وتحته ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

الآيات القرآنية الواردة في دعوة الكفار

وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في أول واجب على العبد.

المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة في وجوب الإيمان بالله ورسوله -ﷺ-.

المبحث الثالث: الآيات القرآنية الواردة في محاورة ومجادلة الكفار.

الفصل الثاني:

الآيات القرآنية الواردة في بيان العلاقة بين الكفار والمسلمين

وتحته ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في حكم معاداة وموالاة الكفار.

المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة في كيفية التعامل مع الكفار.

المبحث الثالث: الآيات القرآنية الواردة في قتال الكفار.

الفصل الثالث:

الآيات القرآنية الواردة في بيان حال الكفار في الدنيا والآخرة

وتحته مبحثان:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في حال الكفار في الدنيا.

المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة في حال الكفار في الآخرة.

الباب الثاني

بيان القرآن الكريم لموقف الكفار من أركان الإيمان والرد عليهم

وتحته ستة فصول:

الفصل الأول: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الإله والرد عليهم.

الفصل الثاني: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الملائكة والرد عليهم.

الفصل الثالث: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الكتب والرد عليهم.

الفصل الرابع: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الرسل والرد عليهم.

الفصل الخامس: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من اليوم الآخر والرد عليهم.

الفصل السادس: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من القدر والرد عليهم.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث والتوصيات.

منهج البحث في الرسالة:

أ- ما يختص بجمع المادة العلمية:

١- جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالكفار والواردة في شأنهم وبيان حالهم وكيفية العلاقة بهم.

٢- الاستفادة من أمهات كتب العقائد الإسلامية لدراسة الآيات، مع الرجوع أيضاً إلى الكتب الحديثة.

٣- الاستفادة من أمهات التفاسير في تحليل الآيات القرآنية الواردة في الكفار.

٤- الاستفادة من كتب الفقه في كيفية التعامل مع الكفار.

٥- الاستفادة من كتب التاريخ.

ب- ما يختص بالدراسة والتحليل والعرض:

١- يعد القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي لهذا البحث؛ لذا فقد أكثرت من الاستدلال بآيات القرآن الكريم.

٢- محاولة إبراز كيفية دعوة الكفار والتعامل معهم والرد على شبهاتهم من خلال الآيات القرآنية يجعل ارتباط البحث بكتب التفسير والعقائد والرجوع إليها لبيان المعنى واضح جلي في ثنايا هذا البحث.

٣- سلكت في هذه الرسالة المنهج التحليلي القائم على جمع المعلومات وجمع الآيات القرآنية المتعلقة بالكفار والواردة في شأنهم وبيان حالهم وكيفية العلاقة بهم، ودراستها دراسة عقدية تحليلية من خلال الرجوع إلى كتب التفسير، وإلى كتب العقائد -في أغلب الأحيان-.

٤- الاستمداد المباشر للقضايا العقدية التي طرحت في هذا البحث من القرآن الكريم وتقريرها من خلال السنة النبوية، ومن خلال جمع الأقوال الواردة عن سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وتوثيقها وترتيبها وفق الخطة، ثم القيام بدراستها وبيان المراد منها، ثم الاستشهاد بأقوال المتأخرين من العلماء والفقهاء وأئمة الدين وكيفية فهمهم لها وتنزيلها في مواطنها الصحيحة، ثم صياغة ذلك كله صياغة علمية قائمة على منهج البحث العلمي.

٥- القراءة مع الاستيعاب لمعظم تفاسير القرآن الكريم في الآيات الواردة في الكفار، ثم أتبعت ذلك باستخلاص أقرب الأقوال إلى النص القرآني.

٦- اعتمدت على المنطق القرآني في تقرير المسائل العقدية، والرد على المكذبين، وتفنيد شبهاتهم.

٧- التمسك بالمنهج السلفي في الاستنباط والفهم، والرجوع إلى الكتب المتخصصة في ذلك.

٨- لم أعمل على ذكر جميع الآيات المتعلقة بالكفار؛ وذلك لكثرتها، وإنما اكتفيت بما يحقق الهدف في كل موضع قدر الإمكان.

٩- قد أسرد مجموعة من الآيات في الموضع الواحد دون التعليق على كل آية والاكتفاء بدخولها تحت مضمون العنوان.

١٠- قد يقتضي المقام أن استشهد بالآية أو الآيات في أكثر من موضع إما لكونها مشتملة على معاني عديدة أو لكونها تعالج أكثر من قضية.

١١- حرصت على توثيق كثير من المعلومات، بالنقل والرجوع لأكثر من مرجع في الموضع الواحد؛ فإذا كان النقل حرفياً وهو كثير وضعته بين علامتي تنصيص هكذا: "..."، وإن حذفت شيئاً من

النص وضعت نقاطاً للدلالة على ذلك، أو قلت: إلى أن قال. وأشير في الهامش إلى مكان النقل مع ذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة.

١٢- إذا نقلت بالمعنى أو تصرفت في النص المنقول كثيراً أو أردت الإحالة للتوسع والاستزادة أشرت في الهامش: انظر كتاب كذا جزء كذا صفحة كذا. وقد أذكر اسم المرجع فقط.

١٣- عند ذكر المرجع في الهامش أذكر اسم المؤلف، ثم اسم الكتاب، وأُعرِّف بالمرجع عند أول ذكر له، ثم اكتفي بعد ذلك بذكر الكتاب والجزء والصفحة فقط.

١٤- رقمت الآيات وجعلتها في المتن دون الهامش؛ لكثرة الآيات المستشهد بها وتجنباً للإطالة في الهامش.

١٥- اعتمدت على الرسم العثماني في نقل الآيات القرآنية.

١٦- ميزت الآيات القرآنية بجعلها بين قوسين مُزَهَّرين: (...)، وباقي النصوص بين علامتي تنصيص: "...".

١٧- تخريج الأحاديث من مصادرها المعتمدة، ونقل الحكم على ما يحتاج إلى الحكم عليه من حيث الصحة والضعف؛ وذلك عن طريق نقل أقوال المتخصصين في هذا الشأن.

١٨- عند تخريج الحديث أذكر اسم الكتاب، الباب، الجزء، الصفحة، ورقم الحديث إن وجد، وقد أقول في الهامش عند بعض الأحاديث الواردة في صلب البحث: سبق تخريجه.

١٩- قمت بترجمة لمعظم الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة، وعرَّفت بهم عند أول ذكرهم، وذكرت مصادر ترجمة كل واحد منهم في ذيل ترجمته.

٢٠- تركت ترجمة الأسماء المشهورة، كالأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأصحاب الكتب الستة، والمشاهير كابن تيمية وابن القيم.

٢١- قمت بالتعريف بالفرق والطوائف بشكل موجز، عند أول ذكر لها.

٢٢- قمت بعمل الفهارس التوضيحية التالية:

- فهرس الآيات: وقد راعيت فيه ترتيب الآيات والسور كما في المصحف.
- فهرس الأحاديث والآثار المخرجة في البحث: وقد راعيت فيه الترتيب الهجائي، دون الاعتداد في هجائية الحديث بلفظ (أل) التعريف.
- فهرس الأعلام المترجم لهم: مرتبة على حسب الحروف الهجائية، دون الاعتداد في هجائية العَلَم بألفاظ: (أب، ابن، أل التعريف)، واكتفيت بذكر موضعه في أول مكان ترجم له.
- فهرس الفرق والطوائف المعرَّف بها: واكتفيت بذكر الموضع في أول مكان عُرِّف بها.
- فهرس الأماكن والبلدان المذكورة في الرسالة: مرتبة هجائياً.
- فهرس أسماء المراجع والمصادر الواردة في البحث: مرتبة هجائياً.
- فهرس الموضوعات.

وقد صادفتني بعض الصعوبات خلال عملي في هذه الدراسة، ولكن حاولت بعون الله تعالى وحده أن أتغلب عليها.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بخالص الشكر والثناء والعرفان إلى كل من قدم لي العون في إعداد هذه الرسالة.

وأول الشكر وآخره لمن كان سبحانه المستحق للحمد والشكر والثناء كله المنعم والمتفضل سبحانه وتعالى، فأحمده حمداً يليق بجلاله سبحانه على عونه لي وتوفيقه لي فهو أهل الثناء والحمد، فله الحمد من قبل ومن بعد، فما كان من توفيق وسداد فمنه وحده عز وجل، وما كان من تقصير فمن نفسي والشيطان، واستغفره.

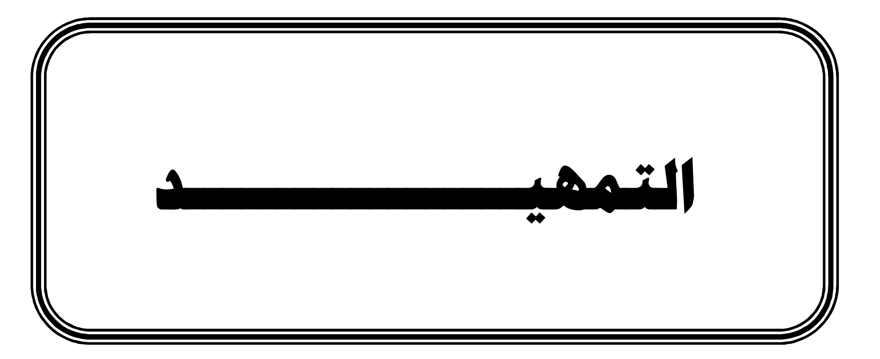
واعترافاً بالفضل لأهله أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأستاذ والشيخ الفاضل المشرف على متابعة الرسالة منذ البداية، الدكتور الفاضل: علي حسين موسى –حفظه الله– فقد كان رحب الصدر، عظيم الصبر، وقد أعطى من وقته الكثير، و لم يألُ جهداً في التوجيه والاهتمام والرعاية لهذه الرسالة والحرص والمتابعة، ولقد استفدت كثيراً من علمه وخلقه الجم الذي يتحلى به، فقد كان عوناً لي بعد الله عز وجل على إتمام هذه الرسالة، وإذ إني لا أملك له جزاء إلا الدعاء فإني أسأل المولى عز وجل بأسمائه وصفاته العلى أن يجزيه عني خير الجزاء، وأن يبارك له في عمره وعلمه وعمله، وأن يجمع له بين خير الدنيا ونعيم الآخرة، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله مباركا حيثما كان.

كما لا يفوتني تقديم الشكر للأستاذين المناقشين على ما أمضيا من وقت في سبيل قراءة هذا البحث وتقويمه وتسديد جوانب النقص والقصور فيه.

وأخيراً لا أنسى توجيه الشكر والدعاء لمن كان له الفضل بعد الله عز وجل في غرس حب العلم في قلبي: والدي الحبيب –تغمده الله بواسع رحمته وأثقل موازين حسناته وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وجعل ما قدمته من علم ينتفع به رفعة له في درجاته إنه ولي ذلك والقادر عليه سبحانه–. كما لا أنسى توجيه الشكر والدعاء لوالدتي –حفظها الله وأسبغ عليها لباس الصحة والعافية– وجميع أفراد أسرتي على ما قدموه لي من عون على إتمام رسالتي.

كما أتوجه بالشكر والتقدير لكل من قدم لي يد المساعدة في أثناء بحثي هذا ولو بكلمة، وأسأل الباري جل وعلا أن يجزيهم جميعاً عني خير الجزاء، وأن لا يحرمهم أجر ما قدموه لي إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



التمهيـــــــــد

التمهيد

أ ـ تعريف الكفار:

الكافر –في اللغة–: مفرد (كفار). و(الكافر) مشتق من (الكفر)." أصل الكفر تغطية الشيء، وسمى الفلاح كافراً لتغطية الحب، وسمي الليل كافراً لتغطية كل شيء. قال تعالى {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفارَ نَبَاتُهُ} [الحديد:٢٠]"[١]"وأصل (الكفر) في اللغة: التغطية. ومنه سمي: (الكافر)؛ أي: إن الضلالة غطت قلبه، أو لأنه غطى نعمة الله أو دين الله"[٢].

الكافر في الاصطلاح:

قبل الدخول في تعريف (الكافر) لا بد من تعريف (الكفر).

والكفر –في الاصطلاح–: هو كل ما يضاد الإيمان من الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "الكفر: عدم الإيمان –باتفاق المسلمين– سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً و لم يتكلم"[٣]. ويقول رحمه الله: "إنما الكفر يكون بتكذيب الرسول –ﷺ– فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود[٤]ونحوهم"[١]. ويقول رحمه الله:

---

١) انظر:ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري المتوفى سنة٧١١هـ، لسان العرب، (ادار صادر– بيروت– ط/١) ج:٥ ص:١٤٤-١٤٥.

(٢) الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، معجم البلدان (دار الفكر– بيروت) ج: ٤، ص: ٤٣١. أبو زكريا: يحي بن شرف النووي، تحرير ألفاظ التنبية، تحقيق: عبد المغني الدقر (دار القلم– دمشق– ط/١، ١٤٠٨هـ) ج: ١، ص: ٤١. ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، انظر: غريب الحديث لابن قتيبة، تحقيق: د/ عبد الله الجبوري (مطبعة العاني– بغداد– ط/١، ١٣٩٧هـ) ج: ١، ص: ٢٤٧.

(٣) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مجموع الفتاوى(مكتبة العبيكان–ط/١، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م)، ج: ٢٠، ص: ٨٦.

(٤) هم أمة موسى عليه السلام، سمو بهذا الاسم نسبة إلى يهوذا ابن يعقوب، وقيل: نسبة إلى (الهود) وهو التوبة والأنابة، ويسمون أيضاً: (العبرانيون) أو (الإسرائيليون) نسبة إلى أسباط إسرائيل، دينهم اليهودية، منتشرون في –

"فتكذيب الرسول كفر، وبغضه وسبه وعداوته مع العلم بصدقه في الباطن كفر عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة أهل العلم"[٢]. ويقول رحمه الله: "والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به، وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به، ثم مجرد تصديقه في الخبر، والعلم بثبوت ما أخبر به، إذا لم يكن معه طاعة لأمره، لا باطناً ولا ظاهراً، ولا محبة لله ولا تعظيماً له، لم يكن ذلك إيماناً"[٣].

وعلى هذا فيمكن تعريف الكافر -في الاصطلاح-: بأنه من قام به الكفر، أو هو كل من صدر منه ما ينقض الإيمان من قول أو فعل أو اعتقاد.

والذي سيكون حديثنا عنه في هذا البحث هو الكافر الذي لم يؤمن بالله ورسوله -ﷺ-.

ب- الأمور التي يحصل بها الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وعن ابن عباس رضي الله عنه [٤] قال: قال رسول الله -ﷺ- لمعاذ بن

-العالم كله، يتكلم أكثر من نصفهم (اليدية)، وهي لغة يهودية جديدة، أساسها (الألمانية) ممتزجة بكلمات عبرية، و(العبرية) لغتهم الأولى، وهي إحدى اللغات السامية، ترجع أصولهم إلى تيرا من أور بلد الكلدانيين، حيث نشأ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأرسل الله لهم عدة رسل كان منهم شاؤول، داود، ثم كان سليمان، ثم موسى عليه السلام. "انظر: الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني (دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٤هـ)، ج: ١، ص: ٢١٠ وما بعدها، عدد من المؤلفين، الموسوعة الميسرة،(دار النفائس،ط/٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م) ج: ٢، ص: ١٩٨٥".

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم (دار الكنوز الأدبية- الرياض-١٣٩١هـ) ج: ١، ص: ٢٤٢.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، منهاج السنة، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم (مؤسسة قرطبة، ط/١، ١٤٠٦هـ)ج: ، ٥ص: ٢٥١-٢٥٢.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ٥٣٣.

(٤) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله -ﷺ-، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، دعا له الرسول -ﷺ- بالفهم في القرآن، فكان يسمى البحر، والحبر؛ لسعة علمه، الفقيه، المفسر، قال=

جبل[١] حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"[٢]. فشهادة أن لا إله إلا الله هي مفتاح دخول الإسلام، وهي الأصل الأصيل، فمن نطق بها حقن دمه وحفظ ماله وعرضه، وإن عمل بمقتضاها من العلم، والقبول، والصدق، والإخلاص، والمحبة، والانقياد، واليقين، والكفر بما يُعْبَد من دون الله، فهو مسلم حقاً.

إذاً فشهادة أن لا إله إلا الله المتضمنة للإقرار بوحدانية الله تعالى، هي الكلمة التي دعت إليها الرسل عليهم السلام جميعاً. قال تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾) [الأنبياء: ٢٥]، وقد صرّح سبحانه أن كل رسول خاطب قومه أول ما خاطبهم فقال: (يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾) [الأعراف: ٥٩]. فجميع الأمم كانت مُقِرَّةً بأن لها رباً خالقاً رازقاً ولم يجحد ذلك إلا مكابر معاند هو في قرارة نفسه مقر به كفرعون، فإقرار العبد بأن له رباً خالقاً رازقاً لا يكفيه هذا الأمر حتى يدخل في الإسلام،

= عنه عمر: "لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره من أحد". مات سنة ٦٨هـ بالطائف، وهو أحد العبادلة، وأحد فقهاء الصحابة، "انظر: سير أعلام النبلاء ج: ٤، ص: ٩٥".

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، الأنصاري الخزرجي، المدني البدري، من علماء الصحابة وساداتهم، قال له الرسول -ﷺ- فيما رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح: "والله يا معاذ إني أحبك". شهد بيعة العقبة والمشاهد كلها، توفي سنة: ١٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ج: ١ص: ٤٤٣-٤٤٤، والأعلام ج: ٧، ص: ٢٥٨.

(٢) البخاري، ب: وجوب الزكاة وقول الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[البقرة:٤٣]، ج: ٢، ص: ٥٠٥، رقم الحديث (١٣٣١).

وإلا لم يحكم بكفر أي أحد من الكفار لأنهم كانوا يقرون بذلك. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١]. ولكن يلزمهم من هذا الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق أن يقروا بأنه هو وحده المستحق للعبادة دون مَن سواه، فإذا أقروا بذلك وأخلصوا العبادة لله وحده حكمنا لهم بالإسلام.

وعلى هذا لا يحكم لأحد بالإسلام إلا بالتلفظ بشهادة أن لا إله إلا الله، والاعتقاد بمعناها، والالتزام بالعمل بمقتضاها، ونبذ كل ما خالفها وضادها.

وكذلك لا يحكم لأحد بالإسلام إلا إذا شهد أن محمداً -ﷺ- عبدُ الله ورسوله واعتقد معناها، والتزم بالعمل بمقتضاها، ونبذ كل ما خالفها وضادها، فإن الله عز وجل لا يُعبَد إلا بما شرع، على لسان نبيه محمد -ﷺ-. قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣]. وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[الأنعام: ١٥٣]. وقال سبحانه:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[الشورى: ١٣]. إلى قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ﴾ [الشورى: ١٥]. وبناء على هذا فحصول الإسلام متوقف على هاتين القاعدتين العظيمة وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ج- عموم رسالة الرسول -ﷺ- وأنها ناسخة لجميع الرسالات وخاتمة لها:

إن الله عز وجل اصطفى الإسلام وجعله عصمة لمن لجأ إليه، وحصناً لمن تمسك به، والإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله عز وجل ديننا سواه. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩]. ولقد أنعم الله علينا بهذا الدين الحنيف ليخرجنا به من الظلمات إلى النور؛ فالناس قبل بعثة النبي محمد -ﷺ- كانوا في جاهلية انتشرت فيها الضلالات، وكان الناس في ذلك الوقت على صنفين: أهل الكتاب، وكانوا فريقين: الأول وهم المغضوب عليهم، وهم أهل الكذب والبهتان، وقتلة الأنبياء اليهود أَكَلَة السحت، وأشد الناس عداوة للمؤمنين. والفريق الثاني: أهل الضلال عباد الصليب الذين قالوا: اتخذ الله صاحبة وولداً. قال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٩٠-٩٥]. وهم النصارى[١]عباد الصليب.

أما الصنف الثاني: فهم من ليس لهم كتاب، وهم في الكفر بالله تعالى على صور وألوان، روى مسلم في صحيحه: "إن الله سبحانه وتعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب"[٢].

---

(١) النصارى وهم أمة المسيح عيسى ابن مريم.رسول وكلمته ﷺ..وأثبتوا لله تعالى ثلاثة أقانيم،قالوا الباري تعالى جوهر واحد،يعنون به القائم بالنفس،لا التحيز والجهة.فهو واحد بالجوهرية،ثلاثة بالأقنومية،ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها:الأب،والابن، وروح القدس.وإنما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم.."انظر:الملل والنحل، مرجع سابق، ج:١ص:٢٢٠-٢٢١".

(٢) مسلم، ب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، طرف من حديث عياض بن حمار المجاشعي، ج: ٤، ص: ٢١٩٧، رقم الحديث (٢٨٦٥).

فبعث الله محمداً -ﷺ- بالهدى ودين الحق للعالمين. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال سبحانه: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء: ٧٩]. ولقد كانت الرسالات السماوية السابقة لرسالة محمد -ﷺ- تنزل لأقوام معينين، بينما رسالة محمد -ﷺ- الخاتم للرسل جميعاً عليهم السلام عامة للثقلين، ولهذا لا بد أن تكون هذه الرسالة تصلح كل زمان ومكان، ولقد جعلها الله كذلك. قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن القيم: "إن الله سبحانه قد تمم الدين بنبيه -ﷺ- وأكمله به ولم يحوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه ولا رأي ولا منام ولا كشوف"[١]. وقال ابن كثير[٢]: "هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف"[٣]. فجعله "كاملاً غير محتاج إلى إكمال؛ لظهوره على الأديان كلها وغلبته لها، ولكمال أحكامه التي يحتاج المسلمون إليها من الحلال والحرام والمشتبه، ووفى

---

(١) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الصواعق المرسلة، تحقيق: د/ علي بن محمد الدخيل الله (دار العاصمة-الرياض- ط/٣، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م). ج: ٣، ص: ٨٢٦.

(٢) هو الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي، ثم الدمشقي، الشافعي، المعروف بابن كثير، عماد الدين، أبو الفداء، محدث، مؤرخ، مفسر، فقيه، ولد سنة ٧٠١هـ وتوفي سنة ٧٧٤هـ، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله =تعالى-، ودفن معه في مقبرة الصوفية، من تصانيفه: "تفسير القرآن العظيم"، "البداية والنهاية". " انظر: معجم المؤلفين ج: ٢، ص: ٢٨٣-٢٨٤"، و"الأعلام ج: ١ص: ٣٢٠."

(٣) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، (دار الفكر- بيروت- ١٤٠١هـ)، ج:٢، ص: ١٣.

ما تضمنه الكتاب والسنة من ذلك"[1]. ولقد أشار الله عز وجل في القرآن العظيم إلى كمال رسالة محمد -ﷺ- وشمولها كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

والخلاصة من كل ما تقدم أن رسالة الرسول -ﷺ- عامة للثقلين الإنس والجن، وخاتمة لجميع الرسالات السابقة.

د- الدراسات السابقة:

اشتمل القرآن لكريم على ذكر الكفار في آيات كثيرة، تحدثت عن كيفية دعوة الكفار والاهتمام بشأنهم وكيفية التعامل معهم من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية، ومصير هؤلاء الكفار سواء في الدنيا أو في الآخرة، كما بينت موقفهم من أركان الإيمان وكيف دحض الله تبارك وتعالى هذه الحجج الواهية المبنية على الظن وعدم اليقين، ولقد اهتم العلماء والباحثون بأمر هؤلاء الكفار فقاموا بدراسات وأبحاث تتعلق بهؤلاء الكفار، ومن هذه الأبحاث التي وقفت عليها:

١- تقرير القرآن الكريم لحكم موالاة الكافرين: تأليف: د/ عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي، أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى، بمكة المكرمة. طبع: دار الأمين، اليمن، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

وقد أشار المؤلف في مقدمته إلى أن فكرة البحث مركزة في قضية مهمة متعلقة بأصول الدين وحقوق رب العالمين، ورسوله الأمين، وعباده المؤمنين، إنها قضية موالاة أعداء الله ومظاهرتهم في

---

(١) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (دار الفكر بيروت)، ج: ٢ص: ١١.

حربهم لله ولرسوله ولدينه ولكتابه وعباده المؤمنين، وقد حرر ذلك بالأدلة الشرعية، كما تحدث عن قصة حاطب بن أبي بلتعة(١) وما يتعلق بها. وقد قرر المؤلف في هذه القضية أن مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المؤمنين ناقض عملي ظاهري من نواقض الإيمان، ولا يلزم في كونه كفراً أن يعتقد صاحبه تصحيح دين الكفار أو محبته ونحو ذلك، وجميع الآيات القرآنية في هذا الباب تقرر هذا الأصل، وكذلك حديث حاطب ﷺ فإنه يقرر ما ذكر ولا يخالفه، وكلام الشافعي[٢] وابن تيمية رحمهما الله على هذا القصة يطابق ذلك الأصل.

٢- الدلالات العقدية لأقوال أهل الجنة وأهل النار في الكتاب والسنة - جمعاً ودراسة: رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. للباحث: سيد يحي نجاي.

وقد بين فيها الباحث معتقد أهل السنة والجماعة في الجنة والنار والرد على المخالفين، كما تناول أقوال أهل الجنة في القرآن والسنة؛ سواء عند دخولهم الجنة، ومخاطباتهم لربهم سبحانه وتعالى، ومخاطباتهم بعضهم بعضاً، وبيان الدلالات العقدية فيها، كما تناول أقوال أهل النار في القرآن والسنة سواء في أسباب دخولهم النار، واعترافاتهم، ومخاطباتهم، وطلباتهم، والدلالات العقدية فيها.

٣- مناط الكفر بموالاة الكفار: للدكتور عبد الله القرني.

---

(١) حاطب بن أبي بلتعةبن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى، شهد بدر وثبت ذلك في الصحيحين من حديث علي في قصة كتابة حاطب إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله -ﷺ - إليهم فنزلت فيه (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ..)[الممتحنة: ١] الآية فقال عمر دعني أضرب عنقه فقال إنه شهد بدرا واعتذر حاطب بأنه لم يكن له في مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره، توفي سنة: ٣٠هـ. "انظر الإصابة في تمييز الصحابة، ج : ٢ ص: ٤-٥".

٢ هو أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي القرشي، كثير المناصب جم المفاخر، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله، وسنة رسوله -ﷺ-، وكلام الصحابة وآثارهم... يعد أول من تكلم في أصول الفقه وهو الذي استنبطه، وأشهر=كتبه: "الأم"، "الرسالة". ولد بغزة سنة١٥٠هـ وقد قيل: أنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة، توفي يوم الجمعة ٢٠٤هـ "انظر: معجم المؤلفين ج: ٩، ص: ٣٢٠، والأعلام ج: ٦، ص: ٢٦".

وقد تتبع فيه الباحث الآيات القرآنية التي تحدثت عن موالاة الكفار، وبين القول الصحيح للمفسرين المعتبرين من أمثال ابن جرير[٢]، ونقل كلاماً نفيساً للإمام الشافعي في توجيه حديث حاطب بن أبي بلتعة ﷺ قلَّ من ينتبه له.

وبعد الاستعراض لهذه الكتب والبحوث والرسائل العلمية التي ألفت في الكفار، نجد أنها ركزت على جوانب معينة من الجوانب التي تناولها القرآن الكريم في شأن الكفار دون الإلمام بجميع الجوانب والمسائل التي تحدثت عنها الآيات القرآنية الواردة في الكفار، وهذا ما سوف يتضح -بإذن الله تعالى- من خلال هذه الرسالة التي سعيت فيها جاهدة لإبراز جميع الجوانب التي اهتمت بها الآيات القرآنية الواردة في الكفار.

---

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، مفسر، مقرئ، محدث، مؤرخ، فقيه، أصولي، مجتهد، ولد سنة: ٢٢٦هـ بطبرستان، واستوطن بغداد، توفي سنة: ٣١٠هـ، من تصانيفة: "جامع البيان في تأويل القرآن" و"اختلاف الفقهاء". "انظر: معجم المؤلفين ج: ٩، ص: ١٤٦-١٤٧"، و"الأعلام ج: ٦، ص: ٦٩".

البـــــاب الأول

اهتمـــام القـرآن بشـأن الكفـار

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الآيات القرآنية الواردة في دعوة الكفار .

الفصل الثاني: الآيات القرآنية الواردة في بيان العلاقة بين الكفار والمسلمين.

الفصل الثالث: الآيات القرآنية الواردة في بيان حال الكفار في الدنيا والآخرة.

الفصــل الأول

الآيات القرآنية الواردة في دعوة الكفار .

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في أول واجب على العبد.

المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة في وجوب الإيمان بالله ورسوله -ﷺ-.

المبحث الثالث: الآيات القرآنية الواردة في محاورة ومجادلة الكفار.

المبحث الأول

الآيات القرآنية الواردة في أول واجب على العبد

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن أول واجب يجب على المكلف هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وهذا هو أول واجب على العبد، ويدل على ذلك ما يلي:

أولاً: الآيات الواردة في الحث على عبادة الله تعالى وأمر الله تعالى به: ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣]. قال الطبري: "فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهية والربوبية، بالذلة منكم له، دون أوثانكم وسائر ما تشركون معه في العبادة"[١]. وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [النساء: ٣٦]. قال ابن كثير: "فهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له"[٢]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢]. قال ابن كثير: "فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا

---

(١) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥هـ)، ج: ١١، ص: ٨٣.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢٠.

عديل"[١]. وقال الشوكاني[٢]: "فمن كانت هذه صفاته فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء"[٣]. قال الطبري: "فإنه لا شيء له الألوهية والعبادة إلا الذي خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم؛ فإنه لا ينبغي أن تكون عبادتكم وعبادة جميع من في السماوات والأرض إلا له خالصة بغير شريك تشركونه فيها؛ فإنه خالق كل شيء وبارئه وصانعه، وحق على المصنوع أن يفرد صانعه بالعبادة"[٤]. وفي القرآن آيات كثيرة تنص على أمر الله عز وجل لعباده بعبادته وترك عبادة ما سواه.

ثانياً: الآيات الدالة على أن الرسل أرسلوا بتوحيد الألوهية: والذي هو إخلاص العبادة لله تعالى دون سواه؛ فالرسل جميعاً أرسلوا بـ(لا إله إلا الله). قال تعالى عن نوح عليه السلام: **(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾)** [الأعراف: ٥٩]. وقال هود عليه السلام لقومه: **(يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾)** [الأعراف: ٦٥]. وقال صالح عليه السلام لقومه: **(يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ)** [الأعراف: ٧٣]. وقال شعيب عليه السلام لقومه: **(يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ)**[الأعراف: ٨٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٦٢.

(٢) هو العلامة محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن علي بن عبد الله الشوكاني، الخولاني، ثم الصنعاني، مفسر، ومحدث، وفقيه، أصولي، مؤرخ، وأديب، نحوي، ولد سنة ١١٧٣هـ في بلاد خولان، نشأ بصنعاء وتوفي بها سنة: ١٢٧٢هـ. من آثاره الكثيرة: "فتح القدير" في التفسير و"إرشاد الفحول" و"الفوائد المجموعة"، =كان -رحمه الله- شديداً على أهل البدع وعلى المقلدين." انظر: معجم المؤلفين، ج: ١١، ص: ٥٣"، و"الأعلام، ج: ٦، ص: ٢٩٨".

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٤٨.

(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٢٩٩.

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام: ٧٩]. وقال عيسى عليه السلام لقومه في كهولته ونبوته: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[آل عمران: ٥١]. فالأنبياء عليهم السلام على اختلاف شرائعهم إلا إن دعوتهم كانت لأمر واحد وهو توحيد الألوهية الذي هو: "إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحداً يعبده ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالى ويتقرب إليه"[1]. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[المائدة: ٤٨]. "فهم مختلفون في الشرائع متفقون في التوحيد من أولهم إلى آخرهم، يدعون إليه أولاً وقبل كل أمر؛ فلم يدعوا إلى شيء قبله؛ فهم وإن اختلفت شرائعهم في تحديد بعض العبادات من حلال وحرام لم يختلفوا في الأصل الذي هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات افترقت أو اتفقت"[2]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤]. قال ابن كثير: "فكل نبي بعثه الله تعالى يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة تشهد بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم و﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾[الشورى: ١٦]" [3]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. "فأخبر الله تعالى أنه تعالى بعث في كل أمة -أي في كل طائفة وقرن من

---

(١) عبد العزيز بن باز ومحمد بن صالح العثيمين، فتاوى مهمة، تحقيق: إبراهيم الفارس، (دار العاصمة- الرياض- ط/١ ١٤١٣هـ) ج: ١، ص: ٨.

(٢) انظر: للحافظ بن أحمد حكمي، معارج القبول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، (دار ابن القيم- الدمام- ط/١ ١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ج: ٢، ص: ٤٠٢.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٧٧.

الناس– رسولاً بهذه الكلمة: أن عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت؛ أي: اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة من سواه؛ فلهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾[الأنبياء: ٢٥]" [1]. فالتوحيد الذي أمر الله عز وجل به الناس هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية، وهو المطلوب من العباد؛ فإذا آمنوا به دخلوا في دين الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٥١﴾ [النحل: ٥١]. فكان أول أمر في القرآن هو الأمر بعبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه.

وفي كل ما تقدم دليل على أن جميع الرسل أرسلوا بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه.

ثالثاً: الآيات الواردة في الربوبية: وهي أن الله هو الخالق الرازق، وفيها إلزام للعباد إذا أقروا بأنه الرب فيلزمهم عبادته وحده وترك عبادة ما سواه. "والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ويبين أنه لا خالق إلا الله وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله؛ فيجعل الأول دليلاً على الثاني؛ إذ كانوا يُسلِّمون في الأول وينازعون في الثاني؛ فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له في ذلك؛ فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة أخرى؟! كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ

---

(١) سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، شرح كتاب التوحيد (مكتبة الرياض الحديثية – الرياض–)، ج: ١، ص: ٣٤.

مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾) [النمل: ٥٩-٦٠]. أي: أإله مع الله فعل هذا؟! وهذا استفهام إنكار يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله؛ فاحتج عليهم بذلك. وليس المعنى أنه استفهام: هل مع الله إله؟ كما ظنه بعضهم؛ لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: (أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ) [الأنعام: ١٩]. وكانوا يقولون: (أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾)[ص: ٥]. لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه إلهاً (أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾)[النمل: ٦١]. بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات، وكذلك قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾)[البقرة: ٢١]" [١]. قال ابن كثير: "عن ابن عباس: (فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾)[البقرة: ٢٢]. أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول -ﷺ- من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه"[٢].

وخلاصة كل ما تقدم أن هذه الآيات وغيرها من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم تنص على أن من أقر بأن الله عز وجل هو الرب الخالق الرازق المدبر لهذا الكون يلزمه أن يفرد الله عز وجل بالعبادة وأن يترك عبادة من سواه.

---

(١) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (المكتب الإسلامي- بيروت- ط/١، ١٣٩١هـ) ج: ١، ص: ٨٣-٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٨.

رابعاً: ما سطر علماء السنة في أن أول واجب على المكلف هو توحيد الألوهية وهو الذي أرسلت به الرسل: قال ابن القيم: "ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن (لا إله إلا الله) لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا"[1]. وقال الطحاوي[2]: "أول واجب يجب على المكلف شهادة أن (لا اله إلا الله) لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه"[3]. وقال محمد بن عبد الوهاب[4]:

---

(١) ابن القيم: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، (دار الكتاب العربي –بيروت–ط/١ ١٣٩٣هـ–١٩٧٣م)، ج: ٣ ص: ٤٤٣–٤٤٤.

(٢) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك بن سلمة بن سليمان بن حامد أبو جعفر الأزدي الحجري المصري ثم الطحاوي، ولد بطحا قرية من صعيد مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين. قال أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر وتفقه أولا على خاله أبي إبراهيم إسماعيل المزني صاحب الشافعي، وسمع منه كتاب السنن روايته عن الشافعي وغير ذلك، وسمع الحديث من أهل عصره، وله كتاب "أحكام القرآن"، و"معاني الآثار وبيان مشكل الآثار والمختصر في الفقه"، ومصنفاته كثيرة جدا ،وكانت وفاته في سنة:٣٢١هـ، "انظر لسان الميزان، ج:١ص:٢٧٤"، و"انظر طبقات المفسرين–الأدنروي، ج:١ص:٦٠–٦١".

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١ ص: ٧٥.

(٤) شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب،ولد محمد في العيينة،زار الشيخ محمد مكة ، فأدّى فيها فريضة الحج ثم قصد المدينة، وهناك لا زم، فترة، العالم ابن سيف، ثم توجّه إلى نجد فالبصرة، ثم عاد إلى حريملاء أكثر علماً ونضجاً وأشد قوّة على الباطل ورجاله . وتوفى أبوه في هذه الفترة كما حاول بعضهم قتله، فاختار أن يعود مع محازيبه إلى العيينة بلده الأصلي . وفي العيينة، استقبله عثمان بن معمر أميرها وشعبها بحفاوة . وزادت شهرته فأيّده كثيرون في مناطق مجاورة وبعيدة، كما عاداه كثيرون أيضاً، ومنهم أمير الإحساء الذي ألّب بعض زعماء العيينة ضدّه، وحين قويت الثورة، غادر البلدة إلى الدرعية . وفي الدرعية بايعه أميرها محمد بن سعود على دين الله ورسوله وعلى الجهاد في سبيله وإقامة شريعة دعوته . ومن الدرعية انطلقت الدعوة الوهابية قوية، تجمع الأنصار وتحارب الضالين . وكانت الحروب بقيادة ابن سعود وابن عبد الوهاب ضد أمير الرياض وأمير الإحساء وغيرهما، حتى توطّد الحكم الصالح لمحمد بن سعود، ومن ثم لابنه عبد العزيز. وكان الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو المستشار الدائم، الذي يفصل في الخصومات. ويفتي في العلاقات السياسية وفي المعاهدات لأنه أعلم=

"وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله -ﷺ- من معاني الكتاب والحكمة؛ فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا"(١).

إلا أن بعض المتكلمين قد خالفوا أهل السنة في هذه المسألة فقالوا بأن أول واجب على المكلف هو أن يعرف ربه وأن الرسل أرسلوا بالربوبية، والذي دفعهم إلى ذلك هو تقديم العقل على النقل، ولهذا فقد وقع بينهم اختلاف على أقوال كثيرة في أول واجب على العبد؛ فقالت طائفة: إن أول واجب على المكلف هو النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم. وقالت طائفة ثانية: إن أول واجب على المكلف القصد إلى النظر الصحيح. قال الجويني(٢)-صاحب كتاب الإرشاد-: "أول ما يجب على العاقل البالغ، باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعاً القصد إلى النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدوث العالم"(٣). وقال أبو المعالي(٤): "إن سأل سائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟ فقل:

=بالدين وبالأحكام . لقد بدأ ابن عبد الوهاب دعوته دون سن العشرين، شهد ثمارها وثمار جهاده مع ابن سعود وآثار الإصلاح في الديار، وتوفى أثر مرض في آخر يوم في ذي العقدة ١٢٠٦ هجرية الموافق ٢٩ حزيران ١٧٩٢ ميلادية .من مؤلفاته: مختصر صحيح البخاري، التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد،مختصر زاد المعاد." موسوعة عباقرة الإسلام، ص: ١٣٣ - ١٣٦ ".

(١) شرح كتاب التوحيد، مرجع سابق، ج: ١ ص: ٢١.

(٢) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني ولد سنة:٤١٩هـ وتوفي سنة: ٤٧٨هـ نسبة إلى جوين ناحية كبيرة من نواحي نيسابور تشتمل على قرى كثيرة وأبوه عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية شيخ الشافعية قال ابن شبهة في طبقاته كان يلقب ركن الإسلام "انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج:٣ص:٢٦١".

(٣) الجويني : الإرشاد، (مكتبة الخانجي بمصر- ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م)، ص: ٣.

(٤) إمام الحرمين الإمام الكبير، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، أبو المعالي، عبد الملك ابن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجويني، ثم النيسابوري، ضياء الدين،الشافعي، صاحب التصانيف.ولد في أول سنة تسع عشرة وأربع مئة.ومن تصانيفه، " الارشاد في أصول الدين " و" الرسالة النظامية في الإحكام الإسلامية "و " البرهان في أصول الفقه " توفي في الخامس والعشرين من ربيع الآخر، سنة ثمان=

النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه تعالى لا يُعرَف ضرورة ولا بالمشاهدة فيجب أن تعرفه بالتفكر والنظر"[١].

وقالت طائفة ثالثة: هو المعرفة بالله، ثم رتبوا على كلامهم هذا فروعاً فقالوا: إن قلنا الواجب النظر فمن أمكنه زمان يسع النظر التام ولم ينظر فهو عاص، ومن لم يمكنه أصلاً فهو كالصبي، ومن أمكنه ما يسع النظر دون تمامه ففيه احتمال والأظهر عصيانه"[٢]. وذهبت طائفة رابعة إلى القول بالشك، وأوجبه أبو هاشم الجبائي[٣] -شيخ المعتزلة[٤]- وطائفة معه وجعلوه من الواجبات. وهذا على طريقة ديكارت حيث قال: "أنا أشك، إذا أنا موجود". وقال أبو هاشم الجبائي: "أن نشك في كل شيء نبدأ في اليقين ثم نستدل بحدوث العالم على وجود الله، ثم نعتقد أن الله موجود، ثم نعرف ما

=وسبعين وأربع مئة، ودفن في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين، فدفن بجنب والده،"انظر:سير أعلام النبلاء ج:١٨ص:٤٦٨-٤٧٧".

(١) عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: د/ عبد الكريم عثمان، (مكتبة وهبة- مصر- ط/١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م)ص:٣٩.

(٢) الإيجي: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، المواقف في علم الكلام، (عالم الكتب- بيروت) ص٣٢-٣٣.

(٣) عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام، الجبائي، المعتزلي، من كبار الأذكياء.أخذ عن والده، وله كتاب " الجامع الكبير "، وكتاب " العرض "، وكتاب " المسائل العسكرية "، وأشياء.توفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، وله عدة تلامذة.(سير الأعلام ج:١٥ص:٦٣-٦٤).

(٤) المعتزلة: فرقة إسلامية، نشأت في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وهم أصحاب واصل بن عطاء العزال، يسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، لإسناد أفعال العباد إلى قدرتهم، المؤسسان هما: "واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد"، وقد كان في حلقة الحسن البصري، وقد اتخذا موقفاً محايداً في مرتكب الكبيرة، وهل هو مؤمن أم كافر، وقالوا بأنه في منزلة بين المنزلتين، سموا بالمعتزلة لقول الحسن البصري عن واصل بن عطاء عندما اعتزل مجلسه: "اعتزلنا واصل". ومن مذهبهم نفي الصفات، وأن القرآن كلام مخلوق محدث، وأنه تعالى غير مرئي في الآخرة -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، وافترقوا على نحو عشرين فرقة يكفر بعضهم بعضاً، "انظر: المواقف، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٦٥٢-٦٧٠، وانظر: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف:د/مانع بن حماد الجهني، (دار الندوة العالمية- الرياض – ط/٣، ١٤١٨هـ)، ج: ١، ص: ٦٩-٧٩. "

يجب لله من التوحيد". وقد وضح هذه الأقوال صاحب كتاب المواقف[١]. وعلى هذا فالتوحيد عندهم عقلي فلسفي نظري تفنى الأعمار في تحقيقه كما صرح بذلك كبار المتكلمين الذين رجعوا إلى مذهب أهل السنة كالغزالي[٢]

والرازي[٣]وإمام الحرمين وغيرهم. يقول الغزالي: "وأمّا مَنْفَعَتُهُ -أي علم الكلام- فقد يُظَن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف... وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك إن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام، ثم قاله بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أُخَر سوى نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور"[٤]. ولذلك انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول -ﷺ- ومات رحمه الله وصحيح البخاري على صدره. وكذلك أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق

---

(١) انظر: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، المواقف في علم الكلام، مرجع سابق، ص٣٢.

(٢) الغزالي: الشيخ الامام البحر، حجة الاسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط تفقه ببلده أولا، ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام والجدل، حتى صار عين المناظرين،ألف كتاب " الاحياء "، و" الاربعين "، و" القسطاس "، و" محك النظر ".ولد سنة:٤٥٠هـ وتوفي سنة:٥٠٥هـ. "انظر:سير أعلام النبلاء ج:١٩ص:٣٢٢-٣٤٦".

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، البكري، الرازي، الشافعي، فقيه، مفسر، أصولي، أوحد زمانه في المقول والمنقول وعلوم الأوائل، ولد بالري سنة٥٤٤هـ وإليها نسب، توفي سنة ٦٠٦هـ في هراة، من تصانيفه: تفسير "مفاتيح الغيب" ويسمى أيضاً: "التفسير الكبير". انظر: معجم المؤلفين ج: ٦ص: ٣١٣.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢٢٣ -٢٢٤.

طريقة القرآن"[١]. "وكذلك قال أبو المعالي الجويني: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور"[٢].

وعلى هذا فما ذهب إليه المتكلمون من الأشاعرة[٣] والمعتزلة ومن نحا نحوهم مردود وغير صحيح للأدلة الآتية:

أولاً: "إنه ليس في كتاب الله تعالى دليل يدل على أن أول الواجبات النظر، كما أنه لا يوجد دليل يدل على إيجاب النظر على كل أحد، وإنما فيه الأمر لبعض الناس الذين لا يحصل لهم الإيمان إلا به، كقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)[الأعراف: ١٨٤-١٨٥]. وهذا بعد قوله تعالى: (وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [الروم: ٦-٧].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٧.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٨.

(٣) الأشاعرة:من الفرق الإسلامية، وهم أصحاب أبي الحسن بن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتسب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، والمتوفى سنة٣٢٤هـ، وكان أبو الحسن الأشعري على مذهب المعتزلة في علم الكلام، وتتلمذ على شيخهم أبي علي الجبائي، وأقام على الاعتزال حتى سن الأربعين، اعتكف في بيته بعد المناظرة التي جرت بينه وبين أستاذه الجبائي خمسة عشر يوماً، اجتمع بعدها بالناس في المسجد وأعلن انخلاعه من الاعتزال ولزوم مذهب =السلف. والأشاعرة يثبتون بعض الصفات كما أثبتها الله عز وجل لنفسه، كالعلم، والقدرة، والإرادة، ونحوها، ويؤلون الباقي." انظر: الملل والنحل ج: ١، ص: ٩٤ وما بعدها".

وهذا موافق لقول من يقول: إنه واجب على من لم يحصل له الإيمان إلا به، بل هو واجب على كل من لا يؤدي واجباً إلا به، وهذا أصح الأقوال"[١].

ثانياً: إن معرفة الله تعالى أمر مستقر في نفوس العباد؛ فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده. قال تعالى: (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا)[الروم: ٣٠]. وقال -ﷺ-: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كمثل البهيمة تنتج بهيمة، هل ترى فيها من جدعاء"[٢]. فالنفوس مقرة بهذا التوحيد -أي توحيد الربوبية- أعظم من إقرارها بغيره كما قالت الرسل لأقوامهم فيما يحكي الله عز وجل عنهم. قال تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) [إبراهيم: ١٠]. فأشهر من عرف بتجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون وقد كان مستيقنا به في الباطن كما قال له موسى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾)[الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى عنه وعن قومه: (وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)[النمل: ١٤]. ولهذا لما قال لموسى: (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ)[الشعراء: ٢٣]. على وجه الإنكار له وتجاهل العارف قال له موسى: (قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾)[الشعراء: ٢٤]. وهذا يدل على أن معرفة الله عز وجل من لوازم نشأتهم لا تنفك عنهم؛ ولهذا صار الإقرار بوجود الله تعالى مما لا يحتاج إلى برهان، فإن الفطرة السليمة تشهد بذلك. كما أنه لم يدل دليل على عدم وجود هذه المعرفة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢٣٢.

(٢) البخاري، ب: ما قيل في أولاد المشركين ج: ١ص: ٤٥٦. رقم الحديث(١٣١٩).

عند الناس، ومن غفل عن هذه الفطرة في السراء فإنه يلوذ بها في الضراء. قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾) [الإسراء: ٦٧]. ولهذا لم يأت التكليف بوجوب المعرفة وإنما جاء بوجوب العبادة.

ثالثاً: إن محل نزاع الرسل مع أقوامهم ليس على الإقرار بوجود الله تعالى وإنما على عبادته وحده وترك ما سواه. قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ) [النحل: ٣٦]. فلم تكن دعوة الرسل عليهم السلام من نوح إلى محمد -ﷺ- إلى النظر أو القصد إلى النظر ولا الشك -كما يزعم المتكلمون- بل كانت دعوتهم لعبادة الله عز وجل، كما في قصة نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء؛ لأن أقوامهم كانوا مقرين بوجود الله عز وجل ولكنهم كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة، ولأن معرفة الله تعالى لا يصير بها الإنسان مؤمناً، وإن كان يعلم أنه رب كل شيء فلا بد لهذا الإيمان من عمل وهو الغاية المقصود من خلق العباد. قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾) [الذاريات: ٥٦]. "قال ابن عباس في تفسير هذا الآية: أي ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا"[1].

رابعاً: إن الفقهاء متفقون على أن الصبي إذا بلغ سن التكليف لم يؤمر بقول (لا إله إلا الله)، لأنه ولد على الإسلام، فهو مسلم بالفطرة، وبالإتباع لأبويه، وهما مسلمان، بل يغلب جانب الإسلام دائماً، وإنما يؤمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج.

خامساً: "لو قدر أن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر، فليس من شرط ذلك تأخر النظر للبلوغ، بل النظر قبل ذلك ممكن، بل واقع، فتكون المعرفة قد حصلت بذلك النظر، وإن لم يكن واجباً، كما تعلم

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٧، ص: ١٢.

الصبي أم الكتاب وصفة الصلاة قبل البلوغ، فإن هذا التعلم يحصل به مقصود الوجوب بعد البلوغ، والنظر إنما هو واجب وجوب الوسائل، فحصوله قبل وقت وجوبه أبلغ في حصول المقصود"[١].

سادساً: إذا قلنا بأن أول واجب على العبد النظر والاستدلال فنقول: إنه لا يصح أن نسمي مؤمناً وكافراً إلا بعد النظر والاستدلال، ولجاز للكفار عند غلبة المسلمين عليهم أن يقولوا: أمهلونا حتى ننظر ونستدل.

سابعاً: إن التوحيد الذي جاءت به الرسل عليهم السلام هو اعتقاد وحدانية الله تعالى وإفراده بالعبادة؛ لأن التوحيد مصدر من: وحد يوحد توحيداً، فمعرفة وحدانيته: إفراده بالعبادة، وليس كما يذكرون في كتبهم من أن الوحدانية تعني: نفي الكمية المتصلة ونفي الكمية المنفصلة وإثباته رقماً مجرداً، وهذا كلام الفلاسفة[٢]، وهم يقصدون بذلك نفي جميع الصفات كما عند الجهمية[٣] والمعتزلة، أو إثبات بعض هذه الصفات كما عند الأشاعرة. وهذا مفترق الطريق بينهم وبين أهل السنة والجماعة الذين يثبتون الصفات والأسماء لله تعالى وينهون عن الشرك ويدعون إلى توحيد الله وهو إفراده بالعبادة والالتجاء إليه والتقرب إليه.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ١٩٨.

(٢) الفلسفة اليونانية: تعني محبة الحكمة. والفيلسوف هو: "فيلا" و"سوفا" وفيلا هو المحب، وسوفا: الحكمة، أي هو محب الحكمة، والفلاسفة أقسام منهم: حكماء الهند من البراهمة الذين لا يقولون بالنبوات أصلاً، ومنهم: حكماء العرب وهم قليلون، ومنهم: حكماء الروم وهم منقسمون إلى قدماء وهم أساطين الحكمة، والمتأخرين وهم المشاؤون، وأصحاب الرواق، وأصحاب أرسطو طاليس، وفلاسفة الإسلام من أمثال الكندي والفارابي، وعلى رأسهم ابن سينا، وأخذ فلاسفة الإسلام طريقة أرسطو طاليس في جميع ما ذهب إليه.. نفوا الصفات، وأنكروا المعاد ولهم آراء آخرى شنيعة. "انظر: الملل والنحل، ج:٢، ص: ٥٨-٦٠، ١٥٨ وما بعدها".

(٣) الجهمية: هم أتباع جهم بن صفوان، الذي امتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم، وقال بالاضطرار إلى الأعمال، والإجبار عليها، وأنه لا فعل ولا عمل لغير الله تعالى، وقال بفناء الجنة والنار. "انظر: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بين الفرق، (دار الآفاق الجديدة-بيروت-ط/٢، ١٩٧٧م) ، ص: ١٩٩-٢٠٠، والملل والنحل، ج: ١، ص: ٨٦".

ثامناً: لقد أجمع أئمة الدين، وعلماء المسلمين على ما علم بالاضطرار من دين الرسول -ﷺ- أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين، سواء كان معطلاً، أو مشركاً، أو كتابياً. وبذلك يصير الكافر مسلماً، ولا يصير مسلماً بدون ذلك. قال أبو بكر المنذر[١]: "أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام -وهو بالغ صحيح يعقل- أنه مسلم، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتداً، يجب عليه ما يجب على المرتد"[٢].

تاسعاً: أجمعت كتب السيرة على أن الرسول -ﷺ- أول ما دعا الناس إلى الشهادتين، و لم يثبت أنه دعا إلى النظر أو الشك، فقد كان يقوم في المواسم وغيرها "فيقول: يا أيها الناس، قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا وتملكوا بها العرب، وتذل لكم بها العجم"[٣]. "وكما في قصة إسلام علي ﷺ: أن علي بن أَبي طالب ﷺ جاء بعد ذلك بيوم وهما يصليان. فقال عليّ: يا محمد، ما هذا؟! قال: دِينُ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَى لِنَفْسِهِ، وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، فَأَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَى عِبَادَتِهِ، وَأَنْ تَكْفُرَ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى. فقال عليّ: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أحدّث به أبا طالب. فكره رسول الله -ﷺ- أن يفشي عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره. فقال له: يَا عليُّ، إِذْ لَمْ تُسْلِمْ فَاكْتُمْ. فمكث عليّ تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب عليّ الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله -ﷺ-

(١) محمد بن إبراهيم بن المنذر الحافظ العلامة أبو بكر النيسابوري صاحب التصانيف،وقد اعتمد على بن المنذر جماعة من الأئمة فيما صنفه في الخلافيات وكتابه الإشراف في الاختلاف من أحسن المصنفات في فنه وقد حدث في تصانيفه عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن إسماعيل الصائغ ومحمد بن ميمون وخلائق روى عنه أبو بكر بن المقرى ومحمد بن يحيى بن عمار الدمياطي والحسن بن علي بن سفيان وآخرون،توفي سنة ثمان عشرة وثلاث مائة."انظر:لسان الميزان ج:٥ص:٢٧".

(٢) درء تعارض العقل والنقل، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢٣٢.

(٣) ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج: ١، ص: ٨٤٣.

حتى جاءه فقال: ماذا عرضت عليّ يا محمد؟ فقال له رسول الله -ﷺ-: تَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَتَكْفُرَ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى، وَتَبْرَأَ مِنَ الأَنْدَادِ. ففعل عليّ وأسلم"[١]. وكتب السيرة مليئة بكثير من النصوص التي تنص على أن أول ما كان يدعو النبي -ﷺ- الناس إليه هو قول: (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). و لم يدعهم إلى النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك.

عاشراً: أن الرسول -ﷺ- أرسل معاذاً إلى اليمن فقال له: أول ما تدعوهم إلى الشهادتين. عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي -ﷺ-: بعث معاذاً ﷺ إلى اليمن، فقال: "ادعهم إلى: شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم"[٢]. وكذلك الرسائل التي أرسلها الرسول إلى الملوك والأمراء دلت على أن أول واجب على المكلف الشهادتين.

والخلاصة من كل ما تقدم يتضح بطلان من قال بوجوب النظر والاستدلال وأنه أول واجب على المكلف؛ فإنه بذلك قد خالف ما جاء في الكتاب من أول واجب على المكلف هو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله عز وجل بالعبادة دون ما سواه وهو ما تواتر عن سيد المرسلين، وما تواتر عن سيد المرسلين، وما جاءت به الرسل عليهم السلام، وما أجمع عليه أئمة الدين.

والصواب في هذه المسألة كما تقدم معنا من الأدلة أن أول واجب على المكلف هو قول لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله و إفراد الله عز وجل بالعبادة دون ما سواه.

---

(١) ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: مكتب التحقيق (دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي- بيروت- لبنان- ط/١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م) ج: ٣، ص: ٢٣-٢٤.

(٢) سبق تخريجه.

المبحث الثاني

الآيات القرآنية الواردة في الإيمان بالله ورسوله - ﷺ -

تمهيد:

إن الأصل الأصيل والركن الأول من أركان الإيمان هو الإيمان بالله ورسوله -ﷺ- قولاً وعملاً. وإن الإنسان مهما صلى وزكا وحج، و لم يؤمن بالله ورسوله -ﷺ- فلن يقبل منه ذلك.

وإن القرآن الكريم مليء بالآيات القرآنية التي تدعو للإيمان بالله عز وجل وإفراده بما هو مستحق من توحيد الربوبية والألوهية، كما أنها دعت إلى الإيمان بالرسول -ﷺ- وقرنت بين الإيمان بالله عز وجل وبين الإيمان به -ﷺ-.

وسوف أتناول في هذا المبحث -بإذن الله تعالى- ثلاثة مطالب:

* المطلب الأول: الإيمان بالله تعالى.

* المطلب الثاني: الإيمان بالرسول -ﷺ-.

* المطلب الثالث: الآيات التي ربطت بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول -ﷺ-.

المطلب الأول

الآيات الواردة في الإيمان بالله تعالى

إن الإيمان بالله عز وجل: هو الاعتقاد الجازم بوجوده سبحانه وتعالى، وأنه هو رب كل شيء ومليكه، وأنه هو الخالق الرازق والمدبر لشؤون العالم والمتصرف فيه، وأنه هو مالك الدنيا والآخرة، وأنه هو رب العالمين جميعاً لا خالق لهم سواه، وأنه أرسل الرسل لإصلاحهم وأنزل معهم الكتب لدعوتهم إلى ما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، وأنه سبحانه لا شريك له في جميع ذلك، وأنه هو سبحانه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأن كل معبود سواه باطل؛ لأنه هو خالق العباد والمحسن إليهم والقائم بأرزاقهم والعالم بسرهم وعلانيتهم، والقادر على عقابهم وإثابتهم. ومن الإيمان به سبحانه أيضاً: الإيمان بأنه سبحانه متصف بصفات الكمال والجلال الواردة في كتاب الله عز وجل، والثابتة عن رسوله -ﷺ- من غير تحريف[١]أو تعطيل[٢]أو تكييف[٣]أو تمثيل[٤]، وتنزيهه سبحانه عن كل عيب أو نقص. قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾)[الشورى: ١١]. وقال عز وجل: (فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾) [النحل: ٧٤].

---

(١) التحريف:تحريف الكلام إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد أو هو تفسير النصوص بالمعاني الباطلة التي لا تدل عليها."انظر:هراس:محمد خليل هراس،شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية،ضبط نصه وخرج أحاديثه:علوي بن عبد القادر السقاف، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م،ص:٩٩"، و"انظر:ياسين:د/محمد نعيم ياسين،الإيمان،أركانه،حقيقته،نواقضه،(دار الاعتماد الثقافي،بيروت-لبنان،ط/٧)ص:٣٢".

(٢) التعطيل:نفي الصفات الإلهية،وإنكار قيامها بذاته تعالى أو هو نفي للمعنى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة." انظر:شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية،مرجع سابق ، ص:٩٩"، انظر:الإيمان،وأركانه،حقيقته، ونواقضه ، مرجع سابق،ص:٣٢".

(٣) التكييف:وهو تعيين كيفية الصفات،وإثبات كنهها."الإيمان،وأركانه،حقيقته،ونواقضه،مرجع سابق،ص:٣٣".

(٤) التمثيل:هو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين."شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية،مرجع سابق،ص:١٠١"، و"انظر:منهاج السنة النبوية،مرجع سابق،ج:٨ص:٢٩".

والخلاصة: أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بوجوده سبحانه، وأنه المستحق للعبادة دون من سواه، وأنه متصف بصفات الكمال والجلال منزه عن كل نقص وعيب.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعوا إلى الإيمان بالله تعالى وحده، وأن هذا أمر مستقر في الفطر والعقول.

أولاً: الآيات الدالة على ربوبيته سبحانه وتعالى:

لقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على ربوبية الله عز وجل، وأنه هو وحده الخالق الرازق المالك المدبر المتصرف في شؤون الخلق. ودلالة هذه الآيات إما عن طريق ما استقر في الفطر، وإما عن طريق العقل، وإما عن طريق دلالة المخلوقات على الخالق سبحانه. وسوف نتناولها فيما يلي:

أولاً: دلالة الفطرة على ربوبية الخالق سبحانه:

لقد فطرَ الله الإنسان على الإقرار بأن لهذا الكون وما فيه خالقاً مدبراً قادراً يحكمه ويتصرف فيه ويدبر شؤونه؛ فالإيمان بالربوبية أمر جبلي مركوز في فطرة كل إنسان، ولا يستطيع أحد دفعه ولا رفعه. ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن توضح ذلك ومنها قوله تعالى في سورة إبراهيم عندما كذب الكفار رسلهم فذكروهم بما استقر في فطرهم فقالوا لهم: (أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)[إبراهيم: ١٠]. قال ابن كثير: "أفي وجوده شك، فإن الفطرة شاهدة بوجوده مجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطرة السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم رسلهم ترشدهم إلى طريقة معرفته بأنه (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)[إبراهيم: ١٠] الذي خلقهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث

والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا الله خالق كل شيء"[١] . فالخلق مقرون بوجود الله وهم مجبولون على ذلك مفطورون عليه. قال تعالى: (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ) [الروم:٣٠]. قال ابن كثير: "فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره"[٢] "إذ المعنى على التحقيق لا تبدلوا فطرة الله التي خلقكم عليها بالكفر"[٣] . وقال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾)[الأعراف: ١٧٢] "أخرج الله تعالى ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، وجميع ذلك أخرجه من صلب آدم مثل الذر، وأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم، وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا ذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً، وذلك قوله: (وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) أي قال: ألست بربكم (قَالُوا۟ بَلَىٰ) فأقروا له بالربوبية"[٤].

والخلاصة من كل ما تقدم: أن الإقرار بالله عز وجل خالقاً ورازقاً ومالكاً ومدبراً أمر فطري في النفوس، والاستدلال عليه إنما هو من قبيل إيقاظ الفطرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "ولما

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص: ٥٢٦، وانظر: أبي السعود:محمد بن محمد العمادي،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،(دار إحياء التراث العربي–بيروت–)ج:٥ص:٣٦–٣٧.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣ص: ٤٣٣.

(٣) الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، أضواء البيان، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، (دار الفكر للطباعة – بيروت– ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م)، ج:١ص:٣٠٩.

(٤) الواحدي: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، (–دار القلم –دار الشامية–دمشق، بيروت–ط/١، ١٤١٥هـ)، ج: ١ص: ٤٢٠.

كان الإقرار بالصانع فطريّاً -كما قال ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة"[١] الحديث- فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله، والإنابة إليه، وهو معنى (لا إله إلا الله)، فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد"[٢].

ثانياً: دلالة العقل على ربوبية الله عز وجل:

إن الله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان بالعقل على جميع المخلوقات، وبه يحصل التكليف والعقل ميزان ومقياس جلي يقرر به الإيمان، ويدفع به الباطل. فهذه الأدلة المشاهدة في المخلوقات تقوم على أسس ثلاثة شهد بها العقل، ودل عليها الكتاب والسنة، ولا يمكن لأحد أن يخالف فيها مهما كان دينه أو جنسه أو علمه.

الأساس الأول: هو أن العدم لا يخلق شيئاً، و"نحن نعلم بصريح العقل أن المحدَث لا يُحدِث نفسه، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل، كما يعلم أن العدم لا يخلق موجوداً، وأن المحدِث للحوادث الموجودة لا يكون معدوماً"[٣]. قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٥]. قال ابن كثير: "أي أوجدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟! أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً"[٤]. "فمعلوم بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدِث أحدثه، وأن حدوث الحادث بلا محدِث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل، وهذا أمر مركوز في بني آدم حتى الصبيان لو ضرب الصبي ضربة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، توحيد الألوهية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي (مكتبة ابن تيمية- ط/٢) ج: ٢، ص: ٦.

(٣) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الجواب الصحيح، تحقيق: علي سيد صبح المدني (مطبعة المدني- مصر-) ج: ٣، ص: ٢٠٣.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٤٥، وانظر:تفسير أبي السعود،مرجع سابق،ج:٨ص:١٥١.

فقال: من ضربني؟ فقيل: لم يضربك أحد. لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل"[١]. وعلى هذا فكل مخلوق لا بد له من خالق. ولهذا لما أنكر فرعون رب العالمين فقال لموسى ﷺ على سبيل الإنكار لرسالته ولوجود الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشعراء: ٢٧] أجابه موسى بالحجة العقلية المعنوية الحسية فقال: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ ﴾[الشعراء: ٢٨]. "أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾[الشعراء: ٢٨] أي: إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة"[٢]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢]. "منفرد ربنا عز وجل بالخلق؛ فما من مخلوق في السماوات والأرض إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه؛ فهو خالق كل صانع وصنعته، وخالق الكافر وكفره، والمؤمن وإيمانه، والمتحرك وحركته، والساكن وسكونه"[٣].

"إن من المعلوم تصريح العقل أن من يخلق أكمل ممن لا يخلق كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ ﴾[النحل: ١٧]؟! وهذا استفهام إنكار يتضمن الإنكار على من سوّى

---

(١) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج٣، ص:٢٠٢.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣٣٣-٣٣٤، وانظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي، (دار الفكر- بيروت-)، ج : ٤ ص : ٢٣٥.

(٣) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢٢١.

بين الأمرين يعلم أن أحدهما أكمل من الآخر قطعاً، ولا ريب أن تفضيل من يخلق على من لا يخلق في الفطر والعقول كتفضيل من يعلم على من لا يعلم، ومن يقدر على من لا يقدر، ومن يسمع ويبصر على من لا يسمع ولا يبصر"[(١)].

الأساس الثاني: الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته:

فقد دلنا القرآن الكريم على هذا الأساس العقلي، فحثنا على النظر والتأمل في مخلوقاته لكي نتعرف على الخالق وصفاته سبحانه وتعالى. فقال تعالى: (**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾**)[البقرة: ١٦٤]. "تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار . هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: (**لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾**)[يس: ٤٠]. وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: (**يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ**)[فاطر: ١٣]؛ أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا (**وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ**)[البقرة: ١٦٤]؛

---

(١) محمد بن أبي بكر أبو عبد الله، شفاء العليل، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي(دار الفكر-بيروت-١٣٩٨هـ) ج: ١، ص: ٢٠٨.

أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[البقرة: ١٦٤]. كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يس: ٣٣-٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]؛ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾[هود: ٦]، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ أي فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤]؛ أي سائر بين السماء والأرض، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ١٦٤]؛ أي

في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى"[١]. "فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً غنياً بذاته، وكل ما سواه فقير إليه قائم بذاته، وكل ما سواه لا يقوم إلا به قدير لذاته، وكل ما سواه عاجز لا قدرة له إلا بما أقدره متصف بجميع صفات الكمال وكل ما سواه فلازمه النقص وليس الكمال المطلق"[٢]. ومن الآيات الدالة على عظمته وقدرته سبحانه خلق الإنسان قال تعالى: (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾)[الروم: ٢٠]. "فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويتكسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة"[٣]. وقال تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾)[إبراهيم: ٣٢]. "يقول تعالى ذكره: الله الذي أنشأ السماوات والأرض من غير شيء أيها الناس، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع،

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٠٢.

(٢) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٢.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٣٠، وانظر:أضواء البيان،مرجع سابق،ج:٥ص:٣٢٣، وانظر:تفسير أبي السعود،مرجع سابق،ج:٧ص:٥٥.

فأثمرت رزقاً لكم تأكلونه: (وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ)، وهي السفن: (لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ)، لكم تركبونها، وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد : (وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ)، ماؤها شراب لكم . يقول تعالى ذكره: الذي يستحق عليكم العبادة وإخلاص الطاعة له، مَن هذه صفته، لا من لا يقدر على ضر ولا نفع لنفسه ولا لغيره من أوثانكم أيها المشركون وآلهتكم"[1].

وقال تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾)[الأنعام: ٩٥]. "والمعنى: أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستحق لكل كمال، والمفضل بكل إفضال، والمستحق لكل حمد وإجلال (فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ): فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته"[2]؟!

<u>الأساس الثالث</u>: أن فاقد الشيء لا يعطيه:

وهذه ضرورة عقلية شهد بها العقل ودلت عليها النصوص الشرعية، فلا يعقل أن ينسب لحجارة صماء بأنها تخلق أو تميت أو ترزق أو غير ذلك من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله. قال تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٣ص: ٢٢٥.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ١٤٣.

ﭐدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾)[الأعراف:١٩١-١٩٥]. وفي هذا "توبيخ وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عباداً لا تخلق شيئاً وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر لأنفسهم أو لمن عبدهم وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم"[(١)]. فأنكر عليهم كيف يعبدوا الأنداد والأصنام والأوثان، ""ومقصد الآية الرد عليهم ببيان عجز أصنامهم وعدم قدرتها على المضرة وفيها إشارة إلى التوكل على الله والاعتصام به وحده وأن غيره لا يقدر على شيء"[(٢)]، "وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: (أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ)؛ أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك"[(٣)]؟! كما أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ) أيها المشركون، آلهةً، (مِن دُونِ ٱللَّهِ)، وتعبدونها، شركاً منكم وكفراً بالله (عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ)، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك؛ فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر، لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سئل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضل، ومن إذا شكي إليه من شيء سمع، فضر من استحق العقوبة، ونفع من لا

---

(١) شرح كتاب التوحيد، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢١٤.

(٢) محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، (دار الكتاب العربي – لبنان- ط/٤، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)، ج:٢ص:٥٨.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٢٧٧.

يستوجب الضر"[١]. ثم إن الله عز وجل بين لهم مواطن العجز في هذه الآلهة فقال موبخاً لهم: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ) "أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ) في نفع أنفسهم فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم وليس (أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ)كما يبطش غيرهم من الأحياء، وليس(أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ)كما تبصرون، وليس (أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا)كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصفة من سلب الأدوات، وبهذه المنزلة من العجز"[٢]. وقال تعالى: (وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣)[الفرقان: ٣]. "يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء، المالك لأزمة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟! (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا) أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم"[٣]. "فصح أن كل ما

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٩ص: ١٥١.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٢٧٨.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣١٠.

عبدوه ومنهم المسيح والجن لا يخلقون شيئاً ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؛ فثبت يقيناً أنهم مصرفون مدبرون وأن أفعالهم مخلوقة لغيرهم"[١].

ثالثاً: دلالة المخلوقات على ربوبية الخالق سبحانه وتعالى:

لقد خلق الله هذا الكون وأودع فيه آيات كثيرة تدل على صفات الله تعالى وأفعاله سبحانه، ومنحنا عقولاً وأبصاراً للتدبر والتأمل فيها، ولنستدل على أن لهذا الكون موجداً وله صفات، وأنه لم يخلقها العدم فتجزم العقول بأن لها خالقاً ومبدعاً، ثم إن الله تعالى دعا إلى النظر والتفكر والتأمل في آياته وفي ملكوت السماوات والأرض لمعرفة الخالق سبحانه بصفاته وأفعاله عز وجل. فقال عز وجل : (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾)[الأعراف: ١٨٥]. "أي: أو لم ينظروا هؤلاء المكذبين بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له؛ فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه"[٢]. وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) [الروم: ٨]. "يعني بالنظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس

---

(١) ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبي محمد، الفصل في الملل والنحل (مكتبة الخانجي– القاهرة–) ج: ٣، ص: ٣٣.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٧١، وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٢ ص: ٥٦، وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٢٩٩.

المختلفة"[١]. وقال تعالى: (فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾) [الروم: ٥]. "إن الذي يحي هذه الأرض بعد موتها بهذا الغيث لمحي الموتى بعد موتهم، وهو على كل مع قدرته على إحياء الموتى قدير، لا يعز عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه فعل شيء شاءه سبحانه"[٢]. وقال تعالى: (إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾) [البقرة:١٦٤]. وقال تعالى: (إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾)[الجاثية: ٣-٦]. "يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات (نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ)أي متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون"[٣]؟!

والخلاصة من كل ما تقدم ذكره أن معرفة الله والإقرار بربوبيته أمر ثابت في النفوس، وإن "الله تبارك وتعالى أعلى وأجل وأكبر وأعظم من أن يحتاج في معرفة وجوده إلى شواهد واستدلالات، فذات

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٤٢٨، وانظر: السعدي: عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى١٣٧٦هـ، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين، (مؤسسة الرسالة –بيروت- ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)، ج: ١ص: ٦٣٧.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٢٥٨.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٤٩.

المخلوق نفسه شاهدة بوجود خالقه حيث أوجده ولم يك من قبل شيئاً"[١]. ومناظرة الرسل عليهم السلام لأقوامهم في هذا الباب يطول، ولكن من بعث فيهم محمد -ﷺ- من كفار قريش لم يكن فيها من جحد الخالق، وإنما جعلوا له أنداداً يحبونهم كحب الله ويعبدونهم من دون الله عز وجل، وقد وضح ذلك الله عز وجل في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[الزخرف: ٨٧]. "فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعاً ومدبرا وإن سماه بغير اسمه. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. فكل مولود يولد على ذلك الإقرار"[٢] ؛"أي الإقرار بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً"[٣]. وإنما أنكر معرفة الله أهل الكلام "فأول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام -الذي اتفق السلف على ذمه- من الجهمية والقدرية[٤]، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم. ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم فيه سلفهم الجهمية، فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء المسلمين، وليس كذلك، وإنما صدر أولاً عمن ذمه أئمة الدين وعلماء المسلمين"[٥]. ولقد نقل عن أئمة الدين الرد على من أنكر وجود الله تعالى؛ "فعن الإمام مالك رحمه الله[٦]تعالى أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات.

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج:١، ص: ١٣٠.

(٢) شفاء العليل، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٨٣.

(٣) القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دار الشعب- القاهرة-) ج: ١٦، ص: ١٢٣.

(٤) القدرية: وهم أصحاب معبد بن خالد الجهني، أول من تكلم بالقدر، من مذهبهم نفي الاستطاعة عن العبد، قتله عبد الملك، وصلبه بدمشق سنة:٨٥هـ. "انظر:الفرق بين الفرق،١٨-٢٠".

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٥٣.

(٦) مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي، وكان أبو عامر أبو جد مالك حليف عثمان بن عبيد الله التيمي القرشي، كان مولد مالك سنة ثلاث أو أربع وتسعين، وكنيته أبو عبد الله، من سادات أتباع التابعين وجلة الفقهاء والصالحين ممن كثرت عنايته بالسنن وجمعه لها وذبه عن حريمها وقمعه من خالفها أو رام=

وعـــن أبـــــي حنيفــــة رحمــــه الله[١] تعالى أن بعض الزنادقة[٢] سألوه عن وجود الباري تعالى فقال:

دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل.

فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع. فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه"[٣].

ثانياً: الآيات الدالة على ألوهيته سبحانه وتعالى:

أولاً: دلالة الفطرة على ألوهيته عز وجل:

لقد فطر الله النفوس على الإقرار بأن لها إله ترجع إليه في الشدائد والكرب؛ فهم مع إيمانهم بأصنامهم وأوثانهم إلا أنهم عندما تنزل بهم المحن والكروب يرجعون إلى الله عز وجل. وقد ضرب الله

=مباينتها، مؤثراً لسنة رسول الله -ﷺ- على غيرها من المخترعات الداحضة قائلاً بها دون الاعتماد على المقايسات الفاسدة، مات سنة تسع وسبعين ومئة، سمع نافعاً والزهري، وروى عنه الثوري وشعبة. قال بن عيينة: كان مالك إماماً في الحديث. وقال يحيى بن سعيد: كان مالك إماماً في الحديث "انظر: مشاهير علماء الأمصار، ج: ١، ص: ١٤٠، وانظر: التاريخ الكبير، ج: ٧، ص: ٣١٠".

(١) هو النعمان بن ثابت بن زوطي... الفقيه الكوفي، أدرك أربعة من الصحابة: أنس بن مالك، عبد الله بن أبي أوفى بالكوفة، وسهل بن سعد الساعدي بالمدينة، وأبو الطفيل عامر بن واثلة بمكة. كان عالماً، عاملاً، زاهداً، عابداً، أراد أن يوليه أبو جعفر المنصور القضاء في بغداد فأبى، وحبس بسبب ذلك، ولد سنة٨٠هـ في حياة صغار الصحابة، وتوفي في بغداد في سجنه، في رجب وقيل: في شعبان سنة ١٥٠هـ، "معجم المؤلفين ج: ١٣، ص: ١٠٤، والأعلام ج: ٨، ص: ٣٦".

(٢) الزندقة: لفظ أعجمي معرب أخذ من كلام الفرس بعد ظهور الإسلام وعرب، وقد كانت الزندقة تطلق على من يؤمن بكتاب المجوس المقدس "الزندافست" ثم أصبحت تطلق على كل من يشكك في الدين، أو يجحد شيئاً فيه... وقد عد الإمام المطلي فرق الزنادقة خمس فرق: "المعطلة، المانوية، المزدكية، العبدكية، والروحانية" ثم كانت الزندقة في النصارى متفشية حتى قال الجاحظ: "إنا لم نرى أهل ملة قط أكثر زندقة من النصارى.. "وهم يقولون بالحلول، وتأليه البشر، وتشبيه الله بخلقه، والقول بالتناسخ. "انظر: الموسوعة الميسرة، ج: ٢، ص: ١٠٧٥-١٠٧٦".

(٣) معارج القبول، مرجع سابق، ج١، ص١٣٥.

لحالهم هذه حالهم في البحر؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾[الإسراء: ٦٧]. وذلك "أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام؛ فوقفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل"(١). وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[الأنعام: ٤٠-٤١]؛ "أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي في وقت الضرورة، لا تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم"(٢). فالكفار لعلمهم أنه لا يقدر على رفع ذلك الضر إلا الله فيدعونه، وغير ذلك من الأدلة كثير.

ثانياً: دلالة العقل على ألوهيته سبحانه وتعالى:

من الناس من لا يرضيه إلا البرهان العقلي؛ لذلك فقد دعا القرآن الكريم إلى إفراد الله عز وجل بالألوهية عن طريق دلالة العقل؛ فقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الأنبياء: ٢٢]. "يقول تعالى ذكره: لو كان في السماوات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له ﴿لَفَسَدَتَا﴾؛ أي

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ٢٩١.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٣٣، وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٤٠٨.

لفسد أهل السماوات والأرض"[١]. "ودَلَّتِ الآيةُ على أنّه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة، بل لا يكون الإله إلا واحداً، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن فساد السماوات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة، ومن كون الإله الواحد غير الله، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غير، فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله، فإن قيامه إنما هو بالعدل وبه قامت السماوات والأرض"[٢]. وقال تعالى: (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) [المؤمنون: ٩١]. "فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين؛ فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل؛ وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضاً بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه؛ فلا بد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم؛ فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون. وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره، كما دل دليل

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٧، ص: ١٣، وانظر:التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق ، ج: ٣ ص: ٢٤.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٠٨.

التمانع[١]على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذاك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان؛ فيستحيل أن يكون له إلهان معبودان"[٢]. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾[الحج: ٧٣]. "فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه فمن لم يستمعه فقد عصى أمره كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها، وسجَّل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضاً وعاونه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم، فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره؟! فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها؟! فأقام سبحانه حجة التوحيد وبيَّن إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها لم يستكرهها غموض ولم يشنها تطويل ولم يعبها تقصير ولم تزر بها زيادة ولا نقص، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم

---

(١) دليل التمانع هو "أنه لو كَانَ للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته؛ فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كَانَ هذا هو الإله القادر، والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية، وتمام الكلام عَلَى هذا الأصل معروف في موضعه، وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. "انظر: أحمد بن إبراهيم عيسى ، شرح قصيدة ابن القيم، تحقيق: زهير الشاويش. (المكتب الإسلامي-بيروت- ط/٣، ١٤٠٦هـ)، ج: ١، ص: ٣٦٦".

(٢) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢ ص: ٤٦٣-٤٦٤.

متوهم ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشرف البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ"[١].

وغير ذلك من الأدلة كثير.

والخلاصة من كل ما تقدم أن الفطرة السليمة والعقل الصريح المجرد من الأهواء يدل دلالة قاطعة على استحقاق الله عز وجل دون ما سواه للألوهية.

ثالثاً: دلالة السمع على الألوهية:

شهادة الله تعالى على أنه المستحق للعبادة: قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران: ١٨]. "شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين أنه (لا إله إلا هو)، أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ ﴾[النساء: ١٦٦] الآية، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾. وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام: ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ ﴾ منصوب على الحال وهو في جميع الأحوال كذلك: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمةً وكبرياءً، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره"[٢].

---

(١) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢ ص: ٤٦٦ -٤٦٧.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٥٤، وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق ، ج : ٢ ص: ١٦- ١٧.

"فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال؛ فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به. وعبارات السلف في الشهادة تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فان الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه؛ فلها أربع مراتب: فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك وان لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك سبحانه وتكلمه به وإعلامه وإخباره لخلقه به وأمرهم وإلزامهم به"[1].

ثالثاً: الآيات القرآنية التي ربطت بين توحيد الألوهية والربوبية:

أولاً: الآيات الدالة على الربوبية المستلزمة للألوهية:

لقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن الله هو الرب الخالق الرازق المدبر للكون، وفي الوقت نفسه دعت إلى عبادة الله وحده؛ فكما أنكم مقرون بأن الله هو وحده الخالق الرازق المدبر فيستلزم ذلك منكم أن تقروا بأن الله هو المستحق للعبادة دون من سواه. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣]. "يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدون... وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؛ أي أفردوه بالعبادة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٩.

وحده لا شريك له (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)؛ أي: أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق"[1]. قال تعالى: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾)[يونس: ٣١]. "يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته فقال تعالى: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾)[يونس: ٣١]؛ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته فيخرج منها (حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾)[عبس: ٢٧-٣١] أإله مع الله؟! فسيقولون الله (أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾) [الملك:٢١]. وقوله: (أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ)[يونس: ٣١] أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى: (قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾) [الملك: ٢٣] الآية. وقال: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ)[الأنعام: ٤٦] الآية. وقوله: (وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ)[يونس: ٣١] أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك وأن الآية عامة لذلك كله، وقوله: (وَمَن يُدَبِّرُ

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٤٠٧، وانظر: السعدي ، مرجع سابق ، ج: ١ص : ٣٥٧.

ٱلۡأَمۡرَ)[يونس: ٣١] أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون (يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾)[الرحمن: ٢٩] فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه (فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ)[يونس: ٣١] أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به. (فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ)[يونس: ٣١] أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم. وقوله: (فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ)[يونس: ٣٢] الآية؛ أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة (فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ) أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له: (فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾) أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء"[1]. وقال تعالى: (قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾)[الرعد: ١٦]. "قوله تعالى: (قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) أمر الله تعالى نبيه -ﷺ- أن يقول للمشركين: (قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) ثم أمره أن يقول لهم: (هو الله)؛ إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك، وجهلوا من هو. (قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ) هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤١٧.

وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ أي: فإذا اعترفتم فَلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضر، وهو إلزام صحيح. ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق، والمشرك الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَل لما عبدوه من دون الله، والبصير مَثَل الله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؛ أي: الشرك والإيمان... و(الظلمات والنور) مثل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك. ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج؛ أي خلق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: (الله خالق كل شيء)، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء"[1].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾[الزمر: ٥]. "يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعل هذه الأفعال أيها الناس هو ربكم، لا من لا يجلب لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضراً، ولا يسوق إليكم خيراً، ولا يدفع عنكم سوءاً من أوثانكم وآلهتكم... فالذي صفته ما وصف لكم، وقدرته ما بين لكم الملك، ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما لا لغيره، فأما ملوك الدنيا فإنما يملك أحدهم شيئاً دون شيء، فإنما له خاص من الملك. وأما

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ٣٠٣–٣٠٤.

الملك التام الذي هو الملك بالإطلاق فلله الواحد القهار: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فلا ينبغي أن يكون معبود سواه، ولا تصلح العبادة إلا له ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: يقول تعالى ذكره: فأنى تصرفون أيها الناس فتذهبون عن عبادة ربكم، الذي هذه الصفة صفته، إلى عبادة من لا ضر عنده لكم ولا نفع"[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] فإذا كان الله تعالى هو الخالق الرازق الذي أنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة وخلقكم وخلق الذين من قبلكم ولم يشاركه في ذلك أحد؛ فعليك أن لا تتأله لغيره، ولا تتعبد لسواه، ويلزمك أن تخصه بالتوحيد. وغير ذلك من الأدلة كثير.

والخلاصة مما تقدم أن العبد إذا أقر بأن الله هو خالقه ورازقه فذلك يستلزم منه أن يقر بألوهيته سبحانه وأنه وحده المستحق للعبادة.

ثانياً: الآيات الدالة على ألوهية الله عز وجل المتضمنة لربوبيته سبحانه:

فإن توحيد الربوبية داخل في توحيد الألوهية؛ فمن وحد الله في عبادته ولم يشرك معه أحداً فلا بد أن يكون قد أعتقد أن الله هو الرب المالك المدبر الخالق، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢]. "يعني: لا أعبد

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٣، ص: ١٩٦-١٩٧.

إلا الذي يفعل هذه الأشياء (ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ) أي هو الخالق الذي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء (وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ) أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً"[١].

كما أن من لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً. قال تعالى: (أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧)[النحل: ١٧]. (أَفَمَن يَخۡلُقُ) هذه المصنوعات العظيمة ويفعل هذه الأفاعيل العجيبة (كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ) شيئاً منها ولا يقدر على إيجاد واحد منها، وهو هذه الأصنام التي تعبدونها وتجعلونها شركاء لله سبحانه، وأطلق عليها لَفْظَ (من) إجراءً لها مجرى أولي العلم؛ جرياً على زعمهم بأنها آلهة، أو مشاكلة لقوله: (أَفَمَن يَخۡلُقُ) لوقوعها في صحبته، وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ للكفار ما لا يخفى، وما أحقهم بذلك؛ فإنهم جعلوا بعض المخلوقات شريكاً لخالقه، تعالى الله عما يشركون (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) مخلوقات الله الدالة على وجوده وتفرده بالربوبية وبديع صنعته؛ فتستدلون بها على ذلك؛ فإنها لوضوحها يكفي في الاستدلال بها مجرد التذكر لها"[٢]. فتضمن توحيد الألوهية توحيد الربوبية فمن عجز عن الخلق فلا يستحق العبادة.

والخلاصة مما تقدم أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وليس العكس.

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣٣٩.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٥٤.

المطلب الثاني:

الآيات الواردة في الإيمان بالرسول ﷺ

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الناس عبثاً ولم يتركهم سدى، وأقام السماوات والأرض بعدله، وأرسل الرسل فأقام بهم الحجة وأخرج بهم الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى، فإن تفاوت العقول والمدارك وتباين الأفكار واختلاف الأغراض بين الناس قد يفضي إلى النزاع الشديد بينهم، وبالجملة قد ينتهي هذا النزاع إلى التخريب والتدمير، ولا يرتفع هذا إلا برسول يبعثه الله بفصل الخطاب ليقيم به الحجة، ويوضح به المحجة. قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]. ثم إن الفطر السليمة التي فطر الله عليها الناس لا تستبعد أن يرسل الله سبحانه وتعالى رسلاً مبشرين ومنذرين، بل إن الكفار قد اعترفوا بذلك ولم يستبعدوه مع انحرافهم وسلوكهم غير المنهج القويم، ولكنهم استبعدوا أن يكون الرسل من البشر، بل ظنوا خطأ أنهم ينبغي أن يكونوا من الملائكة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[هود: ٢٥-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ

مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ [الأنعام: ٩١] وقال تعالى: (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾)[الأنبياء: ٢-٤]. وقال تعالى: (﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾)[يس: ١٣-١٥]. وقال تعالى: (﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾)[القمر: ٢٣-٢٥]. ولقد أرسل الله لكل أمة رسولاً منهم بلسان قومه ليبين لهم ما شرعه الله لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء، وأما هذه الأمة المحمدية فأرسل لها خاتم أنبيائه عليهم الصلاة والسلام لدعوتهم للإيمان بالله، فقال تعالى: (مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾)[الأحزاب: ٤٠]. كما أن الله تعالى قد أرسله شاهداً على أمته فقال تعالى: (إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾) [المزمل:١٥]. كما أنه أرسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فقال تعالى: (رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا) [الطلاق: ١١].

ولقد أرسل الله الرسول -ﷺ- للناس كافة. قال تعالى: (وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾) [النساء: ٧٩]. "يقول: جعلناك -يا محمد- رسولاً بيننا وبين الخلق، تبلغهم ما أرسلناك به من رسالة، وليس عليك غير البلاغ وأداء الرسالة إلى من أرسلت، فإن قبلوا ما أرسلت به فلأنفسهم، وإن ردوا فعليها، "وكفى بالله" عليك وعليهم "شهيداً"[١]. وقال تعالى: (وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا) [الأحزاب٤٦]. "والله تعالى قد سماه سراجاً منيراً، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً. والناس إلى هذا السراج المنير أحوج إلى السراج الوهاج؛ فإنهم محتاجون إليه سراً وعلانية ليلاً ونهاراً بخلاف الوهاج، وهو أنفع لهم فإنه منير ليس فيه أذى بخلاف الوهاج فانه ينفع تارة ويضر أخرى، ولما كانت حاجة الناس إلى الرسول والإيمان به وطاعته ومحبته وموالاته وتعظيمه وتعزيره وتوقيره عامة في كل زمان ومكان كان ما يؤمر به من حقوقه عاماً لا يختص بغيره، فمن خص قبره بشيء من الحقوق كان جاهلاً بقدر الرسول وقدر ما أمر الله به من حقوقه، وكل من اشتغل بما أمر الله به من طاعته شغله ذلك عما نهى عنه من البدع المتعلقة بقبره وقبر غيره، ومن اشتغل بالبدع المنهي عنها ترك ما أمر به الرسول من حقه؛ فطاعته هي مناط السعادة والنجاة"[٢]. وقال تعالى: (لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾)[آل عمران١٦٤] وقال تعالى: (كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٧٦.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الرد على الأخنائي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني (المطبعة السلفية- القاهرة-) ج: ١، ص: ١١٧.

يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ) [البقرة: ١٥١]. والإيمان برسول الله -ﷺ- يتضمن الإيمان بأنه رسول الله وخاتم النبيين، وأن رسالته خاتمة الرسالات، وأنها ناسخة لجميع الرسالات، والإيمان بعصمته -ﷺ-. قال تعالى: (**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾**) [النجم: ٢-٣] وطاعته في كل ما أمر به. قال تعالى: (**وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾**) [آل عمران: ١٣٢]. كما يجب علينا التحاكم إليه والرضا بحكمه -ﷺ-. قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾) [النساء: ٥٩]. وقال تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾) [النساء: ٦٥]. هذا في حياته، أما بعد مماته فيكون التحاكم إلى سنته وشريعته -ﷺ-.

ومحبته -ﷺ- كما قال تعالى: (قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ) [التوبة: ٢٤]. وقال تعالى: (**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ**) [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: (**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾**) [آل عمران: ٣١]. ومحبة الرسول -ﷺ- تتضمن محبة آل بيته وصحابته رضوان الله عليهم جميعاً. قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

"ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله -ﷺ-، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾[الحشر: ١٠]" [1].

والمحبة الصادقة للرسول -ﷺ- تكون في اتباعه -ﷺ-: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]. ومن حقه -ﷺ- تعزيره وتوقيره وتعظيمه. قال تعالى: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفتح: ٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات:٢]. ومن حقه -ﷺ- الصلاة عليه والسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

والخلاصة: أنه يجب الإيمان بالرسول -ﷺ- إيماناً بعيداً عن الغلو فيه -ﷺ- كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]. فالرسول -ﷺ- خلقه الله بشراً لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وإنما أرسله للناس بشيراً ونذيراً. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

---

(١) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٥٢- ١٥٣.

المطلب الثالث:

الآيات الواردة في ربط الإيمان بالله وطاعته بالإيمان بالرسول وطاعته

لقد ربط الله عز وجل في آيات كثيرة من القرآن الكريم بينه عز وجل وبين رسوله -ﷺ- سواء كان ذلك في الإيمان بهما أو طاعتهما.

أولاً: الربط بين الإيمان بالله والإيمان برسوله -ﷺ-:

فالناس محتاجون للإيمان بالرسول -ﷺ- أشد من حاجتهم إلى الأكل والشراب؛ وذلك لأنه هو السراج والدليل والهادي إلى الله عز وجل، "فالإنسان بدون الإيمان بالله ورسوله لا يمكنه أن ينال معرفة الله ولا الهداية إليه، وبدون اهتدائه إلى ربه لا يكون إلا شقيّاً معذباً، وهو حال الكافرين بالله ورسوله"[١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ ﴾ [النساء: ١٧٠]. "يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ مشركي العرب وسائر أصناف الكفر، ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾: يعني محمداً -ﷺ- قد جاءكم ﴿بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ يقول: بالإسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديناً. يقول: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ ﴾: يعني من عند ربكم ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ ﴾ يقول: فصدقوه وصدقوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين، فإن الإيمان بذلك خير لكم من الكفر به ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ يقول: وإن تجحدوا رسالته وتكذبوا به وبما جاءكم به من عند ربكم، فإن جحودكم ذلك وتكذيبكم به، لن يضر غيركم، وإنما مكروه ذلك

---

(١) فتاوى مهمة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢٩.

عائد عليكم، دون الذي أمركم بالذي بعث به إليكم رسوله محمد -ﷺ-، وذلك أن لله ما في السماوات والأرض، ملكاً وخلقاً، لا ينقص كفركم بما كفرتم به من أمره وعصيانكم إياه فيما عصيتموه فيه، من ملكه وسلطانه شيئا (وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)"[١].

وقال تعالى: (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾) [الأعراف: ١٥٨]. "قل لهم: أن يصدقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقروا بوحدانيته، وأنه الذي له الألوهية والعبادة، وصدقوا برسوله محمد -ﷺ- وأنه المبعوث إلى خلقه، داع إلى توحيده وطاعته. وأما قوله تعالى: (وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) فاهتدوا به أيها الناس، واعملوا بما أمركم أن تعملوا به من طاعة الله (لَعَلَّكُمْ) يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحق في اتباعكم إياه"[٢]. وكذلك قوله تعالى: (وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾) [الفتح: ١٣] "وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره"[٣]. ومن هذه الآيات يتضح لكل عاقل أن الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة إنما تحصل بالإيمان بالله ورسوله واتباع ما جاء به رسوله -ﷺ-، وإن من لم يؤمن به فهو الكافر حقاً وهو المستحق للنار يوم القيامة.

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٣٣، وانظر: تفسير ابن كثير ، مرجع سابق ، ج : ١ ص :٥٩٠، وانظر: تفسير السعدي،مرجع سابق ، ج: ١ ص : ٢١٥-٢١٦.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٨٧، وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق ، ج : ٢ ص : ٢٥٧، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق ، ج : ١ ص : ٣٠٥.

(٣) تفسير البيضاوي ،مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٢٠٢، تفسير أبي السعود، مرجع سابق ، ج : ٨ ص : ١٠٨.

ثانياً: الربط بين طاعة الله وطاعة رسوله -ﷺ-:

إن الله عز وجل قد قرن بين طاعته ومعصيته بطاعة الرسول -ﷺ- ومعصيته؛ فطاعة الرسول -ﷺ- طاعة لمن أرسله، ومعصيته معصية لمن أرسله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. "فإن الله تعالى قد أمر بتعظيم الرسل بأن يطاعوا فلا يعصوا ويحبوا ويتبعوا، وإن طاعة الرسول هي طاعة لله عز وجل، ومعصيته معصية لله عز وجل؛ فهذا تعظيم لا يتم الإيمان بالله إلا به؛ إذ هو عين تعظيم الله تعالى؛ فإنهم إنما عظموا لأجل عظمة المرسل سبحانه وتعالى، وأحبوا لأجله واتبعوا على شرعه؛ فعاد ذلك إلى تعظيم الله عز وجل"[1]. بل إن الله عز وجل قد فرض علينا طاعة الرسول -ﷺ- الذي بعث إلينا ومحبته وتعزيره وتوقيره والتسليم لحُكمه، فقال تعالى: (**قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾**) [آل عمران: ٣٢]. "فدل على أن مخالفته في الطريق كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته"[2]. وقال تعالى: (**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾**) [النساء: ٨٠]. "إن طاعة الرسول طاعة لله، وفي هذا من النداء بشرف رسول الله -ﷺ- وعلو شأنه وارتفاع مرتبته ما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه، ووجهه أن الرسول لا يأمر إلا بما أمر الله به، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه"[3]. "ففي الحقيقة لا يطاع أحد لذاته إلا الله له الخلق والأمر وله الحكم وليس الحكم إلا لله، وإنما

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥١٤.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٥٩، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج : ١ ص : ١٢٨.

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٨٩.

وجبت طاعة الرسول لأن طاعته طاعة لله"[١]. "وطاعته وجبت بعد ثبوت رسالته بالعقل أو بالشرع على وجهين: أحدهما بالعقل لأن طاعة الرسول طاعة المرسل. والوجه الثاني بالشرع لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ لأن الرسول مبلغ عن الله"[٢]. وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ ﴾ [المائدة: ٩٢]. "أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ "أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة"[٣]. ففي هذه الآية "يخبر تعالى عن رسوله أنه مبلغ عنه مؤد لما أرسله به، وهذا يعرفه كل أحد يعقل لفظة (رسول)؛ فإن الرسول لا بد له من مرسل برسالاته؛ فالمرسِل الله عز وجل، والرسالة هي القرآن، والمرسَل محمد -ﷺ-"[٤]. ومن كل ما تقدم يتضح أنه لا سبيل للنجاة في الآخرة إلا بطاعته -ﷺ- ولا يسأل الإنسان يوم القيامة إلا عن الإيمان به وطاعته، ولذلك أمرنا الله بطاعته والتسليم لحكمه واتباع شرعه.

كما أن طاعة الرسول -ﷺ- يحصل للعبد بها "أربعة أنواع من الجزاء المرتب على طاعة الرسول -ﷺ- أحدها: حصول الخير مطلقاً بها. والثاني: التثبيت والقوة المتضمنة للنصر والغلبة. والثالث:

---

(١) منهاج السنة النبوية، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٣٤١.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، أعلام النبوة، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي (دار الكتاب العربي-بيروت- لبنان ط/١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م) ج: ١، ص: ١٢٤.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٧٦، وانظر: السعدي، مرجع سابق، ج : ١ ص : ٢٤٣.

(٤) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٦٧.

حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة. والرابع: هدايتهم الصراط المستقيم. وهذه الهداية هي هداية ثانية أوجبتها طاعة الرسول -ﷺ-؛ فطاعته -ﷺ- ثمرة الهداية السابقة عليها؛ فهي محفوفة بهدايتين: هداية قبلها وهي سبب الطاعة، وهداية هي ثمرة لها"[١]. "وكما أن الله أمرنا بطاعته فقد أمرنا أيضاً أن لا نعبد إلا الله وحده ولا نشرك به شيئاً، ولا نتخذ الملائكة والنبيين أرباباً، وفرق بين حقه الذي يختص به والذي لا يشاركه فيه ملك ولا نبي، وبين الحق الذي أوجبه علينا وعلى الملائكة وأنبيائه عموماً"[٢]. فالكافر لا يصير مؤمناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الخلاصة من كل ما تقدم أن ربط الله عز وجل بينه وبين نبيه محمد -ﷺ- سواء كان ذلك في الإيمان أو في الطاعة فإن ذلك يدل على أن الإيمان بالله عز وجل وطاعته سبحانه لا يتحقق إلا بالإيمان بالرسول -ﷺ- فهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله -ﷺ-.

---

(١) شرح كتاب التوحيد، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٠١.

(٢) الرد على الأخنائي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٠٨.

المبحث الثالث

الآيات القرآنية الواردة في مجادلة الكفار

تمهيـــد:

إن اختلاف الناس واقع، على اختلاف الأماكن والأزمان، فهذه سنة الله في خلقه، فالله تعالى خلق الناس مختلفين في أديانهم وعقائدهم، وفي ألوانهم وألسنتهم. فقد قدر الله وقضى ذلك لحكمة عظيمة وغاية جليلة وهي الابتلاء والاختبار. قال تعالى:﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. والمراد بالاختلاف هنا: "الاختلاف في الدين"[١]. ولا سبيل لدفع هذا الاختلاف والوصول إلى الحق إلا من خلال الحوار والجدال بالتي هي أحسن؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. وهذه حقيقة لا ينكرها من لديه أدنى علم بالشريعة ومقاصدها؛ لأن الغرض من ذلك تحرير البشر من عبادة الطواغيت لعبادة الله عز وجل، والخروج من الظلمات إلى النور. وسوف نتناول في هذا المبحث مطالبين:

المطلب الأول: تعريف الحوار وبيان أهميته وكيفيته وأنواعه.

المطلب الثاني: شبهات من أنكر المجادلة مع الكفار والرد عليهم.

---

(١) انظر: محمد بن أحمد، عبد الرحمن بن أبي بكر ، المحلي، السيوطي، تفسير الجلالين (دار الحديث- القاهرة- ط/١) ج: ١، ص: ٣٠٢.

المطلب الأول

تعريف الحوار وبيان أهميته وكيفيته وأنواعه

*** تعريف الحوار والجدال في اللغة والاصطلاح:**

الحوار "بمعنى المحاورة أي: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة وقد حاوره"[١]. "والحوار بكسر الحاء المحاورة أي مراجعة الكلام"[٢].

الجدال: "يقال: جَدِلَ الرجل جدلاً فهو جَدِل. من باب (تعب)؛ إذا اشتدت خصومته. وجادل مجادلة وجدالاً؛ إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، هذا أصله، ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم"[٣].

والحوار والجدال ذو دلالة واحدة، وقد اجتمع اللفظان في قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١].

ويراد بالحوار والجدال في الاصطلاح: "دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة"[٤].

*** أهمية الحوار وأنواعه:** يعتبر الحوار من أحسن الوسائل الموصلة إلى الإقناع وتغيير الاتجاه الذي قد يدفع إلى تعديل السلوك إلى الأفضل، كما أن له أهمية كبيرة في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل

---

(١) لسان العرب، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢١٨

(٢) معجم البلدان، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣١٤.

(٣) الفيومي: لأحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، (الدار العلمية- بيروت-) ج: ١، ص: ٣٩.

(٤) الجرجاني: علي بن محمد بن علي الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإبياري (دار الكتاب العربي- بيروت- ط/١، ١٤٠٥هـ) ج: ١، ص: ١٠١.

وتوضيح الحق للآخرين، فإذا كان المسلم يسعى إلى الدعوة إلا الله عز وجل بطرق شتى، فإن من أهم تلك الوسائل الحوار الهادف، الذي يؤدي إلى الاهتداء إلى الحق. قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. فإن مبدأ الحوار مع الإنس والجن قد بدأ مع خلق الخليقة. ولنا في القرآن الكريم عظة ومثل واعتبار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤]. فهو يروي لنا قصص الأولين والآخرين وكيف كان يتم الحوار بين الأنبياء ورسلهم، بل إن الحوار لم يكن فقط بين الإنسان والإنسان فحسب، وإنما بين الله جلّت قدرته وبعض خلقه بما فيهم إبليس اللعين. وكيف كان الله يظهر الحق في نهاية الحوار ليؤمن به الجميع. وعلى هذا فإن الحوار في القرآن الكريم لم يقتصر على نوع واحد بل كان له عدة أنواع منها: حوار الله عز وجل مع الملائكة، وحوار الله عز وجل مع إبليس، وحوار الله مع أنبيائه، وحوار الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، والحوار بين الصالحين، والحوار بين الكافرين، وأنواع أخرى كثيرة. والذي يهمنا هنا هو الحوار الذي دار بين الله وإبليس، وبين الأنبياء وأقوامهم.

أولاً: الحوار الذي دار بين الله عز وجل وإبليس:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾[الأعراف: ١١]. "وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى

وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين"[١]. فقال الله تعالى له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟! "ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك[٢]"؟! عند ذلك بدأ إبليس عليه لعنة الله يبدي العذر الذي هو أقبح من الذنب الذي فعله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ "كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني - لعنه الله-: وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له؟! ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر و لم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص"[٣]. "يقول تعالى مخاطباً إبليس بأمر قدري كوني: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾؛ أي: بسبب عصيانك لأمري وخروجك عن طاعتي. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾؛ "أي الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾. أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. ثم إنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد"[٤] فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٠٣. وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥١٥.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٠٤. وانظر: تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ١٧٠.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج:٢، ص: ٢٠٤. وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢١٦.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٠٥.

تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾، عند ذلك قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١١-١٨].

*** ثانياً: محاورة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم:**

حينما نقرأ القرآن نجد أنه كثيراً ما يورد لنا قصص الأنبياء وما حدث بينهم وبين أقوامهم. وهذه القصص لم توجد عبثاً، وما ملئ بها القرآن حشواً، بل خاطبنا الله عز وجل بها لنعتبر ونتعظ ونأخذ من سير الأنبياء عليهم السلام منهجاً وطريقاً، فهم يمثلون قمة النجاح في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وقمة النجاح في استخدام الأساليب المناسبة في دعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده وترك من سواه، حينما نقرأ قصص القرآن نرى أنها لا تكاد تفتقد الحوار والجدل بين الأنبياء وأقوامهم، ففي كل قصة من هذه القصص نجد الأنبياء عليهم السلام، يخاطبون أقوامهم، ويجادلونهم أفراداً وجماعات، وكل ذلك لإظهار الحق لهم ودفع الباطل، وتبديد شبههم. وقد كان ذلك الحوار يدور حول ثلاثة أمور هي:

أولاً: محاورتهم في ربوبية الله عز وجل:

لقد ورد في القرآن الكريم كثير من الأمثلة على محاورة الأنبياء مع أقوامهم في إثبات الربوبية لله تعالى. ومن أمثلة ذلك ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود الذي طغى وبغى وتجبر في الأرض؛ فدعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له؛ فحمله جهله وضلاله إلى إنكار الخالق عز وجل، وادعى الربوبية لنفسه؛ فحاجّه الخليل إبراهيم عليه السلام في هذا الادعاء. قال الله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ ﴾ [البقرة:٢٥٨] لم يتمادَ إبراهيم الخليل عليه السلام في المحاجة والمجادلة مع هذا الطاغية مع

إمكانية رده على هذه الحجة، ولكنه آثر الانتقال إلى حجة أكثر إفحاماً ودليل أكثر تعجيزاً، لا يستطيع الملك أمامه إلا أن يُبهت وينقلب على عقبيه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾. [البقرة٢٥٨]. "فإن من تأمل موقع الحجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة؛ فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد فقد أحيا هذا وأمات هذا؛ فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة. فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه، وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة"[(١)].

وهكذا استطاع إبراهيم الخليل عليه السلام أن يدحض حجة هذا الطاغية ويظهر الحق وهو أنه لا أحد متفرد بالربوبية والخلق والتدبير والتصرف في الكون إلا الله خالق كل شيء ومليكه. وفي سورة الأنعام نرى كيف دار الحوار بين إبراهيم الخليل عليه السلام وأبيه آزر وقومه عباد الكواكب، ذلك الحوار الذي استنكر فيه إبراهيم الخليل عليه السلام على أبيه وقومه عبادة الأصنام واتخاذها آلهة لهم من دون الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤]ثم يأتي قول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[الأنعام: ٧٥]. فبعد أن أصبح من الموقنين بدأ إبراهيم الخليل عليه السلام في محاجة قومه "على سبيل

---

(١) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٩٠-٤٩١.

الاستدراج أو التوبيخ ليبين لهم سخافتهم وجهلهم وضعف عقولهم في عبادتهم هذه الكواكب المخلوقة لحكمة الله عز وجل المسخرة بقدرته وغفلتهم عن خالقها ومسخرها والمتصرف فيها وتركهم عبادته أو إشراكهم معه فيها غيره عز وجل"[١].

"فاستدل بالأفول والزوال والتغير والانتقال على أنه لا يصلح أن يكون رباً إلهاً؛ فإن الإله القديم لا يتغير، وإذا تغير احتاج إلى مغير، هذا لو اعتقدتموه رباً قديماً وإلهاً أزلياً، ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعاً ووسيلة؛ فإن الأفول الزوال يخرجه أيضاً عن حد الكمال، وعن هذا ما استدل عليهم بالطلوع وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول، فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول، فأتاهم الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم؛ فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته؛ وذلك أبلغ في الاحتجاج، ثم لما ﴿رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧]"[٢]. ثم لما رأى الشمس بازغة قال: ﴿هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾[الأنعام: ٧٨]. فلما غابت الشمس وصل الخليل عليه السلام بمحاوريه إلى حقيقة واحدة قام عليها الكون؛ ألا وهي:﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام: ٧٩]. وبهذه المحاجة استطاع الخليل إبراهيم عليه السلام أن يبطل حجتهم وأن يدحضها، فكيف يخاف منها ولم يخافوا من الله عز وجل وأشركوا به: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٠٤.

(٢) الملل والنحل، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٣.

أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي ... أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾)[الأنعام٨٠-٨١]. ثم يأتي بعد ذلك سؤال يذكرهم بما استقر في فطرهم. قال تعالى: (فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾) [الأنعام: ٨١].

وقال تعالى في قصة موسى عليه السلام ومحاجته مع فرعون الذي تكبر وطغى وقال: إنه هو الأعلى منكر لله تعالى فقال: (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾) [الشعراء: ٢٣] "وإنما هذا استفهام إنكار وجحود كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له، لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته؛ فلهذا بين لهم موسى أنه معروف وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو، بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يُجهَل، بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معروف"[1]؛ فقال: (رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾)[الشعراء: ٢٤]. "أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها: العالم العلوي وما فيه من الكواكب النيرات الثوابت والسيارات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وأنهار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير والسحاب المسخر والرياح والمطر وما يحتوي عليه الجو، وغير ذلك من المخلوقات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق، هو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، الجميع مذللون مسخرون وعبيد له خاضعون ذليلون. (إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ): أي إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة"[2]. عند ذلك قال فرعون للملأ حوله على سبيل التنقص والاستهزاء والتكذيب لموسى عليه السلام: (أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾)

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج:١، ص: ٧٧.

(٢) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٩.

[الشعراء: ٢٥]. "أنا أسأله عن شيء فيجيب عن غيره. فقال موسى عليه السلام: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٦]. "أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد؛ فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه و لم يحدث من غير محدث وإنما أوجده وخلقه رب العالمين"[1]. فلما قال موسى عليه السلام ذلك استشعر فرعون أنه أخطأ في السؤال؛ فخشي أن يدرك ذلك جلساؤه فقال: (إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾) [الشعراء: ٢٧]. رماه بذلك حتى يتخلص ويصير موسى عليه السلام في مقام لا يلتفت إلى قوله ولا يؤخذ به"[2]. وبهذا استطاع موسى عليه السلام أن يرد على هذه الشبه وأن يذكرهم بما استقر في نفوسهم من أن الله هو المستحق للربوبية وحده.

وغير ذلك من الأمثلة كثير.

* **ثانياً: محاورة الأنبياء لأقوامهم في ألوهية الله عز وجل:**

لقد دعا الأنبياء جميعهم عليهم السلام أقوامهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وأكثروا معهم الجدال في ذلك. وقد ضرب الله لهذا الجدال نماذج كثيرة منها ما ورد في قصة نوح عليه السلام مع قومه عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سوه، فقال لهم بعبارة موجزة ليضعهم أمام حقيقة الألوهية: (أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾)[هود: ٢٦]؛ "أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الاخرة"[3]. عند ذلك انقسم

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٩.

(٢) تقي الدين أبو بكر الحصني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩هـ، دفع شبه من شبه وتمرد (المكتبة الأزهرية- مصر-) ج: ١، ص: ٢١.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٤٤٣.

الناس إلى قسمين: قسم صدق ما جاء به نوح وهم الضعفاء والمساكين، وقسم صد عن هذه الدعوة واستكبر استكبار وأخذ بالتشكيك فيها ومحاربتها وأخذوا في مجادلة نوح، وهم الملأ الذين كفروا فقالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]. "أي لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحي إليك من دوننا"[١]. ونوح عليه السلام كان مقر بذلك، وكان يقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥﴾[هود: ٢٥]. وعند ذلك بدو في مجادلته في أتباعه من الفقراء والضعفاء فقالوا: "ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم، ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك. ولهذا قالوا"[٢]: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: ٢٧]. ثم بعد ذلك لجؤوا إلى مساومته، فقالوا: إذا أردت يا نوح أن نتبعك فاطرد الذين اتبعوك من الضعفاء. عند ذلك رد عليهم بكل شفقة ورحمة فقال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ [هود: ٢٨-٣٠].

كل ذلك ونوح يناقش ويجادل قومه في حججهم بمنطق الفكر المتجرد من المصالح الشخصية، ويبين لهم أنه مجرد بشر ولا يملك خزائن الله من الإنعام على من يشاء من عباده وحرمان من يشاء ولا يعلم الغيب

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٤٤٣، وانظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج : ١٢ ص : ٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٤٤٣، وانظر: السعدي، مرجع سابق، ج: ١ ص : ٣٨٠.

إلا الله وليس بملك من الملائكة ولا أقول لهؤلاء الذين تستحقرونهم لن يؤتيهم الله أجورهم فهو الذي يحاسبهم فهو أعلم بهم: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ ﴾ [هود: ٣١]. وعند ذلك سئم قوم نوح من مجادلته لهم فقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ ﴾ [هود: ٣٢]. عند ذلك بين لهم نوح أنه لا يملك لهم شيئاً، وإنما الذي يملك عذابهم وإهلاكهم و هدايتهم وغوايتهم هو الله عز وجل﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ ﴾ [هود: ٣٣-٣٤].

وهناك نموذج آخر من هذا الحوار كما نراه في قصة هود عليه السلام مع قومه حيث بدأ رسول الله هود عليه السلام دعوته قائلاً لقومه كما قال الرسل من قبله لأقوامهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠]، ثم أفهمهم أنه لا يرد على هذه الدعوة أجراً كما يظنه الكفار عندما يدعوهم الأنبياء إلى الإيمان بالله وحده، وإنما جاء ليدعوهم إلى الحق المبين الذي فطرهم الله عليه فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١] ثم طلب منهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه فهو وحده الذي يستطيع إرسال السماء عليهم بالماء المدرار ويزيدهم قوة إلى قوتهم، فقد كانوا قوماً أقوياء فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢]. عند

ذلك بدأ القوم بمجادلته فقالوا له: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: ٥٣]. أي يا هود لم تأت بدليل خارق على صدق ما تدعونا إليه، ولن نترك عبادة ألهتنا لمجرد قولك هذا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ عند ذلك قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: ٥٤-٥٥]. وهذا كان تحدٍّ من نوح عليه السلام لهم وتبرؤ من هذه الألهة التي عبدوها من دون الله وتنقص لها بأنها لا تستطيع أن تنفع أو تضرّ ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦]. عند ذلك بين لهم هود أنما هو رسول مبلغ عن الله تعالى وأن الذي يتولى أمر محاسبتهم وعقابهم هو الله تعالى فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود:٥٧].

وهناك نموذج آخر من هذا الحوار كما هو في قصة صالح عليه السلام مع قومه عندما دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله عز وجل، وترك عبادة من سواه، ثم إنه نبههم إلى أن الله قد جعل لهم معجزة ودليلاً على صحة ما يدعوهم إليه، وطلب منهم ألا يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾[الأعراف:٧٣]. ثم بعد ذلك أخذ يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ

ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾)[الأعراف:٧٤]. ولكن قومه تركوا كلامه وتجاهلوه واتجهوا إلى الذين آمنوا من قومه يسألونهم سؤال استخفاف فقالوا: (مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ)[الأعراف:٧٥] . عند ذلك قالت الفئة الضعيفة: (إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾) [الأعراف:٧٥] . عند ذلك أخذت الذين كفروا العزة بالإثم وأعلنوا كفرهم وعقروا الناقة وعتوا عن أمر الله وأخذوا يطلبوا من صالح أن يأتيهم بالعذاب: (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾)[الأعراف:٧٦-٧٧] فعاقبهم الله على ذلك (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾)[الأعراف:٧٨] .ولقد بين لهم أن الذي صرفهم عن الاستجابة للحق هو الهوى فقط لا غير: (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾)[الأعراف: ٧٤-٧٩].

وغير ذلك كثير.

*** ثالثاً: محاورة الأنبياء أقوامهم في بعض المنكرات:**

"قد يتلبس الكافر بمعاص زيادة على كفره الذي هو جريمته الكبرى، فيجوز للداعي المسلم أن ينكر عليه كفره ومعاصيه الأخرى"[(١)]؛ فلوط عليه السلام قد دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ودعاهم أيضاً إلى ترك فاحشة عظيمة كان قومه يمارسونها وهي إتيان الذكور. قال تعالى حكاية

---

(١) د/عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، (مؤسسة الرسالة- بيروت- ط/١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) ج: ١، ص: ٢٣٤.

عما قاله لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾[الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. فلم يكن جواب قومه عندما نصحهم لوط إلا أن قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾[النمل: ٥٦]. كما أن شعيباً عليه السلام لم تقف دعوته عند دعوتهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وإنما دعاهم إلى الإقلاع عن التطفيف في الميزان والمفاسد والمنكرات التي كانوا يفعلونها. قال تعالى مخبراً عما نهاهم عنه شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨٧﴾[الأعراف: ٨٥-٨٧]. ثم إن شعيباً عليه السلام بين لهم أن بقية الله خير لهم فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾ [هود: ٨٦]. ثم بين لهم أنه لا يريد من هذا النصح إلا الإصلاح ما استطاع، فقال الله حكاية عن ذلك: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود: ٨٨].

عند ذلك أخذ الملأ الذين استكبروا من قومه في تهديده فقالوا له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨].

* **كيفية الحوار:**

إن المتتبع لطريقة القرآن في الحوار مع الكفار يرى أنها تقوم على أسس وهي:

أولاً: أن يكون للحوار هدفاً واضحاً، وأن يكون خالياً من أي مصلحة شخصية، كما أخبر الله في كتابه الكريم عن أنبيائه عليهم السلام عندما قالوا لأقوامهم؛ فنوح ﷺ قال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [هود: ٢٩]. وقال هود ﷺ: ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود: ٥١]. وأمر الله نبيه محمداً -ﷺ- أن يقول لقومه: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثانياً: الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]. والبعد عن الاستهزاء والطعن في المحاور والتحدي والتعسف، وتعمُّد إيقاع الخصم في الإحراج، إلا إذا استطال الخصم وتجاوز الحد في الظلم وطغى وبغى، وكابر وعاند، وفي مثل هذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾ [النساء: ١٤٨].

ثالثاً: أن تكون المجادلة "بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق"[١]، ومن ذلك حوار الأنبياء مع أقوامهم، ومثاله ما أمر الله به موسى وهارون في مخاطبة فرعون: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]. وقد خاطب نوح عليه السلام قومه بتلطف؛ فقد خاطبهم بقوله: "يا قوم". وخطاب إبراهيم عليه السلام مع أبيه كان في غاية اللطف والشفقة؛ فكان يخاطبه بقوله: "يا أبت".

رابعاً: أن يتضمن الحوار أسلوب الترغيب والترهيب، كما في حوار الأنبياء مع قومهم، ومثاله ما أخبر الله به عن نوح عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [نوح: ٢-٤]. وكما في قول شعيب لقومه: ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

خامساً: "عدم تكذيب أهل الكتاب تكذيباً عاماً لمجرد كونه من كتبهم، بل ينبغي السكوت عن ذلك فلا يصدقون ولا يكذبون"[٢]. ولا يعني ذلك أن يصدقوا في كل شيء وإنما يصدقوا فيما وافق الكتاب والسنة.

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق ، ج: ١، ص: ٦٣٢.

(٢) أ. د/ محمد بركات مراد، منهج الجدل والمناظرة (الصدر للطباعة والنشر- القاهرة- عام ١٩٩٠م) ج: ١، ص: ٣٢٦-٣٢٧.

سادساً: أن يكون المجادل والمحاور على معرفة بأحوالهم، وأن يجادلهم فيما هم عليه، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥].

المطلب الثاني

شبهات من أنكر المجادلة مع الكفار والرد عليهم

إنَّ هناك من رأى أنَّ باب الجدال يجب أن يغلق، ونافذة يجب أن تسد؛ فأنكر الاشتغال بالرد عليهم من باب الشرع الذي دعاهم للقيام بالجدال والدعوة للإسلام، واعتبروا هذا من تضييع الوقت.

* الشبهة الأولى:

منع الجدال مع الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة. وقد رد عليهم شيخ الإسلام بقوله: "ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد في أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة ما يبلغ نحو ثمانين سؤالاً، وأجابوا عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً في المسائل الظنية، بل هي إلى تقرير شُبَه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين، وهم -كما مثَّلهم الغزالي وغيره- بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها به وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها، وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب في الإيمان بالنبوة اضطراباً ليس هذا موضع بسطه"[1].

* الشبهة الثانية:

منع الجدال مع الكفار بناء على نسخ آيات الجدال معهم بآيات السيف وفرضية الجهاد. وقد رد شيخ الإسلام على أصحاب هذا الاتجاه من تسعة وجوه حررها في كتابه "الجواب الصحيح" فقال: "فإن من الناس من يقول: آيات المجادلة والمحاجة للكفار منسوخات بآية السيف. لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة، وهذا غلط فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً

---

(١) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٤٣.

للحكم المنسوخ، كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام... " ثم قال رحمه الله تعالى: "... وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [العنكبوت:٤٦]. فهذا لا يناقض الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة. فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به فلا منافاة بينهما، وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ، ومعلومٌ أن كلاً منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وأن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق."وقد ذكر ابن تيمية عدة وجوه تدحض هذه الشبهة في صفحات كثيرة يمكن اجمالها في النقاط التاليه:

أولا:إن من لا يجاهد بالقتال من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالحسنى.

ثانيا:إن الظالم المستحق للقتال غير طالب للعلم والدين لا يجادل بالتي هي أحسن، بخلاف من طلب العلم والدين و لم يظهر منه ظلم سواء كان قصده من ذلك الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾[العنكبوت:٤٦].

ثالثا: إن الله تبارك وتعالى في – سورة براءة – التي فيها نقض العهود وفيها آية السيف أمر بإجارة المستجير المستأمن وهو من – أهل الحرب – حتى تقوم حجة الله عليه ثم يبلغه مأمنه قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ ﴾ [التوبة:٦].وأمثلة ذلك في القرآن كثير

رابعا: إن من ادعى أن آية مجادلة الكفار أو غيرها مما يدعى نسخة منسوخة بآية السيف لا بد بأن يبين مقصوده من ذلك هل يعني بها آية بعينها أم يعني كل آية فيها الأمر بالجهاد فإن أراد بذلك آية بعينها فيجب عن ذلك بأن الآيات التي فيها ذكر الجهاد متعددة فلا يجوز تخصيص بعضها، وإن أراد بذلك كل آية فيها ذكر الجهاد، رد عليه بإن الجهاد شرع على مراتب.

خامسا: إن قيل: المنسوخ هو الاقتصار على الجدال؛ فيرد على ذلك بأن جهاد الكفار باللسان مازال مشروعا من أول الأمر إلى آخره فإنه إذا شرع جهادهم باليد فباللسان أولى فقد كان النبي -ﷺ- ينصب لحسان[1]منبراً في مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو، وهذا كان بعد نزول آيات القتال، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام، وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب.

سادسا: أن الله تعالى وعد بإظهار الدين كله ظهور علم وبيان، وظهور سيف وسنان، كما قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾)[الصف:٩]. ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال؛ فإن النبي -ﷺ- مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين؛ فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعاً واختياراً بغير سيف؛ لِما بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف، فإذا

---

(١) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي ثم النجاري، شاعر رسول الله -ﷺ-، روى عنه أحاديث، وروى عنه سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبدالرحمن وعروة بن الزبير وآخرون. قال أبوعبيدة: فُضِّل حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي -ﷺ- في أيام النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام. وفي الصحيحين عن البراء أن النبي -ﷺ- قال لحسان: " اهجهم أو هاجهم وجبريل معك". توفي قبل الأربعين، وقيل: سنة ٥٠هـ، وقيل: سنة ٥٤هـ "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٢، ص: ٦٢، وانظر: الاستيعاب، ج: ١، ص: ٣٤١-٣٥٠".

وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعاً؛ فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى.

سابعا: إذا كان القتال الذي لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً؛ فالمجادلة التي تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وانتفاع غيره مشروعة بطريق الأولى.

ثامنا: أن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً -ﷺ- وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف، لا بالهدى والعلم والآيات؛ فإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل: لهم ليس لكم جواب إلا السيف؛ كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف.

تاسعا: أنه من المعلوم أن السيف -لا سيما سيف المسلمين وأهل الكتاب- هو تابع للعلم والحجة، بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم، والسيف من جنس العمل، والعمل أبداً تابع للعلم والرأي.

وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم، وبيان أن ما خالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام، واجتناب لأصل غيره من الأديان التي يقاتل عليها أهلها [1].

والخلاصة من كل ما تقدم أن شبهة من قال بمنع الحوار مع الكفار باطلة لما سبق ذكره كما أن الله أمر بذلك فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل:١٢٥].

---

(١) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢١٩-٢٤٦.

وقال عليه الصلاة والسلام: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم"[١]. قال ابن حزم[٢]رحمه الله: "وهذا حديث غاية في الصحة، وفيه الأمر بالمناظرة وإيجابها كإيجاب الجهاد والنفقة في سبيل الله"[٣].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ك: الجهاد، ج: ٢، ص: ٩١. وهذا الحديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه.

(٢) على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي أبو محمد القرطبي الفقيه الحافظ الظاهري، صاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة: ٣٨٤هـ، وكان واسع الحفظ جدا ، سمع بن حزم من أبي عمر بن الحسون، ويحيى بن بن بيان، وعبد الله بن الربيع، وعبد الله بن يوسف بن نامي، وتلمذ له ونشر ذكره بالمشرق ولده أبو رافع وروى عنه بالإجازة سريج بن محمد بن سريج المقبري، فكان خاتمة من روى عنه وكان أول سماعه في سنة أربع مائة قال صاعد بن أحمد الربعي: كان بن حزم اجمع أهل الأندلس كلهم لعلوم الإسلام، وأشبعهم معرفة، وله مع ذلك توسع في علم البيان، وحظ من البلاغة، ومعرفة بالسير والأنساب، وكان لأبي محمد كتب عظيمة لا سيما كتب الحديث والفقه، وقد صنف كتابا كبيرا في فقه الحديث سماه "الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة" لجمل شرائع الإسلام والحلال والحرام والسنة والإجماع أورد فيه أقوال الصحابة فمن بعدهم والحجة لكل قول وهو كبير جدا وله كتاب "الإحكام في أصول الإحكام" وكتاب "المحلى في الفقه" على مذهبه واجتهاده وشرحه هو المحلى وكتاب "الفصل في الملل والنحل"، توفي سنة:٤٥٦هـ، "انظر:لسان الميزان ج:٤ص:١٩٨-٢٠١".

(٣) ابن حزم: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد، الإحكام في أصول الأحكام (دار الحديث – القاهرة – ط/١، ١٤٠٤هـ)ج: ١، ص: ٢٩.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعد نقاط وهي كتالي:

١-إن أعظم حق على العباد هو حق الله عز وجل وهو إفراده بالعبادة دون ما سواه.

٢-إن أول واجب على العبد هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة دون من سواه.

٣-إن جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم دعت إلى إفراد الله عز وجل بالعبادة وحده لا شريك له.

٤-إن الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى،وأنه المستحق للعبادة دون ما سواه وأنه متصف بصفات الكمال والجلال منزه عن كل نقص وعيب.

٥-إن الإيمان بالله تعالى وما يتضمنه أمر مستقر في الفطر السليمة ،وتشهد بذلك العقول السليمة،وأن كل ما في الكون يشهد على ذلك.

٦-إن الإيمان بالله تعالى وطاعته سبحانه لا تتحقق إلا بالإيمان برسوله -ﷺ-فهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله -ﷺ-.

٧-إن للحوار أهمية كبيرة في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل وتوضيح الحق للآخرين،ولذلك كان مبدأ الحوار مع الأنس والجن منذ مبدأ الخليقة.

٨-إن دعوة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم لم تقف عند حد الدعوة فقط بل جادلوا أقوامهم بالتي هي أحسن حتى يزيلوا ما في نفوسهم من الشبهات التي قد تحول بينهم وبين الدخول في الحق.

٩-إن جهاد الكفار لا يتوقف على قتالهم بالسيف فقط بل يتعدى ذلك إلى جدالهم بالتي هي أحسن.

الفصل الثاني

الآيات القرآنية الواردة في بيان العلاقة بين الكفار والمسلمي

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في حكم معاداة وموالاة الكفار.

المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة في كيفية التعامل مع الكفار.

المبحث الثالث: الآيات القرآنية الواردة في قتال الكفار.

المبحث الأول

الآيات القرآنية الواردة في حكم معاداة وموالاة الكفار

تمهيـــد:

إن الله عز وجل خلق الناس وأوضح لهم طريق الخير والشر؛ فمنهم من آمن بالله واهتدى إلى سواء السبيل، ومنهم من ضل عن هذا الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل: ٣٦]. ولقد أمرنا الله عز وجل بأن نحب أهل التوحيد ونواليهم، ونبغض أهل الكفر ونعاديهم. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[المجادلة: ٢٢]. و سوف أتناول في هذا المبحث مطلبين هما:

المطلب الأول: تعريف عقيدة الموالاة والمعاداة وأهميتها.

المطلب الثاني: نهي القرآن عن موالاة الكفار والأمر بمعاداتهم.

المطلب الأول

تعريف عقيدة الموالاة والمعاداة وأهميتها

أولا: تعريف الموالاة والمعادة:

المولاة: بمعنى موالاة المؤمنين بالمحبة والنصر والتأييد.

المعادة: بمعنى معاداة الكافرين بالبغض والمنابذة والمحاربة.

"فالولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والمخالفة"(١). "وأصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة: البغض. وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة، كالنصرة، والأنس، والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال. والوليّ ضدّ العدو"(٢).

"والولي خلاف العدو، وهو مشتق من الولاء، وهو الدنو والتقرب؛ فولي الله هو من والى الله بموافقته محبوباته والتقرب إليه بمرضاته، وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق ٢-٣]" (٣).

والخلاصة: إن الولاية ضد العداوة، والولي عكس العدو؛ فالمؤمنون هم أولياء الله، والكافرون هم أعداء الله وأولياء الشياطين. فالمولاة لا تكون إلا لأولياء الله، ويكون ذلك بمحبتهم ونصرهم وتأييدهم، بينما العداوة لا تكون إلا لأعداء الله، ولا تكون إلا ببغضهم ومنابذتهم ومحاربتهم.

---

(١) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٥١٠-٥١١.

(٢) جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي القحطاني النجدي، الدرر السنية في الأجوبة النجدية (ط/٦، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م) ج: ٢، ص: ٣٢٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٠٦.

ثانيا: أهمية عقيدة الموالاة والمعاداة:

إن هذه العقيدة شرط من شروط الإيمان بالله عز وجل، يقول الله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١]. "فذكر (جملة شرطية) تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط. فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾. فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه"[١]. كما أن هذه العقيدة جزء من تحقيق معنى الشهادتين؛ "فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضى أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالى إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر الله به، وينهى عما نهى الله عنه، وأنك لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تسأل إلا الله، وهذا ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث الله به جميع المرسلين"[٢]. ثم إن عدم تحقيق هذه العقيدة يدخل في الكفر كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[المائدة: ٥١]. كما أنها الصلة التي على أساسها تقوم العلاقات بين المسلمين ببعضهم ببعض وبين غيرهم من المجتمعات. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٠]. فالموالاة والمعاداة من أوثق عرى الدين.

---

(١) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ١٧.

(٢) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٣٣٧.

المطلب الثاني

نهي القرآن عن موالاة الكفار والأمر بمعاداتهم

لقد أنعم الله عز وجل على جميع الأمم السابقة بنعم الدين والدنيا، وعلى الرغم من هذا كله فقد اختلفوا بعد أن جاءهم العلم، ثم إن الله عز وجل جعل نبيه محمداً -ﷺ- على شريعة من الأمر؛ شرعها له سبحانه، وأمره بأن يتبعها، وأمره بمخالفة أهواء الذين لا يعلمون. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٦-١٩]. والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تنهى عن موالاة هؤلاء الكفار والأمر بمعاداتهم، ولكن قبل الشروع في ذلك لا بد من معرفة أصناف الناس من حيث الموالاة والمعاداة.

أولاً: أصناف الناس من حيث الموالاة والمعاداة:

أولاً: "من يُحَبُّ محبة خالصة لا معاداة معها، وهم المؤمنون الخلص من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وفي مقدمتهم رسول الله -ﷺ- وآله وصحابته رضوان الله عليهم جميعا"[1].

يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا

(١) د/ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، (دار ابن الجوزي- الدمام- ط/٨، ١٤٢٣هـ) ص: ٣١٧.

بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾) [الحشر: ١٠]. فأثنى الله عز وجل على الذين يحبون الذين سبقوهم بالإيمان ويستغفرون لهم.

ثانياً: "من يُبْغَض ويُعادي بغضاً ومعاداة خالصين لا محبة ولا موالاة معهما، وهم الكفار الخلص من الكفار والمشركين والمنافقين والمرتدين والملحدين على اختلاف أجناسهم"[١]. قال تعالى: (لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾) [المجادلة: ٢٢]. وهذا الصنف هم مدار حديثنا في هذا المطلب.

ثالثاً: "من يُحَبُّ من وجه ويُبْغَضُ من وجه؛ فيجتمع فيه المحبة والعداوة، وهم عصاة المؤمنين، يحبون لما فيهم من الإيمان، ويبغضون لما فيهم من المعصية التي هي دون الشرك"[٢].

ثانياً: الآيات الواردة في النهي عن موالاة الكفار والأمر بمعاداتهم:

إن الله عز وجل قد أوجب علينا بغض الكفار والبراءة منهم وعدم موالاتهم، وذلك لكونهم جحدوا بالله ولم يصرفوا العبادة له، وجحدوا برسوله -ﷺ-، ولقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تنهى عن موالاة الكافرين وتحذر منها وتأمرنا بالإعراض عنهم، ومن ذلك قوله تعالى: (لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، مرجع سابق، ص: ٣١٨.

(٢) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، مرجع سابق، ص: ٣١٨.

تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾) [آل عمران: ٢٨]. "إن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان؛ دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية. قال الله تعالى: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ) [النحل: ١٠٦]. ثم هذا رخصة؛ فلو صبر حتى قُتِل فله أجر عظيم"[١]. فدلت هذه الآية "على أن المسلم لا ينبغي له أن يواد كافراً وإن كان أباه أو ابنه أو أخاه، ولا يقاربه ولا يجريه في الخلطة والصحبة مجرى مسلم"[٢]. وقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾) [المائدة:٥١]. قال الطبري: "فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين؛ فهو من أهل دينهم وملتهم؛ فإنه لا يتولى متولٍ أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض. وإذا رضيه ورضي دينه؛ فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمة حكمه؛ ولذلك حكم من حكم من أهل العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم، بأحكام نصارى بني إسرائيل؛ لموالاتهم إياهم، ورضاهم بملتهم ونصرتهم لهم عليها، وإن كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقاً"[٣]. وهناك فرق بين الموالاة والتولي من حيث المفهوم الشرعي؛ "فالتولي: كفرٌ يخرج من الملة، وهو كالذّبّ عنهم، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي. والموالاة: كبيرة من

---

(١) البغوي: تفسير البغوي، تحقيق/ خالد عبد الرحمن العك (دار المعرفة- بيروت-) ج: ١، ص: ٢٩٢.

(٢) البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (دار الكتب العلمية –بيروت- ط/١، ١٤١٠هـ)، ج: ٧، ص: ٣٧.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٢٧٧.

كبائر الذنوب، كَبَلِّ الدواة، أو بري القلم، أو التبشّش لهم، أو رفع السّوط لهم"[١]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢]. "أخبر الله في هذه الآية أن المؤمن لا يوالي الكافر وإن كان أباه، أو أخاه، أو قريبه؛ وذلك أن المؤمنين عادوا آباءهم الكفار وعشائرهم وأقاربهم، فمدحهم الله على ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبته"[٢]. " فأخبر أن من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم؛ فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان"[٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١]. قال ابن كثير: "يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عدواتهم ومصارمتهم، ونهى أن يُتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء"[٤]. فهذه الآية صريحة في النهي عن اتخاذ الكفار أولياء. وقد نهى الله تعالى عن موالاة الكافرين عامة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة:١٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ

---

(١) الدرر السنية في الأسئلة النجدية، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٢٢.

(٢) تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٠٧٨.

(٣) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٥٤٢.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ١٠٩.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة:٥٧]. قال ابن كثير: "وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون: وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد"[١]. وفي هذه الآية "دلالة ظاهرة على أن جميع الكفار كلهم أعداء للمؤمنين بالله سبحانه وبرسوله محمد -ﷺ-، ولكن اليهود والمشركين عباد الأوثان أشدهم عداوة للمؤمنين، وفي ذلك إغراء من الله سبحانه للمؤمنين على معاداة الكفار والمشركين عموماً، وعلى تخصيص اليهود والمشركين بمزيد من العداوة في مقابل شدة عداوتهم لنا، وذلك يوجب مزيداً من الحذر من كيدهم وعداوتهم"[٢]. كما أثبت الله تعالى وصف العداوة للكفار ابتداءً، كما أثبت أن هذه العداوة متوجهة إلى الله سبحانه وتعالى، ورتب على ذلك توجهها إلى المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:٤]. قال ابن كثير: "يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم مادمتم على كفركم؛ فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾؛ أي: إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد"[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٢، ص: ٧٣. وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٥٣. وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٣٦.

(٢) فتاوى مهمة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢١-١٢٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٣٤٩. وانظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٨ص: ٦٢.

والخلاصة من كل ما تقدم أن الآيات قد دلت دلالة صريحة على وجوب بغض الكفار وعدم موالاتهم، فالمؤمن الحق لا يتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين حتى وإن كان هؤلاء الكفار آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم أو عشيرتهم؛ فموالاة الكفار ومحبتهم تتنافى مع الإيمان بالله ورسوله. بينما بغضهم ومعاداتهم "من كمال الإيمان وتمام العبودية فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها وكمال الذل ونهايته فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره فغير الله يحب في الله لا مع الله؛ فإن المحب يحب ما يحب محبوبة ويبغض ما يبغض، ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضائه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهي عما ينهى عنه؛ فهو موافق لمحبوبه في كل حال، والله تعالى يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب التوابين ويحب المتطهرين، ونحن نحب من أحبه الله، والله لا يحب الخائنين ولا يحب المفسدين ولا يحب المستكبرين، ونحن لا نحبهم أيضاً ونبغضهم موافقة له سبحانه وتعالى"[1]. ولقد حذر الله سبحانه من اتباعهم فقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]. قال الإمام الشوكاني: "وفي هذه الآية من الوعيد الشديد، الذي ترجف له القلوب، وتتصدع منه الأفئدة، ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما؛ فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً، وأبان من أخلاقه ليناً، لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هُدى الله هو ما في كتابه وسنة رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع، التي هي ضلالة محضة، وجهالة بينة، ورأي منهار، وتقليد على شفا جرف هار؛ فهو إذ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٣٢.

ذاك ما له من الله من ولي ولا نصير. ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا شبهة"[١]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران: ١٤٩]. قال ابن كثير: "يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين؛ فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾. ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه، فقال تعالى:﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾"[٢] وقال تعالى:﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ٢٨﴾ [الكهف: ٢٨]. يقول ابن كثير: "أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه"[٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة: ٩]. قال ابن كثير: "أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة؛ فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾"[٤] [المائدة: ٥١].

---

(١) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤١٢. وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٥١. وانظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٢٢-١٢٣.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٨٢. وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٧٥.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٥١. وانظر: الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٨، ص: ٦٧.

ثالثاً: صور موالاة الكفار في القرآن الكريم:

وقد بين القرآن الكريم بعضاً من صور موالاة الكفار، وهي كما يأتي:

١- الرضا بكفر الكافرين، وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم. قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة:٤]. قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: "اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض... -وذكر منها-:

الثالث: من لم يكفّر المشركين أو يشكّ في كفرهم أو صحّح مذهبهم كفر"[١].

٢- التحاكم إليهم دون الكتاب، والإيمان ببعض ما هم عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن جنس موالاة الكفار التي ذمّ الله بها أهلَ الكتاب والمنافقين: الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء: ٥١]... فمن كان من هذه الأمة موالياً للكفار من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة ونحوها، مثل إتيانه أهل الباطل، واتباعهم في شيء من مقالهم وفعالهم الباطل؛ كان له من الذمّ والعقاب والنفاق بحسَب ذلك، وذلك مثل متابعتِهم في آرائهم وأعمالهم، كنحو أقوال الصابئة وأفعالهم من الفلاسفة ونحوهم المخالفة للكتاب والسنة، ونحو أقوال المجوس والمشركين وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة"[٢].

---

(١) شيخ الإسلام ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد، (دار القاسم للنشر، ط/١، ١٤٢٦هـ)، ص:٣٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٢٨، ص: ١٩٩-٢٠١.

٣- المحبة الخالصة لهم. قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة:٢٢].

قال شيخ الإسلام: "أخبر الله أنك لا تجد مؤمناً يوادّ المحادّين لله ورسوله؛ فإنّ نفس الإيمان ينافي موادّته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضدّه وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب"[1]. وسئل الشيخ ابن عثيمين[2] عن حكم مودّة الكفار وتفضيلهم على المسلمين، فأجاب بقوله: "لا شكّ أن الذي يوادّ الكفار أكثرَ من المسلمين قد فعل محرّماً عظيماً؛ فإنّه يجب أن يحبّ المسلمين وأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، أمّا أن يوادّ أعداء الله أكثر من المسلمين؛ فهذا خطر عظيم وحرام عليه، بل لا يجوز أن يودَّهم ولو أقلّ من المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، وكذلك أيضاً من أثنى عليهم ومدحهم وفضّلهم على المسلمين في العمل وغيره، فإنه قد فعل إثماً وأساء الظنّ بإخوانه

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، كتاب الإيمان (المكتب الإسلامي- بيروت- دمشق-ط/٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) ص: ١٣.

(٢) الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين، من الوهبة من بني تميم، ولد سنة: ١٣٤٧هـ في عنيزة -إحدى مدن القصيم- في المملكة العربية السعودية. تعلم الكتابة، وشيئاً من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبد العزيز بن صالح الدامغ، حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولَمّا يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعد. ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة منذ تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته. ويعد -رحمه الله تعالى- من الراسخين في العلم، الذين وهبهم الله -بمنه وكرمه- تأصيلاً ومَلَكَةً عظيمة في معرفة الدليل واتباعه واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنة... توفي -رحمه الله تعالى- في مدينة جدة عام: ١٤٢١هـ، وصُلي عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيعته تلك الآلاف من المصلين والحشود العظيمة، ودفن في مكة المكرمة. انظر: اللجنة العلمية في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، "موقع الشيخ: ابن عثيمين".

المسلمين، وأحسن الظنّ بمن ليسوا أهلاً لإحسان الظنّ، والواجب على المؤمن أن يقدّم المسلمين على غيرهم في جميع الشؤون، في الأعمال وفي غيرها، وإذا حصل من المسلمين تقصيرٌ فالواجب عليه أن ينصحهم وأن يُحذّرَهم، وأن يبيّن لهم مغبّة الظلم لعلّ الله أن يهديَهم على يده"[١].

٤- الركون إليهم. قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود:١١٣]. ذكر القرطبي[٢] أن هذه الآية "دالَّة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة"[٣].

٥- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[آل عمران: ١١٨].

---

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين جمع/ فهد بن سليمان، ج: ٣، ص: ١٤-١٥.

(٢) محمد بن أحمد بن أبي فَرْح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي. مصنف "التفسير" المشهور، الذي سَارت به الركبان، و" التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة". قال الذهبي: إمام متفنِّن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة إطلاعه ووفور فضله. مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى سنة إحدى وسبعين وستمئة. "انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ج: ١ ص: ٧٩".

(٣) القرطبي، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ١٠٨.

قال الشيخ صالح الفوزان[١]: "ومن مظاهر موالاة الكفار: الاستعانة بهم والثقة بهم وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين واتخاذهم بطانة ومستشارين... فهذه الآيات الكريمة تشرح دخائل الكفّار وما يكنّونه نحو المسلمين من بغض، وما يدبّرونه ضدّهم من مكر وخيانة، وما يحبّون من مضرّة المسلمين وإيصال الأذى إليهم بكلّ وسيلة، وأنهم يستغلّون ثقة المسلمين بهم فيخطّطون للإضرار بهم والنيل منهم... روى مسلم "أن النبي -ﷺ- خرج إلى بدر فتبعه رجل من المشركين فلحقه عند الحرة، فقال: إني أردتُ أن أتبعك وأصيب معك، قال: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: ارجِع فلن أستعين بمشرك"[٢]. ومن هذه النصوص يتبيّن لنا تحريم توليَة الكفار أعمالَ المسلمين التي يتمكّنون بواسطتها من الاطلاع على أحوال المسلمين وأسرارهم، ويكيدون لهم بإلحاق الضرر بهم"[٣].

---

(١) هو فضيلة الشيخ الدكتور: صالح بن فوزان بن عبد الله، من آل فوزان من أهل الشماسية، الوداعين من قبيلة الدواسر. ولد عام ١٣٥٤هـ، وتوفي والده وهو صغير، فتربى في أسرته، وتعلم القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد إمام مسجد البلد، وكان قارئاً متقناً وهو فضيلة الشيخ: حمود بن سليمان التلال، الذي تولى القضاء أخيراً في بلدة ضرية في منطقة القصيم. ثم التحق بمدرسة الحكومة حين افتتاحها في الشماسية عام ١٣٦٩ هـ، وأكمل دراسته الابتدائية في المدرسة الفيصلية ببريدة عام ١٣٧١هـ، وتعين مدرساً في الابتدائي، ثم التحق بالمعهد العلمي ببريدة عند افتتاحه عام ١٣٧٣هـ، وتخرج فيه عام ١٣٧٧هـ، والتحق بكلية الشريعة بالرياض، وتخرج فيها عام ١٣٨١هـ، ثم نال درجة الماجستير في الفقه، ثم درجة الدكتوراه من هذه الكلية في تخصص الفقه أيضاً. عين مدرساً في المعهد العلمي في الرياض، ثم نُقل للتدريس في كلية الشريعة، ثم نُقل للتدريس في الدراسات العليا بكلية أصول الدين، ثم في المعهد العالي للقضاء، ثم عين مديراً للمعهد، ثم عاد للتدريس فيه بعد انتهاء مدة الإدارة، ثم نُقل عضواً في اللجنة الدائمة للإفتاء والبحوث العلمية، ولا يزال على رأس العمل. لفضيلة الشيخ مؤلفات كثيرة، من أبرزها: "التحقيقات المرضية في المباحث الفرضية" في المواريث، وهو رسالته في الماجستير، "أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية" وهو رسالته في الدكتوراه، "الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد"، "شرح العقيدة الواسطية"، (نقلاً من الموقع الرسمي للشيخ الدكتور: صالح بن فوزان الفوزان).

(٢) مسلم، ب: كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، طرف من حديث عائشة رضي الله عنها، ج: ٣، ص: ١٤٤٩. رقم الحديث (١٨١٧). من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، مرجع سابق، ص: ٣١١.

٦- الإقامة في بلادهم وعدم الانتقال منها إلى بلاد المسلمين. قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾) [النساء: ٩٧-٩٩]. "فلم يَعْذُر الله في الإقامة في بلاد الكفار إلا المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة، وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم...

والسفر إلى بلاد الكفار محرم إلا عند الضرورة، كالعلاج والتجارة والتعليم للتخصّصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالسفر إليهم، فيجوز بقدر الحاجة، وإذا انتهت الحاجة وجب الرجوع إلى بلاد المسلمين.

ويشترط كذلك لجواز هذا السفر أن يكون مُظهِراً لدينه، معتزّاً بإسلامه، مُبتعِداً عن مواطن الشرّ، حذِراً من دسائس الأعداء ومكائدهم، وكذلك يجوز السفر أو يجب إلى بلادهم إذا كان لأجل الدّعوة إلى الله ونشر الإسلام"[(١)].

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، مرجع سابق، ص: ٣٠٩.

المبحث الثاني:

الآيات القرآنية الواردة في كيفية التعامل مع الكفار

أصبح من بدهيات عصرنا أننا نعيش اليوم في عالم تشابكت فيه مصالح الأمم؛ فلم يعد من الممكن لواحدة منها مهما بلغت من القوة ما بلغت أن تنعزل مستقلة عن غيرها مستغنية بنفسها. فنحن إذن محتاجون إلى معالم نهتدي بها في تعاملنا مع غيرنا معاملة نحقق بها مصالحنا ولا نساوم بها على ديننا. والقرآن الكريم قد دلنا وأرشدنا إلى ذلك. وهذا ما سوف يتضح لنا من خلال هذا المبحث، الذي سوف أتناول فيه –بإذن الله– أربعة مطالب:

المطلب الأول: أصناف الكفار الواردة في القرآن.

المطلب الثاني: كيفية التعامل مع كل صنف من أصناف الكفار.

المطلب الثالث: كيفية التعامل مع الكفار عموماً.

المطلب الرابع: الأحكام الفقهية المتعلقة بغير المسلمين.

المطلب الأول

أصناف الكفار الواردة في القرآن

قال ابن القيّم: "الكفار: إمّا أهل حربٍ، وإمّا أهل عهدٍ. وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمّة، وأهل هُدنة، وأهل أمانٍ"[١]؛ وذلك لأنّ لفظ الذمّة والعهد يتناول هؤلاء كلهم في الأصل. ثم قال: "ولكن صار في اصطلاح كثيرٍ من الفقهاء (أهل الذمّة) عبارة عمّن يؤدي الجزيّة"[٢]. فأما أهل الحرب: فهم من لم يكن بينهم وبين المسلمين عهد ولا ذمة، وكان بينهم وبين المسلمين حرب. وأما أهل الذمة: فهم الذين يقيمون في بلاد المسلمين، وتؤخذ منهم الجزية. قال ابن القيّم: "أجمع الفقهاء على أنّ الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس[٣][٤]، "وأما أهل الأمان: فهو الحربي المقيم إقامة مؤقتة في ديار الإسلام"[٥]. "والفرق بين أمان الذمِّي وبين المستأمن هو أنّ أمان الذمِّي مؤبد، وأمان المعاهد والمستأمن مؤقت بمدة إقامته التي يصير بتجاوزها من أهل الذمّة، وتضرب عليه الجزية"[٦]. ولكن قد ينقلب المعاهد والذمي والمستأمن أهل حرب؛ وذلك إذا لحقوا بأهل الحرب، وكان ذلك الأمر باختيارهم فيقيموا فيها،

---

(١) ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري- شاكر توفيق العاروري (رمادي للنشر- دار ابن حزم- الدمام- بيروت، ط/١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م) ج: ٢، ص: ٤٧٥.

(٢) أحكام أهل الذمة، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٧٥.

(٣) المجوس: وهم الذين أثبتوا أصلين،إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين،والظلمة محدثة...ويذكر الشهرستاني أن مسائلهم تدور على قاعدتين: إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ،والثانية : بيان سبب خلاص النور من الظلمة وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا. "انظر:الفصل في الملل والنحل،ج:١ص:٢٢٨-٢٣٢".

(٤) أحكام أهل الذمة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١.

(٥) الشافعي: محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، الأم، (دار المعرفة – بيروت – ط/٢، ١٣٩٣هـ) ج:٤، ص:٢٨٣.

(٦) انظر: الكاساني: علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، (دار الكتاب العربي- بيروت- ط/٢، ١٩٨٢م) ج:٧، ص:١٠٦.

أو ينقضوا عهدهم وذمتهم؛ فيأخذوا عند ذلك حكم أهل الحرب. قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ ﴾[التوبة:١٢]. قال القرطبيُّ: "إذا حارب الذمي نقضَ عهدَه، وكان ماله وولده فيئاً معه"[١]. قال النوويُّ[٢]: "في هذا: أنّ المعاهد والذميَّ إذا نقض العهد صار حربياً، وجرت عليه أحكام أهل الحرب، وللإمام سبي من أراد منهم، وله المَنُّ على من أراد. وفيه: أنّه إذا مَنَّ عليه ثم ظهرت منه محاربة انتقض عهده، وإنّما ينفع المَنُّ فيما مضى، لا فيما يستقبل، وكانت قريظة في أمان، ثم حاربوا النبيَّ -ﷺ-، ونقضوا العهد، وظاهروا قريشاً على قتال النبيِّ -ﷺ-"[٣].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٨ ص: ٨٣.

(٢) النووي الإمام الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي صاحب التصانيف النافعة ولد سنة:٦٣١هـ، ومن تصانيفه شرح صحيح مسلم ،ورياض الصالحين، والأذكار، والأربعين، والإرشاد في علوم الحديث والتقريب مختصرة، وكتاب المبهمات، وتحرير الألفاظ للتنبيه، والعمدة في تصحيح التنبيه، والإيضاح في المناسك، وقال الشيخ شمس الدين بن الفخر الحنبلي كان إماما بارعا حافظا متقنا أتقن علوما جمة وصنف التصانيف الجمة وكان شديد الورع والزهد توفي سنة:٦٧٦."انظر:تذكرة الحفاظ، ج: ٤ ص: ١٤٧٠-١٤٧٣".

(٣) النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (دار إحياء التراث العربي – بيروت- ط/٢، ١٣٩٢هـ)، ج: ١٢، ص: ٩١.

المطلب الثاني

كيفية التعامل مع كل صنف من أصناف الكفار

أولاً: أهل الحرب:

أ- الشدة في قتالهم وعدم اللين معهم:

قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٧]. قال ابن كثير: "أي نَكِّلْ بهم.. ومعناه: غَلِّظْ عقوبتهم، وأثخنهم قتلاً؛ ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة"[١]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]. قال ابن كثير: "أي: وليجد الكفار منكم غلظة في قتالكم لهم؛ فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر"[٢]. وقال القرطبي: "أي شدة وقوة وحمية"[٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ [التحريم: ٩].

قال القرطبي: "أمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله. والمنافقين بالغلظة وإقامة الحجة، وأن يعرفهم أحوالهم في الآخرة، وأنهم لا نور لهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين"[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٢١، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٢٤.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٠٣.

(٣) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢٩٨.

(٤) تفسير القرطبي ج: ١٨، ص: ٢٠١، وانظر: الطبري، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ١٨٤. وانظر: السيوطي: عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، (دار الفكر- بيروت- ١٩٩٣م) ج: ٤، ص: ٢٤٠.

ب- عدم الغدر والخيانة بِهم إذا وقع الصلح والهدنة معهم:

قال تعالى: (وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ) [الأنفال: ٧٢]. قال ابن كثير: "يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم؛ فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، بينكم وبينهم ميثاق -أي مهادنة إلى مدة-؛ فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم"(١). وعن عبد الله بن مسعود(٢) رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به، يقال: هذه غدرة فلان"(٣).

أما إذا خشي المسلمون من الكفار الغدر والخيانة فإنهم يردوا إليهم عهدهم كما قال تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾) [الأنفال: ٥٨]. قال الطبري: "يقول: فناجزهم بالحرب وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم؛ حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب؛ فيأخذوا للحرب آلتها وتبرأ من الغدر"(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٣٠، وانظر: محمد بن عبد الوهاب، مختصر تفسير سورة الأنفال، تحقيق: د: ناصر بن سعد الرشيد (مطابع الرياض- الرياض- ط/١) ج: ١، ص: ٢٥.

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، الكوفي، صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأحد السابقين الأولين، وصاحب النعلين، شهد بدراً، وكان يشبه النبي -صلى الله عليه وسلم- في هديه ودله وسمته، وتلقن من النبي - صلى الله عليه وسلم- سبعين سورة، توفي بالمدينة سنة ٣٢، وقيل: ٣٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ج:١، ص:٤٦١، وانظر: الأعلام ج: ٤، ص: ١٣٧.

(٣) مسلم، ك: الجهاد السير ب: تحريم الغدر، ج: ٣ص: ١٣٦١. رقم الحديث(١٧٣٦).

(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٠ص: ٢٦-٢٧.

وعـن سليم بن عامر[١]، قـال: كان بين معاوية[٢]وبين أهل الروم عهد، وكان يسير في بلادهم؛ حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجل على دابة أو على فرس، وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر. وإذا هو عمرو بن عبسة[٣]، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعتُ رسول الله -ﷺ-: "من كان

---

(١) سليم الأنصاري أو المخزومي مولاهم أبو عامر له إدراك قال بن خيثمة وأبو زرعة الدمشقي وأبـو حـاتم الـرازي صلى خلف أبي بكر وقال أبو عمر سليم بن عامر وأبو عامر وليس بالخبائري وروى الطبراني في مسند الشاميين من طريق ثابت بن عجلان عن سليم أبي عامر وكان ممن سباه خالد بن الوليد حين حاصر حلب قال فلما قدمنا على أبي بكر جعلني في المكتب وعن سليم قال رأيت أبا بكر وعمر وعثمان أكلوا مما مست النار ثم صلوا و لم يتوضئوا وروى دحيم من طريق ثابت بن عجلان عنه قال صليت خلف أبي بكر سبعة أشهر وأخرجه البخاري في تاريخه الصغير وزاد وكان أبو بكر أخدمه عمار بن ياسر وكان ممن أفاء الله على خالد بن الوليد ثم شهد فتح دمشق والقادسية وقال أبو بكر البغدادي في تاريخ الحمصيين سباه خالد بن الوليد حين حاصر حلـب."الإصـابة في تمييز الصحابه،ج:٣ص:٢٦٣".

(٢) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي أمير المؤمنين ولد قبل البعثة بخمس سنين وقيل بسبع وقيل بثلاث عشرة والأول أشهر، كتب له وولاه عمر الشام بعد أخيـه يزيـد بـن أبي سفيان وأقره عثمان ثم استمر فلم يبايع عليا ثم حاربه واستقل بالشـام ثـم أضـاف إليهـا مصـر ثـم تسـمى بالخلافة بعد الحكمين ثم =استقل لما صالح الحسن واجتمع عليه الناس فسمي ذلك العام عام الجماعة، وروى عنه من الصحابة بن عباس وجرير البجلي ومعاوية بن حديج والسائب بن يزيد وعبد الله بن الزبير والنعمان بن بشير وغيرهم ومن كبار التابعين مروان بن الحكم وعبد الله بن الحارث بن نوفـل وقـيس بـن أبـي حـازم وسـعيد بـن المسيب وأبو إدريس الخولاني وممن بعدهم عيسى بن طلحة ومحمد بن جبير بن مطعم وحميد بن عبد الرحمن بـن عوف وأبو مجلز وجبير بن نفير وحمران مولى عثمان وعبد الله بن محيريز وعلقمـة بـن وقـاص وعمـير بـن هـاني وهمام بن منبه وأبو العريان النخعي ومطرف بن عبد الله بن الشخير وآخرون ،توفي سنة:٦٠هـ. "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة،ج:٦ص:١٥١-١٥٤".

(٣) عمرو بن عبسة بن خالد بن عامر بن غاضرة بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم وقيـل بـن عبسـة بـن خالد بن حذيفة بن عمرو بن خالد بن مازن بن مالك بن ثعلبة بن بهثـة كـذا سـاق نسـبه بـن سـعد وتبعـه بـن عساكر والأول أصح، قال الواقدي أسلم قديما بمكة ثم رجع إلى بلاده فأقام بها إلى أن هاجر بعـد خيـبر وقبـل الفتح فشهدها، وقد روى عنه بن مسعود مع تقدمه وأبو أمامة الباهلي وسهل بن سعد ومن التابعين شرحبيل بن السمط وسعدان بن أبي طلحة وسليم بن عامر وعبد الرحمن بن عامر وجبير بن نفير وأبو سلام وآخرون،ويقال أنه مات بحمص . "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة:ج:٤ص:٦٥٨-٦٦٠".

بينه وبين قوم عهد؛ فلا يحلنَّ عهداً، ولا يشدنَّه؛ حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء". قال: فرجع معاوية بالناس"[١]. قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني.

وقال ابن القيم: "ولما أسرت قريش حذيفة بن اليمان[٢]وأباه أطلقوهما، وعاهدوهم أن لا يقاتلاهم مع رسول الله -ﷺ-، وكانوا خارجين إلى بدر، فقال رسول الله -ﷺ-: "انصرفا؛ نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليه[٣][٤].

ج- حل أموالهم ودمائهم:

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢٧]. قال ابن كثير: "أي جعلها لكم من قتلكم لهم"[٥]. وقال الطبري: "أي وملككم بعد مهلكهم أرضهم، يعني مزارعهم ومغارسهم وديارهم، يقول: ومساكنهم وأموالهم، يعني سائر الأموال غير الأرض والدور"[٦].

---

(١) الترمذي، ب: ما جاء في الغدر، ج: ٤، ص: ١٤٣. رقم الحديث (١٥٨٠).

(٢) حذيفة بن اليمان الأزدي ذكر بن سعد أن النبي -ﷺ- بعثه مصدقا على الأزد في قصة طويلة وذكر الواقدي في كتاب الردة وفد الأزد من دبا مقرين بالإسلام أي بموحدة خفيفة فبعث النبي -ﷺ- عليهم حذيفة بن اليمان الأزدي مصدقا فلما توفي النبي -ﷺ- ارتدوا فأرسل أبو بكر عكرمة بن أبي جهل وكان رأسهم لقيط بن مالك فانهزموا وقوي حذيفة وأصحابه فأسر عكرمة منهم جماعة فأرسلهم مع حذيفة إلى أبي بكر بعد أن قتل طائفة وأقام عكرمة ثم عزله أبو بكر. "الإصابة في تمييز الصحابة،ج:٢ص:٤٥".

(٣) زاد المعاد، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٨٨.

(٤) مسلم، ب: الوفاء بالعهد، طرف من حديث حذيفة بن اليمان، ج: ٣، ص: ١٤١٤، رقم الحديث (١٧٨٧).

(٥) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٧٩.

(٦) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢١، ص: ١٥٥.

ثانياً: أهل الذمة:

أ- إلزامهم بدفع الجزية:

الجزية "هي: الوظيفة المأخوذة من الكافر، لإقامته بدار الإسلام في كل عام"[١].

قال تعالى: (قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾) [التوبة:٢٩]. (حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ) "وهي الخراج المضروب على رقابهم"[٢]. قال الطبري: "ومعنى الكلام: حتى يعطوا الخراج عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دفعاً عنها"[٣].

ب- حرمة دمائهم وأموالهم:

قال تعالى: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾)[البقرة: ١٧٨]. قال القرطبي في تفسير هذه الآية: "فإن الذمي محقون الدم على التأبيد، والمسلم كذلك، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق

---

(١) ابن قدامة، المغنى، لابن قدامة (دار الشروق للنشر- بيروت- ١٤١٦هـ). ج: ١٠.

(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٨٢. وانظر: تفسير الجلالين، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٤٤. محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الدية، (دار الفكر المعاصر، دار الفكر- بيروت- دمشق- ط/١، ١٤١٠هـ)ج: ١، ص: ٤٧٣.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ١٠٩، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت-)ج: ٥، ص: ٢٩، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي (دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ط/١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م) ج: ٥، ص: ٢٩.

ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم؛ فدل على مساواته لدمه؛ إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه"[١].

ج- النكاح من أهل الكتاب منهم وأكل ذبائحهم:

قال تعالى: (ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ) [المائدة: ٥]. فدلت الآية على أنه يحل النكاح بالكتابيات، ويدخل في ذلك الذميات كما تدخل الحربيات. قال البيضاوي[٢]: "(وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ): وإن كن حربيات"[٣]. "وجمهور السلف والخلف يجوزون نكاح الكتابيات، ويبيحون ذبائحهم"[٤] بدليل هذه الآية.

"وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز[٥]عن حكم نكاح نساء أهل الكتاب، فأجاب: "حكم ذلك الحل والإباحة عند جمهور أهل العلم؛ لقول الله سبحانه في الآية السابقة من سورة المائدة:

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٤٦. ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (دار الفكر للطباعة والنشر- لبنان-) ج: ١، ص: ٩١.

(٢) الإمام القاضي، أبو الفتح، عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن البيضاوي الفارسي، ثم البغدادي، الحنفي، أخو قاضي القضاة أبي القاسم الزينبي لامه.سمع أبا جعفر بن المسلمة، وأبا الغنائم بن المأمون، وأبا محمد الصريفيني، وطائفة. وعنه: السمعاني، وابن عساكر، وابن الجوزي، والكندي، وآخرون.قال السمعاني: شيخ صالح متواضع، متحر في قضائه الخير، متثبت، توفي سنة: ٥٣٧هـ. "سير أعلام النبلاء،ج:٢٠ص:١٨٢".

(٣) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٩٧.

(٤) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١١٥.

(٥) عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن باز ولد في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ بمدينة الرياض،كان بصيرا ثم أصابه مرض في عينيه عام ١٣٤٦هـ وضعف بصره ثم فقده عام ١٣٥٠هـ،حفظ القرآن=

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [المائدة: ٥]، والمحصنة: هي الحرة العفيفة في أصح أقوال علماء التفسير. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية ما نصه: "وقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات. وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، فقيل: أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر؛ فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة كما في الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور ههنا وهو الأشبه؛ لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة؛ فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: "حشفاً وسوء كيل"!

والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنى، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾. ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ممن فسر المحصنة بالعفيفة. وقيل: المراد بأهل الكتاب ههنا

=الكريم قبل سن البلوغ ثم جد في طلب العلم على العلماء في الرياض ولما برز في العلوم الشرعية واللغة عين في القضاء عام ١٣٥٠هـ ،لازم البحث والتدريس ليل نهار و لم تشغله المناصب عن ذلك مما جعله يزداد بصيرة ورسوخا في كثير من العلوم،توفي رحمه الله قبيل فجر الخميس ١٤٢٠/١/٢٧هـ.(موقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز).

الإسرائيليات وهو مذهب الشافعي، وقيل: المراد بذلك الذميات دون الحربيات؛ لقوله تعالى: (قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ) الآية [التوبة:٢٩]، وقد كان عبد الله بن عمر[١] لا يرى التزويج بالنصرانية ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: (إن ربها عيسى) وقد قال الله تعالى: (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ) الآية [البقرة:٢٢١]. "عن أبي مالك الغفاري[٢]قال: نزلت هذه الآية (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ) قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها (وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ)، فنكح الناس نساء أهل الكتاب، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى و لم يروا بذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة: (وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ)، فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة: (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ) إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كقوله تعالى: (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

---

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوى،أسلم مع أبيه وهاجر وعرض على النبي -ﷺ- ببدر فاستصغره ثم بأحد فكذلك ثم بالخندق فأجازه وهو يومئذ بن خمس عشرة سنه، وهو من المكثرين عن النبي -ﷺ- وروي أيضا عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي ذر ومعاذ وعائشة وغيرهم وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما وبنوه سالم وعبد الله وحمزه وبلال وزيد وعبد الله وابن أخيه حفص بن عامر ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب وأسلم مولى عمر وعلقمه بن وقاص وأبو عبد الرحمن النهدي ومسروق وجبير بن نفير وعبد الرحمن بن أبي ليلى في آخرين وممن بعدهم مواليهم عبد الله بن دينار ونافع وزيد وخالد بن أسلم ومن غيرهم مصعب بن سعد وموسى بن طلحة وعروه بن الزبير وبشر بن سعيد وعطاء وطارق ومجاهد وابن سيرين والحسن وصفوان بن محرز وآخرون،توفي سنة:٧٣هـ. "انظر:الإصابة في تمييز الصحابة،ج:٤ص:١٨١-١٨٧".

(٢) أبو مالك الغفاري تابعي معروف اسمه غزوان أرسل حديثا فذكره العسكري في الصحابة وأخرج من طريق حصير بن عبد الرحمن عن أبي مالك الغفاري قال صلى النبي -ﷺ- على حمزة فكان يجاء بسبعة معه فلم يزل كذلك حتى صلى على جماعتهم استدركه بن الأثير على من تقدمه و لم يتفطن لعلته وأما الذهبي فقال لعله تابعي أرسل."الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٧ ص: ٤٠٠".

مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾) [البينة:١]، وكقوله: (وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ) الآية"[آل عمران:٢٠] [(١)] انتهى المقصود من كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وقال ابن قدامه[(٢)] في كتابه"المغني" ما نصه: "ليس بين أهل العلم بحمد الله اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب... قال ابن المنذر: ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك... وبه قال سائر أهل العلم، وحرمته الإمامية[(٣)] تمسكاً بقوله تعالى: (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ)، (وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ) [الممتحنة:١٠]، ولنا قول الله تعالى: (ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ) [المائدة:٥]، إلى قوله: (وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ) [المائدة:٥]، وإجماع الصحابة، فأما قوله سبحانه: (وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّ) [البقرة: ٢٢١].فروي عن ابن عباس رضي

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢١-٢٢.

(٢) ابن قدامة: الشيخ الامام القدوة العلامة المجتهد شيخ الاسلام موفق الدين أبومحمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب " المغني ". مولده بجماعيل من عمل نابلس سنة إحدى وأربعين وخمس مئة في شعبان. قال ابن النجار: كان إمام الحنابلة بجامع دمشق، وكان ثقة حجة نبيلا، غزير الفضل، نزها، ورعا عابدا، على قانون السلف، عليه النور والوقار، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه.ومن تصانيفه: "المغني" و"الكافي" و"المقنع" و"العمدة" و" الروضة" و"الرقة" و"التوابين"توفي سنة:٦٢٠هـ "انظر: سير أعلام النبلاء، ج: ٢٢ ص: ١٦٥-١٧٣".

(٣) الإمامية: هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي -ﷺ- نصا ظاهرا وتعيينا صادقا من غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين.... ثم إن الإمامية تخطت عن هذه الدرجة إلى الوقيعة في كبار الصحابة طعنا وتكفيرا وأقله ظلما وعدوانا وقد شهدت نصوص القرآن على عدالتهم والرضا عن جملتهم.... ثم إن الإمامية لم يثبتوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين‌ﷺ على رأي واحد بل اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها.... وهم متفقون في الإمامة وسوقها إلى جعفر بن محمد الصادق ﷺ ومختلفون في المنصوص عليه بعده من أولاده..... وكانوا في الأول على مذهب أئمتهم في الأصول ثم لما اختلفت الروايات عن أئمتهم وتمادى الزمان اختارت كل فرقة منهم طريقة فصارت الإمامية: عضها معتزلة : إما وعيدية وإما تفضيلية ،وبعضها إخبارية : إما مشبهة وإما سلفية."انظر: الملل والنحل، ج: ١ ص: ١٦١".

الله عنهما أنها نُسخت بالآية التي في سورة المائدة، وكذلك ينبغي أن يكون ذلك في الآية الأخرى؛ لأنهما متقدمتان والآية التي في المائدة متأخرة عنهما، وقال آخرون: ليس هذا نسخاً فإن لفظ المشركين بإطلاقه لا يتناول أهل الكتاب بدليل قوله سبحانه: (لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ)، وقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ) [البينة:٦]، وقوله عز وجل: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ) [المائدة:٨٢]، وقوله تعالى: (مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ) [البقرة:١٠٥]، وسائر آي القرآن يفصل بينهما، فدل على أن لفظة المشركين بإطلاقها غير متناولة لأهل الكتاب، وهذا معنى قول سعيد بن جبير[(١)] وقتادة؛ ولأن ما احتجوا به عام في كل كافرة، وآيتنا خاصة في حل نساء أهل الكتاب والخاص يجب تقديمه، إذا ثبت هذا فالأولى أن لا يتزوج كتابية؛ لأن عمر ﷺ قال للذين تزوجوا من نساء أهل الكتاب: طلّقوهن، فطلّقوهنّ إلاّ حذيفة، فقال له عمر: طلّقها، قال: تشهد أنّها حرام؟! قال: هي خمرة طلّقها. قال: تشهد أنّها حرام؟! قال: هي خمرة، قال: قد علمت أنها خمرة ولكنها لي حلال، فلما كان بعد طلقها فقيل له: ألا طلقتها حين أمرك عمر؟! قال: كرهت أن يرى الناس أني ركبت أمراً لا ينبغي لي. ولأنه ربما مال إليها قلبه فتفتنه، وربما كان بينهما ولد فيميل إليها"[(٢)] انتهى كلام صاحب المغني رحمه الله.

---

(١) سعيد بن جبير الوالبي مولاهم الكوفي المقرئ الفقيه أحد الأعلام سمع بن عباس وعدي بن حاتم وابن عمر وعبد الله بن مغفل وطائفة وعنه جعفر بن أبي المغيرة وأبو بشر جعفر بن إياس وأيوب والأعمش وعطاء بن السائب وخلق قتله الحجاج قاتله الله في شعبان سنة خمس وتسعين،وقيل كان أسود اللون وكان بن عباس إذا حج أهل الكوفة وسألوه يقول أليس فيكم سعيد بن جبير،وعن أشعث بن إسحاق قال كان يقال لسعيد بن جبير جهبذ العلماء. "انظر: تذكرة الحفاظ ، ج: ١ ص: ٧٦-٧٧".

(٢) انظر: ابن قدامة: المغني، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٩٩-١٠٠.

والخلاصة مما ذكره الحافظ ابن كثير وصاحب "المغني" رحمة الله عليهما أنه لا تعارض بين قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ الآية، وبين قوله عز وجل في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٥]، لوجهين: أحدهما: أن أهل الكتاب غير داخلين في المشركين عند الإطلاق. لأن الله سبحانه فصل بينهم في آيات كثيرات مثل قوله عز وجل: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ الآية [البينة:١]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ الآية [البينة:٦]، وقوله عز وجل: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ الآية [البقرة:١٠٥]، إلى غير ذلك من الآيات المفرقة بين أهل الكتاب والمشركين، وعلى هذا الوجه لا تكون المحصنات من أهل الكتاب داخلات في المشركات المنهي عن نكاحهن في سورة البقرة، فلا يبقى بين الآيتين تعارض، وهذا القول فيه نظر، والأقرب أن أهل الكتاب داخلون في المشركين والمشركات عند الإطلاق رجالهم ونساؤهم؛ لأنهم كفار مشركون بلا شك، ولهذا يُمنَعون من دخول المسجد الحرام لقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ﴾ الآية [التوبة:٢٨]، ولو كان أهل الكتاب لا يدخلون في اسم المشركين عند الإطلاق لم تشملهم هذه الآية، ولما ذكر سبحانه عقيدة اليهود والنصارى في سورة (براءة) قال بعد ذلك: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ

سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾) [التوبة:٣١] فوصفهم جميعاً بالشرك؛ لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ولأنهم جميعاً اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وهذا كله من أقبح الشرك، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والوجه الثاني: أن آية المائدة مخصصة لآية البقرة، والخاص يقضي على العام ويقدم عليه - كما هو معروف في الأصول، وهو مجمع عليه في الجملة، وهذا هو الصواب-؛ وبذلك يتضح أن المحصنات من أهل الكتاب حل للمسلمين، وغير داخلات في المشركات المنهي عن نكاحهن عند جمهور أهل العلم، بل هو كالإجماع منهم لما تقدم في كلام صاحب "المغني"، ولكن ترك نكاحهن والاستغناء عنهن بالمحصنات من المؤمنات أولى وأفضل؛ لما جاء في ذلك عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وابنه عبد الله وجماعة من السلف الصالح ﷺ، ولأن نكاح نساء أهل الكتاب فيه خطر ولا سيما في هذا العصر الذي استحكمت فيه غربة الإسلام وقل فيه الرجال الصالحون الفقهاء في الدين وكثر فيه الميل إلى النساء والسمع والطاعة لهن في كل شيء إلا ما شاء الله؛ فيخشى على الزوج أن تجره زوجته الكتابية إلى دينها وأخلاقها كما يخشى على أولاده منها من ذلك والله المستعان.

فإن قيل: فما وجه الحكمة في إباحة المحصنات من أهل الكتاب للمسلمين وعدم إباحة المسلمات للرجال من أهل الكتاب؟!

فالجواب عن ذلك -والله أعلم- أن يقال: إن المسلمين لما آمنوا بالله وبرسله وما أنزل عليهم ومن جملتهم موسى بن عمران وعيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام، ومن جملة ما أنزل على الرسل التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، لما آمن المسلمون بهذا كله أباح الله لهم نساء أهل الكتاب المحصنات فضلاً منه عليهم وإكمالاً لإحسانه إليهم، ولما كفر أهل الكتاب بمحمد -ﷺ-

وما أنزل عليه من الكتاب العظيم وهو القرآن حرم الله عليهم نساء المسلمين حتى يؤمنوا بنبيه ورسوله محمد -ﷺ- خاتم الأنبياء والمرسلين، فإذا آمنوا به حل لهم نساؤنا وصار لهم ما لنا وعليهم ما علينا، والله سبحانه هو الحكم العدل، البصير بأحوال عباده، العليم بما يصلحهم، الحكيم في كل شيء، تعالى وتقدس وتنزه عن قول الضالين والكافرين وسائر المشركين.

وهناك حكمة أخرى وهي: أن المرأة ضعيفة سريعة الانقياد للزوج؛ فلو أبيحت المسلمة لرجال أهل الكتاب لأفضى بها ذلك غالباً إلى دين زوجها؛ فاقتضت حكمة الله سبحانه تحريم ذلك"[(١)] انتهى كلام الشيخ ابن باز رحمه الله.

ثالثاً: أهل العهد[(٢)] والمستأمنون[(٣)]:

فحكمهم حكم أهل الذمة، ولهم من الحقوق ما لأهل الذمة من حقوق. لقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦].

(١) نقلاً عن الموقع الرسمي لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز.

(٢) "أهل العهد هم الذين صالحوا المسلمين على أن يكونوا في دارهم، سواء كان الصلح على مالٍ أو غير مال، ولا تجري عليهم أحكام الإسلام كما تجري على أهل الذمة، لكن عليهم الكف عن محاربة المسلمين، وهؤلاء يسمون أهل العهد وأهل الصلح وأهل الهدنة ." أحكام أهل الذمة،ج:٢ ص:٨٧٤.

(٣) "وأما المستأمن فهو الذي يقدم بلاد المسلمين من غير استيطان لها وهؤلاء أربعة أقسام : رسلٌ وتجار ومستجيرون حتى يُعرض عليهم الإسلام والقرآن فإن شاؤوا دخلوا فيه وإن شاؤوا رجعوا إلى بلادهم وطالبوا حاجةٍ من زيارة أو غيرها" أحكام أهل الذمة،ج:٢ ص:٨٧٣.

ويستحب الإحسان إليهم والعدل معهم ترغيباً لهم في الدخول الإسلام. ومتى خاف المسلمون منهم أو من بعضهم نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين؛ جاز حينئذ نبذ عهدهم إليهم، وذلك بإخبارهم ببطلان العهد الذي بينهم، وجاز حينئذ قتالهم ذلك لقوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾) [الأنفال: ٥٨]. وأما إذا نقضوا العهد جاز قتالهم دون إخبارهم ببطلان العهد الذي بينهم، والسبب في ذلك لأنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين، كما قاتل النبي -ﷺ- قريشاً عندما غدروا وانقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين عام الفتح. وأما أهل الذمة فلا ينبذ إليهم عهدهم حتى ينقضوه فعلاً، فإذا نقضوه حل سفك دمائهم وأخذ أموالهم، ويحصل نقض العهد بسب الله ورسوله -ﷺ-؛ "فعن ابن عمر أنه مر به راهب فقيل: له هذا يسب النبي. فقال: ابن عمر: لو سمعته لقتلته؛ إنا لم نعطهم الذمة على أن يسبوا نبينا.... قال أبا عبد الله[1]: كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثاً مثل هذا رأيت عليه القتل؛ ليس على هذا أعطوا العهد والذمة"[2]. وكذلك إذا أخل بشيء من شروط العهد أو فعل ما فيه ضرر بالمسلمين في أنفسهم أو أموالهم أو أعان الكفار على المسلمين أو أعان على قتل أحد من المسلمين أو دل أحد عليهم أو أوى جاسوساً وغير ذلك؛ فإنه وبمجرد نقض شيء من "الأشياء التي يجب على أهل الذمة تركها وفيها ضرر على المسلمين وآحادهم في نفس أو مال وهي الإعانة على قتال المسلمين وقتل المسلم والمسلمة وقطع

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي، ثم البغدادي، خرج به من مرو حملا وولد ببغداد، ونشأ بها، ومات بها، وطاف البلاد في طلب العلم، ودخل الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام، والجزيرة، روى عن إبراهيم بن خالد الصنعاني، وإبراهيم بن سعد الزهري، وإبراهيم بن شماس السمرقندي، وإبراهيم بن أبي العباس البغدادي المعروف بالسامري،وآخرون، عن يحيي بن معين قال ما رأيت خيرا من أحمد بن حنبل قط ما افتخر علينا قط بالعربية ولا ذكرها،ولد سنة: ١٦٤هـ-٢٤١هـ،"انظر:تهذيب الكمال، ج :١ ص : ٤٣٧-٤٦٥".

(٢) أحكام أهل الذمة، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٣٥٨.

الطريق عليهم وأن يؤوي على المسلمين جاسوساً وأن يعين عليهم بدلالة مثل أن يكاتب المشركين بأخبار المسلمين وأن يزني بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح وأن يفتن مسلماً عن دينه؛ فعليه الكف عن هذا شرط أو لم يشرط فإن خالف انتقض عهده"[١].

(١) أحكام أهل الذمة، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٣٦٠.

المطلب الثالث

كيفية التعامل مع الكفار عموماً

يتم التعامل معهم من خلال الحقوق التي كفلها الإسلام لهم، ووضحها القرآن الكريم، وسوف نقتصر هنا على أبرزها، وهي:

أولاً: التعامل معهم على أساس الكرامة الإنسانية:

لقد أخبرنا الله بتكريمه للإنسان، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات: ١٣]. "فأخبر أنهم إنما يتفاضلون بالتقوى؛ ليعلم أن لا فخر لبعضهم على بعض"[١].

* **القيام لجنازة الكافر**: ففي البخاري "أن النبي -ﷺ- مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي! فقال: "أليست نفساً؟!"[٢]. وينبغي التنبه أنه ليس المقصود تشييع جنائزهم بل مجرد الوقوف لها كونها نفسا فقط.

* **عيادة مريضهم**: فقد عاد النبي -ﷺ- عمه أبا طالب وعرض عليه الإسلام، كما عاد الغلام اليهودي الذي كان يخدمه وعرض عليه الإسلام فأسلم، وخرج مسروراً وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النار"[٣].

---

(١) شعب الإيمان، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٨٥.

(٢) البخاري، ك: الجنائز، ب: من قام لجنازة يهودي، طرف من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى، ج: ١، ص: ٤٤١. رقم الحديث (١٢٥٠).

(٣) أبو داود: سليمان الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (دار الفكر) ب: في عيادة الذمي، ج: ٣، ص: ١٨٥، رقم الحديث (٣٠٩٥)

* **الاعتراف بأنهم أحرار**: أي ليسوا عبيداً بسبب كفرهم؛ فقد عاقب عمر ﷺ محمد بن عمرو بن العاص[١] لما ضرب القبطي ظلماً بسوط "فعن أنس[٢]أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال : عذت معاذا قال : سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين فكتب عمر إلى عمرو[٣] يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه فقدم فقال عمر : أين المصري ؟ خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين . قال أنس فضرب فو الله لقد ضربه ونحن نحب ضربه فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ثم قال عمر للمصري : ضع السوط على صلعة عمرو فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم و لم يأتني "[٤].

ثانياً: حقهم في حرية الاعتقاد:

مع أن الإسلام هو الدين الحق، وهو الخاتم لجميع الأديان، الناسخ لجميع الشعائر، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره، ومع هذا كله لم يُرغم أحداً على الدخول فيه؛ بل ترك لغير المسلمين حرية

---

(١) محمد بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي،وذكر العدوي في الأنساب أن محمدا صحب النبي -ﷺ- وهو صغير وقال بن سعد أمه بلوية وقال بن البرقي اسمها خولة بنت حمزة بن السليل،وقال الواقدي والزبير بن بكار شهد صفين مع أبيه وقاتل فيها وأبلى بلاء عظيما. "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة،ج: ٦ ص: ٢٧-٢٨".

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله- ﷺ -واحد المكثرين من الرواية عنه، وقد خدم النبي -ﷺ- عشر سنين ودعا له النبي -ﷺ- بالبركة في العمر والمال والولد توفي سنة: ٩٣هـ. "انظر: الإصابة في تمميز الصحابة، ج: ١ ص: ١٢٦-١٢٨".

(٣) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي أمير مصر يكنى أبا عبد الله، أسلم قبل الفتح سنة ثمان ولما أسلم كان النبي -ﷺ- يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته، وولاه غزوة ذات السلاسل، توفي سنة: ٤٣هـ . "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٤ ص: ٦٥٠- ٦٥٣".

(٤) علي بن حسام الدين المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال،(مؤسسة الرسالة -بيروت- ١٩٨٩م)، ج: ١٢ص: ٦٦٠-٦٦١.رقم الحديث(٣٦٠١٠).

البقاء على دينهم أو الدخول فيه؛ فقال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. يقول تبارك وتعالى: "لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام؛ فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً"[١]. وقد نزلت هذه الآية في شأن رجال من الأنصار دخلوا الإسلام، وأبناؤهم بقوا على النصرانية؛ فأرادوا أن يكرهوهم على الدخول في الإسلام. "عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وهو مسلم، فقال للنبي -ﷺ-: ألا استكرههما، فإنهما أبيا إلا النصرانية؟ فنزلت هذه الآية"[٢]. ومن هذه الآية وسبب نزولها يتضح أنه لا يحق لأحد أن يرغم أحداً على الدخول في الإسلام حتى ولو كان المرغِم أباً.

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ۝٢٩ ﴾[الكهف: ٢٩]، فهذه الآية تدل على التخيير بين الإيمان والكفر، والحرية في ذلك مع الاقتران بالتهديد بما سوف يترتب على هذا الاختيار في الآخرة من عذاب، وهذا من كمال عدل الله عز وجل وإنصافه، علماً بأن الحرية في الاعتقاد لا تمنع من نصح الكافرين ودعوتهم إلى عبادة الله عز وجل وترك ما سواه، والإعذار إلى الله في إبلاغ الحق، وإقامة الحجة على الممتنع.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣١١. وانظر: فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٧٥.

(٢) أبو الفضل: عبد الرحمن بن أبي بكر محمد السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول (دار إحياء العلوم- بيروت) ج:١، ص: ٤٨؛ ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٨؛ الطبري، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٤؛ فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٧٦.

ولم يكتف الإسلام بمنح الحرية للكفار بالبقاء على دينهم، بل منحهم الحرية في ممارسة شعائرهم، وحافظ على أماكن عبادتهم من الهدم والاستيلاء؛ فقد كان الخلفاء المسلمون يوصون قادتهم بأن لا يتعرضوا لدور العبادة بالهدم ولا بالاستيلاء.

ثالثاً: العدل مع الكفار:

لقد أقام الله السماوات والأرض بالعدل، وأرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، فالإسلام دين العدل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقد أمر الله تعالى المؤمنين بإقامة العدل فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾[النساء: ٥٨]. وهذا خطاب عام بإقامة العدل بين جميع الناس دون تحديد، ولما كان من طبيعة الإنسان وضعفه أنه قد ينحاز إلى قرابته أو قد يتأثر بالأوضاع الاجتماعية فينحاز ضد مخالفيه؛ فلذلك نص القرآن على وجوب العدل في هذه الحالات والظروف، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]. "فأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين

متعاضدين متناصرين فيه"(١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المائدة: ٨]؛ فـ"صرح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجَوْر، وبين أنه مقتضى الهوى، وإذا كان وجوبُ العدل في حق الكفار بهذه المثابة؛ فما ظنُّك بوجوبه في حق المسلمين؟!"(٢). وكما أن الله أمر المؤمنين بالعدل بين جميع الناس، فقد أكد على ضرورة العدل بين أهل الكتاب في الحكم إذا رغبوا في التحاكم إلى شرع الله، فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المائدة: ٤٢].

رابعاً: حفظ دمائهم وأموالهم وأعراضهم:

إن من أعظم حقوق الإنسان التي يجب الحفاظ عليها: النفس والمال والعرض. ويستوي في ذلك المسلم وغير المسلم، سواء كان مواطناً في بلاد المسلمين أو وافداً عليها؛ فهي حقوق محفوظة ومصونة لا يحل الاعتداء عليها إلا لسبب شرعي، مثلهم في ذلك مثل المسلم، حيث قرر الله تعالى ذلك في آية الوصايا التي اتفقت عليها الشرائع الربانية، فقال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٦٦.

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٢. وانظر: الرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب (دار الكتب العلمية- بيروت- ط/١، ١٤٢١هـ) ج: ١١، ص: ١٤٣. وانظر: النسفي: تفسير النسفي، ج: ١، ص: ٢٧٢.

أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾)[الأنعام: ١٥١]. "أي لا تقتلوه في حال من الأحوال إلا في حال الحق، أو لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، وقتلها بسبب زنا المحصن، وقتلها بسبب الردة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها"[١]. وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهَد -وهو المستأمَن من أهل الحرب-، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي -ﷺ- مرفوعاً: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً"[٢]. وعن أبي هريرة[٣]ﷺ عن النبي -ﷺ- قال: "ألا من قتل نفساً معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله؛ فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً"[٤].

كما أن الله عز وجل وضح خطورة من أزهق نفساً واحدة بغير حق؛ فقال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

(١) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ك: الجزية والموادعة، ب: إثم من قتل معاهداً بغير جرم. ج: ٣، ص: ١١٥٥، رقم الحديث (٢٩٩٥).

(٣) عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، وهذا أشهر ما قيل في اسمه واسم أبيه، قيل: كان اسمه في الجاهلية عبد شمس وكنيته أبو الأسود، فسماه رسول الله -ﷺ- عبدالله وكناه أبا هريرة، قال البخاري: روى عنه نحو ثمان مئة رجل أو أكثر من أهل العلم من أصحاب النبي -ﷺ- والتابعين وغيرهم، توفي سنة: ٥٧هـ، وقيل ٥٨هـ، وقيل غير ذلك. "انظر: سير أعلام النبلاء ج: ٢، ص: ٥٧٨، وانظر: الأعلام ج: ٣، ص: ٣٠٨".

(٤) الترمذي، ك: الديات عن الرسول -ﷺ-، ب: ما جاء فيمن يقتل نفسا معاهدة، ج: ٤ص: ٢٠. رقم الحديث(١٤٠٣). رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾) [المائدة: ٣٢]؛ "فمن قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها، أي حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، ولهذا قال: (فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا)"[١].

وكما حرمت دمائهم حرمت أموالهم؛ فعن الرسول -ﷺ- أنه قال: "ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها"[٢]. وكذلك لا يجوز انتهاك أعراضهم بأي حال من الأحوال.

بهذا يجب على المسلم عدم الاعتداء على غير المسلم بغير سبب شرعي إذا لم يكن محارباً لهم، بل يعاملهم معاملة إسلامية حسنة؛ بعدم إيذائهم وضررهم والاعتداء عليهم وغشهم وخيانتهم.

خامساً: معاملتهم معاملة حسنة:

إن المعاملة الحسنة أساس من أسس التعامل مع المسلمين وغيرهم ما لم يظهروا العداوة، بل إنها قد تكون سبباً في دخول كثير من غير المسلمين في الإسلام. قال الله تعالى: (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) [الممتحنة: ٨].

ومعنى الآية: "أن الله سبحانه لا ينهى عن بر أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى أن لا يظاهروا الكفار عليهم. ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل"[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٤٧-٤٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، حديث يزيد عن العوام رضي الله عنه، ج: ٤ص: ٨٩، رقم الحديث(١٦٨٦٢). قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لاضطرابه، على نكارة في بعض ألفاظة.

(٣) تفسير فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٢١٣.

وعن أسماء بنت أبي بكر[١] رضي الله عنهما قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة، في عهد رسول الله -ﷺ-؛ فاستفتيت رسول الله -ﷺ-، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة؛ أفأصل أمي؟ قال: "نعم، صِلي أمك"[٢].

والناظر في سيرة المصطفى محمد -ﷺ- يجدها مليئة بالصور المشرقة للمعاملة الحسنة مع غير المسلمين؛ حيث كان يعود مريضهم -كما في قصة الغلام اليهودي الذي مرض فعاده النبي صلى الله عليه وسلم[٣]- وكان يتعامل معهم بالتجارة، وكان يقبل هداياهم حتى إن امرأة يهودية وضعت له السم في ذراع شاة أهدته إياها، وكان يقابل إساءتهم بالإحسان؛ ففي صحيح البخاري "عن عائشة رضي الله عنها: أن يهود أتوا النبي -ﷺ- فقالوا: السام عليكم. فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم. قال: "مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش". قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟! قال: "أو لم تسمعي ما قلت؟! رددت عليهم؛ فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم فيَّ"[٤].

"وعن ابن عمر أنّ عمر بن الخطاب رأى حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريت

---

(١) أسماء بنت أبي بكر الصديق زوجة الزبير بن العوام وهي شقيقة عبد الله بن أبي بكر أمهما أم العزى قيلة ويقال قتيلة بنت عبد العزى، كان اسلامها قديما بمكة وهاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير روت عن النبي -ﷺ-، روى عنها تدرس جد أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي مولى حكيم بن حزام، وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير، وابنها عبد الله بن الزبير ،وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة وآخرون، وكانت تسمى ذات النطاقين،توفيت سنة:٧٣هـ. "انظر: تهذيب الكمال، ج: ٣٥ ص: ١٢٣-١٢٤".

(٢) البخاري، ك: الهدية وفضلها، ب: الهدية للمشركين، وقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ...﴾ [الممتحنة: ٨]الآية، ج: ٢، ص: ٩٢٤، رقم الحديث (٢٤٧٧).

(٣) انظر ص (١٢٠) من هذه الرسالة.

(٤) البخاري، ك: الأدب، ب: لم يكن النبي -ﷺ- فاحشاً ولا متفحشاً. ج: ٥، ص: ٢٢٤٣، رقم الحديث (٥٦٨٣).

هذه فلبستها للناس يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله -ﷺ-: "إنّما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الآخرة". ثم جاءت رسول الله -ﷺ- منها حللٌ، فأعطى عمر منها حلة. فقال عمر: يا رسول الله، كسوتنيها، وقد قلتَ في حلة عطارد ما قلت؟! فقال رسول الله -ﷺ-: "إنّي لم أكسكها لتلبسها". فكساها عمر أخًا له مشركًا بمكة"[١]. قال النوويّ: "وفيه: صلة الأقارب والمعارف، وإن كانوا كفارًا"[٢]. والمشركون بمكة كانوا أهل حرب. ومن الإحسان: الإحسان إلى الحربِي الأسير. قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٨-٩]. "قال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله -ﷺ- أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى؛ فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء"[٣].

قال قتادة: "لقد أمر الله بالأُسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك"[٤].

ومن الأمثلة أيضاً على حسن معاملة النبي -ﷺ- مع غير المسلمين، الصحيفة التي كتبها بين المهاجرين والأنصار وموادعة اليهود؛ فقد تحدثت هذه الصحيفة عن علاقة المسلمين فيما بينهم، ثم علاقتهم مع بطون اليهود المقيمين آنذاك في المدينة المنورة؛ مما يعطي درساً في كيفية التعايش السلمي بين المواطنين.

وروي "أن رسول الله -ﷺ- كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقر لهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، وهذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا

---

(١) مسلم، ك: اللباس، ب: تحريم لبس الحرير وغير ذلك للرجال. ج: ٣، ص: ١٦٣٨، رقم الحديث (٢٠٦٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، مرجع سابق، ج: ١٤، ص: ٣٨.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٥٦.

(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٩ص: ٢٠٩.

كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس... وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصَرين عليهم... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محارَبين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم... وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثِم فإنه لا يُوتِغ إلاّ نفسه وأهل بيته... وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤٌ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم" إلى آخر الصحيفة[١]. وبهذه الصحيفة استطاع النبي -ﷺ- أن يحمي المجتمع من التصدع ومن الاختلاف.

وهذه الصحيفة وإن كانت خاصة باليهود، فإن أهل الكتاب كلهم ملة واحدة، وكذلك حال الكفار في كل مكان.

ولقد سار الصحابة ﵃ على أثر النبي -ﷺ- في معاملة غير المسلمين؛ فعن عبد الله بن عمرو[٢] أنه ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي، أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي (دار المعرفة- بيروت-لبنان-) ج: ٢، ص: ٥٠١-٥٠٤.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي أبو محمد،أسلم قبل أبيه وقال فيهم النبي -ﷺ- نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله وقيل كان اسمه العاص فلما اسلم سماه النبي -ﷺ- عبد الله وكان غزير العلم مجتهدا في العبادة، روى=

رسول الله -ﷺ- يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[١].

"وعندما أمر عمر بن عبد العزيز[٢] رحمه الله منادياً ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله. قال: ما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي -والعباس جالس-. فقال له عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم، أَقْطَعَنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلاً. فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته. فردها عليه"[٣].

والتاريخ مليء بالأمثلة على التعامل الحسن مع غير المسلمين على مر العصور.

سادساً: عدم موالاتهم والأمر بمعاداتهم:

وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع في المبحث الأول من هذا الفصل.

=عن النبي -ﷺ- وعن سراقة بن مالك بن جعشم وعبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وأبيه عمرو بن العاص ومعاذ بن جبل وأبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني وأبي الدرداء وأبي مويهبة مولى رسول الله -ﷺ-، روى عنه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله وأبو امامة اسعد بن سهل بن حنيف ومولاه إسماعيل وأنس بن مالك وأبو الجوزاء أوس بن عبد الله الربعي."انظر: تهذيب الكمال، ج: ١٥ ص: ٣٥٧-٣٥٩".

(١) الترمذي، ك: البر والصلة عن النبي -ﷺ-، ب: ما جاء في حق الجوار، ج: ٤، ص: ٣٣٣، رقم الحديث (١٩٤٣)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي أبو حفص المدني ثم الدمشقي أمير المؤمنين الإمام العادل والخليفة الصالح وأمه أم عاصم حفصة وقيل ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولي الخلافة بعد بن عمه سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان من أئمة العدل وأهل الدين والفضل وكانت ولايته تسعة وعشرين شهرا روى عن أنس بن مالك وصلى أنس خلفه وقال ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله -ﷺ- من هذا الفتى وعن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني م والسائب بن يزيد وسعيد بن المسيب، ولد سنة:٦٣ ،توفي سنة:١٠١هـ. "انظر: تهذيب الكمال، ج: ٢١ ص: ٤٣٢-٤٤٦".

(٣) انظر: البداية والنهاية، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ١٥٦.

سابعا:التعامل مع الكفار في النواحي الاقتصادية:

أولاً: التجارة:

قال المرغينانِي[١]: "وإذا دخل المسلم دار الحرب تاجرًا؛ فلا يحل له أن يتعرض لشيءٍ من أموالهم، ولا من دمائهم[٢]".

وقال ابن القاسم[٣]: "ولقد سألت مالكاً عن الروم ينزلون بساحل المسلمين معهم التجارات بأمان فيبيعون ويشترون ثم يركبون البحر راجعين إلى بلادهم، فإذا أمعنوا في البحر رمتهم الريح إلى بعض بلدان المسلمين غير البلاد التي كانوا أخذوا فيها الأمان؟ قال: قال مالك: لهم الأمان أبداً ما داموا في تجرهم حتى يرجعوا إلى بلادهم ولا أرى لهم أن يهاجوا"[٤].

وقال صاحب "المبسوط": "وإذا دخل المسلم أو الذميّ دار الحرب تاجرًا بأمان؛ فأصاب هناك مالاً ودورًا ثم ظهر المسلمون على ذلك كله فهو له كله"[٥].

وقال الشافعيّ: "لو أنَّ حربيًا دخل إلينا بأمان وكان معه مال لنفسه ومال لغيره من أهل

---

(١) المرغيناني: العلامة عالم ما وراء النهر، برهان الدين، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرغيناني الحنفي، صاحب كتابي (الهداية)، و(البداية)، في المذهب، كان من أوعية العلم رحمه الله، توفي سنة:٥٩٣هـ."سير أعلام النبلاء، ج: ٢١ ص: ٢٣٢".

(٢) المرغيناني: برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني، بداية المبتدي، (مكتبة ومطبعة محمد علي صبح–القاهرة–) ج: ١، ص: ١١٨.

(٣) عبد الرحمن بن القاسم الامام فقيه الديار المصرية أبو عبد الله العتقى مولاهم المصري سمع مالك بن أنس وتفقه به وعبد الرحمن بن شريح وبكر بن مضر ونافع بن اني نعيم حدث عنه اصبغ بن الفرج والحارث بن مسكين وعيسى بن مثرود ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وآخرون وأنفق اموالا عظيمة في طلب العلم قال النسائي ثقة مأمون أحد العلماء ويروى عن بن القاسم انه كان لا يقبل جوائز السلطان،توفي سنة:١٩١هـ. "انظر: تذكرة الحفاظ، ج: ١ ص: ٣٥٦–٣٥٧".

(٤) مالك بن أنس، المدونة الكبرى، (دار صادر– بيروت –) ج: ٣، ص: ١١.

(٥) السرخسي: شمس الدين السرخسي، المبسوط، (دار المعرفة–بيروت ـ) ج: ١٠، ص: ٦٧.

الحرب لم نعرض له في ماله"(١).

وقال أبو إسحاق الشيرازي(٢): "ويجوز تمكينهم من دخول الحجاز لغير الإقامة؛ لأنّ عمر ﷺ أذن لمن دخل منهم تاجراً في مقام ثلاثة أيام"(٣).

وقال ابن تيميّة: "وإذا سافر الرَّجل إلى دار الحرب ليشتري منها جاز عندنا، كما دلّ عليه حديث تجارة أبي بكر ﷺفي حياة رسول الله -ﷺ- إلى أرض الشام، وهي حينذاك دار حرب، وغير ذلك من الأحاديث"(٤).

وما رواه صاحب كتاب "الخراج" أن أهل منبج -قوم من أهل الحرب- كتبوا إلى عمر بن الخطاب ﷺ: "دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا. فشاور عمر أصحاب رسول الله-ﷺ- في ذلك؛ فأشاروا عليه به"(٥).

---

(١) لأم، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٤٧.

(٢) أبو إسحاق الشيرازي ،الشيخ، الإمام، القدوة، المجتهد، شيخ الإسلام، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي، الشيرازي، الشافعي، نزيل بغداد، قيل: لقبه جمال الدين.مولده في سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة.تفقه على: أبى عبد الله البيضاوي، وعبد الوهاب بن رامين بشيراز، وأخذ بالبصرة عن الخرزي، وسمع من أبي علي بن شاذان، وأبي بكر البرقاني، ومحمد بن عبيد الله الخرجوشي. قال السمعاني: هو إمام الشافعية، ومدرس النظامية، وشيخ العصر. صنف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب، وكان زاهدا، ورعا، متواضعا، ظريفا، كريما، جوادا، طلق الوجه، دائم البشر، مليح المحاورة،ومن أشهر تصانيفه: "كالمهذب"، و"التنبيه"، و"شرح اللمع". "انظر: سير أعلام النبلاء، ج : ١٨ ص : ٤٥٢-٤٥٣".

(٣) أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق، المهذب، (دار الفكر- بيروت -) ج: ٢، ص: ٢٥٨.

(٤) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، (دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-ط/١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م). ص: ٢١٤.

(٥) أبو يوسف، القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الخراج، تحقيق: محمد البنا، (دار الإصلاح للنشر والتوزيع) ص: ٢٧٦.

قال صاحب "المبسوط": "ولا يمنع التجار من حمل التجارات إليهم إلا الكراع والسلاح والحديد؛ لأنهم أهل حرب، وإن كانوا موادعين؛ ألا ترى أنهم بعد مضي المدة يعودون حرباً للمسلمين، ولا يمنع التجار من دخول دار الحرب بالتجارات ما خلا الكراع والسلاح؛ فإنهم يتقوون بذلك على قتال المسلمين فيمنعون من حمله إليهم، وكذلك الحديد؛ فإنه أصل السلاح. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]"[١].

"وكتب أبو موسى[٢] إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: أن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذوا منهم العُشر. فكتب إليه عمر: خذ منهم إذا دخلوا إلينا مثل ذلك: العشر"[٣].

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: هل يجوز للمسلم أن يكون شريكًا للنصراني في تربية الأغنام أو تجارتِها أو أيِّ تجارة أخرى، أفيدونا أفادكم الله؟

فأجاب رحمه الله: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بِهداه.

أمَّا بعد: فإنّ اشتراك مسلم مع نصراني أو غيره من الكفرة في المواشي أو في الزراعة أو في أي شيء آخر، الأصل في ذلك جوازه إذا لم يكن هناك موالاة، وإنّما تعاون في شيء من المال كالزراعة أو

---

(١) المبسوط، مرجع سابق، ج١٠، ص ٨٨-٨٩.

(٢) عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن غنم بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر أبو موسى الأشعري، قدم المدينة بعد فتح خيبر، استعمله الرسول -صلى الله عليه وسلم- على بعض اليمن، واستعمله عمر على البصرة، واستعمله عثمان على الكوفة، توفي سنة: ٤٢هـ. "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٤ ص: ٢١١-٢١٣".

(٣) البيهقي،ك: الجزية، ب: ما يؤخذ من الذمي ومن الحربي إذا دخل بلاد الإسلام بأمان، ج: ٩ص: ٢١٠، رقم الحديث(١٨٥٥٠).

الماشية أو نحو ذلك، وقال جماعة من أهل العلم: بشرط أن يتولى ذلك المسلم، أي: أن يتولى العمل في الزراعة، أو في الماشية المسلم، ولا يتولى ذلك الكافر لأنه لا يُؤْمَن.

وهذا فيه تفصيل: فإن كانت هذه الشركة تجر إلى موالاة، أو لفعل ما حرم الله، أو ترك ما أوجب الله حرمت هذه الشركة لما تفضي إليه من الفساد، أما إن كانت لا تفضي لشيء من ذلك، والمسلم هو الذي يباشرها وهو الذي يعتني بها حتى لا يخدع فلا حرج في ذلك.

ولكن بكل حال فالأولى به السلامة من هذه الشركة، وأن يشترك مع إخوانه المسلمين دون غيرهم، حتى يأمن على دينه ويأمن على ماله، فالاشتراك مع عدو له في الدين فيه خطر على خلقه ودينه وماله، فالأولى بالمؤمن في كل حال أن يبتعد عن هذا الأمر؛ حفظًا لدينه؛ وحفظًا لعرضه؛ وحفظًا لماله؛ وحذرًا من خيانة عدوه في الدين، إلاَّ عند الضرورة والحاجة التي قد تدعو إلى ذلك، فإنَّه لا حرج عليه بشرط مراعاة ما تقدم، أي: بشرط ألا يكون في ذلك مضرة على دينه أو عرضه أو ماله، وبشرط أن يتولى ذلك بنفسه فإنَّه أحوط له، فلا يتولاه الكافر بل يتولى الشركة والأعمال فيها المسلم، أو مسلم ينوب عنهما جميعًا[(١)]".

والخلاصة من كل ما تقدم أن عبارات الفقهاء تدل على جواز الاتجار مع الكفار، فيجوز للحربي دخول دار الإسلام للتجارة. "وقد اختلف الفقهاء في حكم سفر المسلم للتجارة إلى غير بلاد الإسلام على قولين: القول الأول: إن كان المشركون أهل ذمة وينعزلون في بلد معين، فهذا البلد يعد من دار السلام، والسفر إليه جائز، بل يجوز المقام فيه للتجارة؛ لأنه جزء من دار السلام، والسفر إليها في أصله مكروه، إلا لغرض صحيح، مثل الدعوة، أو أداء رسالة، أو القيام بمهمة سفارة، أو تجارة، ونحو ذلك، فإنه يجوز السفر من أجلها، لكن بشرط أن يأمن على دينه، وأن يستطيع إظهاره، وألا تجري عليه أحكام الكفر، وهو الذي عليه جمهور الفقهاء من غير المالكية، واستدلوا على ما ذهبوا إليه: بأن

---

(١) نقلا عن موقع الشيخ الرسمي.

الرسول -ﷺ- كان يبعث رسله إلى ديار أهل الحرب؛ ليؤدوا إليهم كتبه[(١)]، أو ليتفاوضوا معهم حول علاقة السلم والحرب، بل كان بعض الصحابة يتاجر في ديار الحرب، مثل أبي بكر الصديق فقد كان يخرج لتجارة في البصرة في حياة الرسول -ﷺ-. فالسفر لدار الحرب من أجل التجارة لا بأس به بالشرط الذي ذكرناه، هذا هو رأي جمهور الفقهاء[(٢)]. القول الثاني: يذهب المالكية إلى عدم جواز السفر للتجارة الدولية للبلاد غير الإسلامية، وأن على الإمام منع المسلمين من الخروج من دار الإسلام وذلك لأن المسلم مأمور بالهجرة من دار الحرب وعدم البقاء فيها[(٣)]. غير أن بعض المالكية خالف هذا ووافق الجمهور. والراجح من القولين: القول الذي يرى جواز سفر المسلم إلى دار الحرب للتجارة، إذا كان يأمن الفتنة في دينه، وكان يظهر دينه ويعلنه، وهو الذي عليه عامة الفقهاء القدامى والمعاصرين"[(٤)].

والحاصل أن الراجح هو أنه يجوز سفر المسلم لبلاد الكفار من أجل التجارة بشرط أن يأمن على نفسه الفتنة.

ثانياً: التبايع:

لقد دلت النصوص على جواز البيع للكفار والشراء منهم؛ فعن عبد الرحمن بن أبِي بكر[(٥)] رضي الله عنهما، قال: "كنا مع النبي -ﷺ- ثلاثين ومئة، فقال النبي -ﷺ-: هل مع أحد منكم طعام؟

---

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخارى، (دار الشروق للنشر-بيروت- ١٤٠٣هـ)ج: ٨ص ١٢٦.

(٢) انظر: المغنى، مرجع سابق، ج: ١٠ص ٦٠٢.

(٣) ابن الحاج، المدخل(دار الفكر العربى-بيروت-١٩٨٥م)، ج: ٤ ص ٥٨.

(٤) مجلة الجندي المسلم العدد١٢٥بتاريخ١/٩/٢٠٠٦.

(٥) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي قحافة القرشي التيمي مات قبل عائشة رضي الله عنها وبعد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قاله أحمد بن عيسى عن بشر بن بكر عن الأوزاعي عن يحيى عن سالم مولى دوس وقال سعيد بن أبي مريم أخبرنا نافع بن عمر عن بن أبي مليكة قال قال عبد الرحمن بن أبي بكر ما يعرف ذلك الغار غيري يعني الغار الذي كان فيه النبي -ﷺ- وأبو بكر مات سنة ثمان وخمسين أبو محمد."التاريخ الكبير، ج: ٥ ص: ٢٤٢".

فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه؛ فعُجِن، ثم جاء رجلٌ مشركٌ مُشْعَانٌّ طويلٌ بغنم يسوقها، فقال النبي -ﷺ-: بيعاً أم عطية -أو قال: أم هبة؟ قال: لا بل بيع. فاشترى منه شاة؛ فصنعت وأمر النبي -ﷺ- بسواد البطن أن يشوى، وأيم الله ما في الثلاثين والمئة إلا قد حز النبي -ﷺ- له حزة من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاها إياه، وإن كان غائباً خبأ له، فجعل منها قصعتين، فأكلوا أجمعون وشبعنا، ففضلت القصعتان، فحملناه على البعير أو كما قال"[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها "أن النبي -ﷺ- اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل ورهنه درعه[(٢)]".

وقد ثبت عنه -ﷺ- "أنه أمر ثمامة[(٣)] بتصدير القمح إلى أهل مكة وهي حرب عليه حينما

منع ثمامة عنهم ذلك حتى جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله -ﷺ- يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليحمل الطعام إليهم، فأمر رسول الله -ﷺ- بذلك"[٤].

ويرى الإمام أحمد بن حنبل جواز الشراء من الكفار وذلك حينما سئل عن شهود المسلمين سوق الكفار للشراء منها؛ فأجاب بقوله: لا بأس"[(٥)].

---

(١) البخاري، ب: قبول الهدية من المشركين، ج: ٢، ص: ٩٢٣. رقم الحديث (٢٤٧٥).

(٢) البخاري، ب: من رهن درعه، ج: ٢، ص: ٨٨٧، رقم الحديث (٢٣٧٤)؛ أخرجه مسلم في صحيحه ، ب: الرهن وجوازه في الحضر والسفر، ج: ٣، ص: ١٢٢٦، رقم الحديث (١٦٠٣) واللفظ للبخاري.

(٣) ثمامة بن عدي القرشي تقدم ذكره في ترجمة ثقف بن عمرو وأنه كان من المهاجرين الأولين وذكر أبو موسى عن الطبري أنه شهد بدراً وقال ابن السكن يقال له صحبة وكان أميراً على صنعاء وروى البخاري في تاريخه وابن سعد بإسناد صحيح إلى أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني قال لما بلغ ثمامة بن عدي وكان أميراً على صنعاء الشام وكانت له صحبة قتل عثمان بن عفان بكى وطال بكاؤه فلما أفاق قال هذا حين انتزعت خلافة النبوة ورواه البارودي من وجه آخر عن أيوب عن أبي قلابة وروى بن منده من طريق النضر بن معبد عن أبي قلابة حدثني أبو الأشعث الصنعاني أن ثمامة كان على صنعاء وكان من أصحاب محمد النبي - ﷺ- فذكره . «الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص٤١٢».

٤ د. محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن والسنة(مكتبة النهضة الإسلامية-عمان- ١٤٠٠هـ)، ص٢٨٠.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم،مرجع سابق،ص:٢١٣.

وسئل الشيخ عبد العزيز بن باز: هناك أصحاب مهن كالحلاقة والخياطة وعمال في المطاعم أو غير ذلك وهم غير مسلمين؛ إما مسيحيون أو لا دينيون، فما حكم تعامل المسلم معهم؟

فأجاب رحمه الله: "ما داموا في البلاد يتعاطون هذه الأمور فلا مانع من الشراء منهم، وقضاء الحاجة، والبيع عليهم، فقد اشترى الرسول -ﷺ- من اليهود، واشترى من بعض المشركين، فلا بأس، ولكن لا يحبهم، ولا يواليهم، بل يبغضهم في الله، ولا يتخذهم أصدقاء ولا أحباباً، والأفضل أن يُستَخدم المسلمون والمسلمات دون الكفار في كل الأعمال.

لكن إذا كان العمل في الجزيرة العربية حرم استقدام الكفار إليها واستخدامهم فيها؛ لأن الرسول -ﷺ- أوصى بإخراجهم من هذه الجزيرة العربية وقال: "لا يجتمع فيها دينان"[(١)]، لكن إذا قدموا لتجارة ثم يعودون أو بيع حاجات على المسلمين أو قدموا إلى ولي الأمر برسالة من رؤسائهم فلا حرج في ذلك؛ لأن رسل الكفار كانوا يقدمون على النبي في المدينة عليه الصلاة والسلام، وكان بعض الكفار من أهل الشام يقدمون على المدينة لبيع بعض ما لديهم من طعام وغيره"[(٢)].

وقد دلت هذه النصوص على جواز التبادل التجاري مع غير المسلمين، إلا أن الشريعة لم تترك التبادل مفتوحاً بدون ضوابط وقيود، بل جعلت لهذا التبادل قيوداً وضوابط منها:

١- أنه لا يجوز أن يبيع المسلم للكفار ما يستعينون به على قتال المسلمين؛ لقوله تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾** [المائدة: ٢]. ويفهم ذلك المنع من أقوال

---

(١) مالك بن أنس أبو مال عبد الله الأصبحي، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء التراث-مصر) ب: ما جاء في إجلاء اليهود من المدينة، ج: ٢، ص: ٨٩٢، رقم الحديث (١٥٨٤)، والبيهقيّ في الكبرى، ب: معاملة على النخل بشرط ما يخرج منها، ج: ٦، ص: ١١٥، رقم الحديث (١١٤٠٩)، بلفظ: "لا يجتمع في جزيرة العرب دينان"، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦١٧).

(٢) نقلاً عن موقع الرسمي للشيخ، سؤال رقم (١٧٢).

علمائنا في هذه المسألة؛ فقد قال الإمام مالك: "لا يجوز أن يباعوا شيئاً مما يستعينون به في حروبهم من كراع أو سلاح أو حديد، ولا شيئاً مما يرهبون به المسلمين في قتالهم"[١]. وقد أشار صاحب "الهداية" إلى هذا المعنى في قوله: "لا ينبغي أن يباع السلاح من أهل الحرب ولا يجهز إليهم؛ لأن النبي -ﷺ- نهى عن بيع السلاح من أهل الحرب وحمله إليهم، ولأن فيه تقويتهم على قتال المسلمين؛ فيمنع من ذلك، وكذا الكراع وكذا الحديد؛ لأنه أصل السلاح"[٢].

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن معاملة التتار، فأجاب: "يجوز فيها ما يجوز في معاملة أمثالهم، ويحرم فيها ما يحرم في معاملة أمثالهم... فأما إن باعهم أو باع غيرهم ما يعينهم به على المحرمات كبيع الخيل والسلاح لمن يقاتل به قتالاً محرماً فهذا لا يجوز... في السنن عن النبي -ﷺ-: "لعن في الخمر عشرة: لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، وشاربها، وآكل ثمنها[٣]". فقد لعن العاصر وهو إنما يعصر عنباً يصير عصيراً، والعصير حلال: يمكن أن يتخذ خلاً ودبساً وغير ذلك"[٤].

٢- منع بيع كل ما هو محرم على المسلمين كالخمر ولحم الخنزير، وكذلك ما يعينهم على منكر لديهم مثل بيعهم العنب والشعير ليتخذوه خمراً، كما أشار إلى ذلك ابن تيمية بقوله: "بيع الكفار عنباً أو عصيراً يتخذونه خمراً لا يجوز، وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحاً يقاتلون به مسلماً[٥]".

---

(١) المدنوة الكبرى ، مرجع سابق ، ج : ٣، ص ٣٤٨.

(٢) برهان الدين أبي الحسن المرغيناني، الهداية شرح بداية المنتدى ، الناشر : المكتبة الإسلامية – استانبول، ج٢، ص١٣٩.

(٣) مسند أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، ج: ٢، ص: ٧١، رقم الحديث (٥٣٩٠)؛ سنن البيهقي، ب: ما جاء في تحريم الخمر، ج: ٨، ص: ٢٨٧، رقم الحديث (١٧١١١)؛ الحاكم في المستدرك، ك: الأشربة، ج: ٤، ص:١٤٤، رقم الحديث (٧٢٢٨)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل، ١٥٢٩.

(٤) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٢٩، ص: ٢٧٥.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، مرجع سابق ، ص : ٢١٤.

والحاصل أنه يجوز بيع الكافر والشراء منه، كما دلت على ذلك النصوص، ولكن كل ذلك في ضوابط محددة.

ثالثاً: **استئجار المسلم الكافر**:

لقد أجاز الشرع استئجار الكفار، كما دل على ذلك فعل النبي -ﷺ-؛ فعن عائشة رضي الله عنها: استأجر النبيّ -ﷺ- وأبو بكر رجلاً من بني الديل، ثم من بني عبد بن عدي، هاديًا خرّيتًا -الخريت: الماهر بالهداية- قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمِناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا، وانطلق معهما عامر بن فهيرة[١]والدليل الديلي، فأخذ بِهم أسفل مكة، وهو طريق الساحل"[٢].

قال ابن حجر[٣]: "وفي الحديث: استئجارُ المسلمِ الكافرَ على هداية الطريق إذا أمن إليه[٤]".

كما إن"عامة الفقهاء يجيزون استئجارهم عند الضرورة وغيرها؛ لما في ذلك من المذلة لهم، وإنّما الممتنع أن يؤاجر المسلم نفسه من المشرك، لما فيه من إذلال المسلم"[٥].

---

(١) عامر بن فهيرة التيمي مولى أبي بكر الصديق أحد السابقين وكان ممن يعذب في الله له ذكر في الصحيح حديثه في الهجرة عن عائشة، وقال بن إسحاق في المغازي عن عائشة كان عامر بن فهيرة مولدا من الأزد وكان للطفيل بن عبد الله بن سخبرة فاشتراه أبو بكر منه فأعتقه وكان حسن الإسلام. "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٣ ص: ٥٩٤".

(٢) البخاري، ك: الإجارة، ب: استئجار المشركين عند الضرورة، ج: ٢، ص: ٧٩٠، رقم الحديث (٢١٤٤).

(٣) هو الحافظ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني الشافعي، مصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، المعروف بابن حجر (شهاب الدين، أبو الفضل) محدث ومؤرخ، أديب وشاعر، ولد في ١٢شعبان سنة: ٧٧٣هـ وتوفي سنة: ٨٥٢هـ في ١٨ذي الحجة، له مصنفات كثيرة منها: "فتح الباري في شرح البخاري" و"الإصابة" و"تهذيب التهذيب". "انظر: معجم المؤلفين ج: ٢، ص: ٢٠-٢١، والأعلام ج: ١، ص: ١٧٨".

(٤) فتح الباري، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٤٢.

(٥) انظر: فتح الباري، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٤٢.

والحاصل أنه يجوز استئجار الكافر كما دلت على ذلك النصوص، ويكره أن يأجر المسلم للكافر لما في ذلك من مذلة للمسلم، خاصة إذا كان ذلك العمل هو خدمة ذلك الكافر في منزله.

والخلاصة من كل ما تقدم أن العلاقة التي تقوم بين المسلمين وبين غيرهم من غير المسلمين يمكن أن تتلخص فيما يلي:

أولاً: عدم إكراه أحدٍ على الدخول في الإسلام وترك دينه؛ وذلك لقوله تعالى: (لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ)[البقرة: ٢٥٦] مع دعوتهم لدين الله ونصحهم.

ثانياً: حفظ أموالهم وأنفسهم وحماية أعراضهم وعدم الاعتداء عليهم بغير حق.

ثالثاً: معاملتهم بالقسط الذي أنزل الله به الكتب وأرسل به الرسل عليهم السلام.

رابعاً: معاملتهم معاملة حسنة؛ بالإحسان إلى المحتاج منهم بالصدقة والصلة ولنا في رسول الله -ﷺ- وأصحابه ﷺ أسوة حسنة.

خامساً: عدم موالاتهم ومشابهتهم، والأمر بمخالفتهم ومعاداتهم.

سادسا: لا مانع من التعامل مع الكفار في النواحي الاقتصادية.

المبحث الثالث

الآيات القرآنية الواردة في قتال الكفار

تحتل قضية قتال الكفار أهمية كبرى في حياة المسلمين، فقد أعز الله به المسلمين في بداية أمرهم وقامت عليه الفتوحات الكبرى التي انتشر من خلالها الإسلام حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، الدين الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام.

وعلى الرغم ما لقتال الكفار من دور في قمع قوى الشر إلا أن المسلم لا بد له من أن يكون على بينة من أمره في هذا الباب؛ حتى لا يسلك سبيل الغواية فيضر نفسه وأمته في حين كان يريد النفع، ولقد رسم لنا القرآن الكريم المنهج القويم في ذلك، وبين الهدف الحقيقي من قتال الكفار.

وسوف أتناول في هذا المبحث -بإذن الله تعالى- خمسة مطالب:

المطلب الأول: الهدف من قتال الكفار.

المطلب الثاني: الأسباب الموجبة لقتال الكفار.

المطلب الثالث: الأمر بقتال الكفار من غير تقييد أو تخصيص أو شرط.

المطلب الرابع: المواطن التي لا يكون فيها القتال.

المطلب الخامس: الشبه حول قتال الكفار.

المطلب الأول

الهدف من قتال الكفار

إن معرفة الغاية من الجهاد أمر يشحذ الهمة ويدفع المكلف إلى تنفيذ أمر الله عز وجل ويقوي عزيمته، وإن كان المكلف مأمور أن ينفذ الأمر علم الحكمة من ذلك أم لم يعلم. وعند التأمل في نصوص القرآن يتضح لنا الهدف من القتال.

إن الهدف الرئيسي: هو تعبيد الناس لله وحده وترك عبادة العباد. قال تعالى: (وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾) [البقرة: ١٩٣]. وقال تعالى: (وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾) [الأنفال: ٣٩]. فأمر الله تعالى بقتال الكفار لغاية عظيمة وضحها وهي أن"يخلص الدين الذي هو دين الله من سائر الأديان وإنما يحصل هذا المقصود إذا زال الكفر بالكلية[(١)] ".

قال رسول الله -ﷺ-: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف؛ حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري"[(٢)].

"وذلك لأن الهدف من إرسال الرسل هو إخراج البشر من ظلمات الكفر إلى نور الحق وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، التي كانت سبباً في فساد الأرض من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا؛ فقد روي أن رسول الله -ﷺ- قال عن ربه عز وجل: "... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم،

---

(١) التفسير الكبير،مرجع سابق،ج:١٥ص:١٣١، وانظر: تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢ ص: ٢٤٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند عبد الله بن عمر،حديث عبد الله بن عمر ج: ٢، ص: ٥٠، رقم الحديث (٥١١٥). وصححه الألباني.

وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً..." [(١)]. فالهدف الرئيسي من القتال هو رد البشر إلى الحنيفية التي هي الفطرة التي فطر الناس عليها. قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾) [الروم:٣٠]. وقد كان هذا الهدف هو الهدف الذي سار عليه الصحابة ﭫ أثناء معاركهم مع الكفار؛ ففي صحيح البخاري عن جبير بن حية[(٢)] قال: "... فندبنا عمر واستعمل علينا النعمان بن مقرن[(٣)]، حتى إذا كنا بأرض العدو، خرج علينا عامل كسرى في أربعين ألفًا، فقام ترجمان فقال: ليكلمني رجل منكم.

فقال المغيرة: سل عما شئت.

قال: ما أنتم؟

قال: نحن أناس من العرب، كنا في شقاء شديد وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد الشجر والحجر، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين تعالى ذكره وجلت عظمته إلينا نبيًا من أنفسنا، نعرف أباه وأمه، فأمرنا نبينا رسول ربنا -ﷺ- أن

---

(١) مسلم، ب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ج:٤، ص:٢١٩٧، رقم الحديث(٢٨٦٥).

(٢) جبير بن حية بفتح المهملة وتشديد التحتانية بن مسعود الثقفي بن عم المغيرة بن شعبة وابن أخي عروة بن مسعود قلت ثبت في صحيح البخاري أنه شهد الفتوح في عهد عمر، وشهد حجة الوداع وقد ذكره أبو موسى في الصحابة، وكان يسكن الطائف وكان مقم كتاب ثم قدم العراق فاستقر كاتبا في الديوان ثم ولاه زياد أصبهان وعظم شأنه في خلافة عبد الملك. "انظر: الأصابة في تمييز الصحابة، ج: ١ص: ٤٦١".

(٣) النعمان بن مقرن بن عائذ المزني أخو سويد وإخوته وللنعمان ذكر كثير في فتوح العراق وهو الذي قدم بشيرا على عمر بفتح القادسية وهو الذي فتح أصبهان واستشهد بنهاوند، استشهد في خلافة عمر فلم يدركه سالم وروى عنه ابنه معاوية ومسلم بن الهيضم وجبير بن حية وغيرهم قال بن عبد البر سكن البصرة ثم تحول إلى الكوفة وكان معه لواء مزينة يوم الفتح وكان موته سنة إحدى وعشرين ذكر ذلك بن سعد. "الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٦ ص : ٤٥٣".

نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا -ﷺ- عن رسالة ربنا أنه من قُتِل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم"[١].

وهذا الهدف العظيم متضمناً إعلاء كلمة الله وهي الإسلام، وإقامة دين الله في الأرض، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، يقول ابن القيم رحمه الله: "والمقصود من الجهاد إنما هو أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغاره وضرب الجزية على رؤوس أهله والرق على رقابهم، فهذا من دين الله، ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم، وإقامة دينهم كما يحبون، بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة"[٢].

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: "فدل كتاب الله وسنة نبيه -ﷺ- أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به من فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران:

أحدهما: أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه.

والآخر: أن يجاهد من المسلمين من في جهاده كفاية حتى يُسلم أهل الأوثان أو يعطي أهل الكتاب الجزية "[٣].

والخلاصة من كل ما تقدم أن الهدف الرئيسي من فرض القتال هو تعبيد العباد لله وترك عبادة العباد، وهذا الهدف واضح كما سبق معنا من خلال نصوص الكتاب والسنة وما سار عليه صحابة الرسول -ﷺ-، وهذا لا يتأتى إلا بإزالة الشرك وأهله الذين يحاولون صد الناس عن دين الله والتضييق عليهم وفتنتهم وإكراههم على إظهار غير الدين، كما كان يفعل كفار قريش بالرسول -ﷺ-

---

(١) البخاري، ب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة، ج: ٣، ص: ١١٢٥، رقم الحديث (٢٩٨٩).

(٢) أحكام أهل الذمة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٨.

(٣) الأم، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٦٧.

وصحابته الكرام في أول الدعوة في مكة؛ فشرع الله عز وجل قتال الكفار حتى لا تكون فتنة، وحتى تزول جميع الحواجز والعوائق أمام المسلمين ويستطيعوا عبادة الله. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

المطلب الثاني

الأسباب الموجبة لقتال الكفار

ولقد وردت آيات في القرآن الكريم تبين موجبات القتال ومجوزاته؛ لتتضح أسباب القتال في الإسلام. ومن هذه الآيات:

١- آيات تأمر بالقتال بسبب الدفاع؛ فالقتال يكون ضد من يقاتل المسلمين. ومن ذلك قوله تعالى: (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١) [البقرة: ١٩٠-١٩١]. "فلما صُدَّ – ﷺ– عن البيت عام الحديبية وصالح الكفار على أن يعود العام القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، وتجهز لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي قريش ويقاتلوهم وكره المسلمون قتالهم في الحرم والإحرام والشهر الحرام؛ نزل (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) أي لإعلاء دينه (ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ) الكفار (وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ) عليهم بالابتداء بالقتال (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠) المتجاوزين ما حد لهم. وهذا منسوخ بآية (براءة) أو بقوله: (وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ) وجدتموهم (وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ) أي من مكة. وقد فعل بهم ذلك عام الفتح (وَٱلۡفِتۡنَةُ) الشرك منهم (أَشَدُّ) أعظم من (ٱلۡقَتۡلِ) لهم في الحرم أو الإحرام الذي استعظمتموه (وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ) أي في الحرم (حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ) فيه (فَٱقۡتُلُوهُمۡ) فيه، وفي قراءة بلا ألف في الأفعال الثلاثة (كَذَٰلِكَ) القتل والإخراج (جَزَآءُ

ﭐلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾)"[١]. ويؤخذ من هذه الآية أن القتال مقيد بمن قاتل، "وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة، كالنساء والصبيان، والراهب والشيخ الكبير، والأعمى والزمِن ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء، إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع، لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم مالاً للمسلمين، والأول هو الصواب؛ لأن القتال هو لمن يقاتلنا، إذا أردنا إظهار دين الله، كما قال الله تعالى: (وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾)"[البقرة: ١٩٠] [٢].

والخلاصة من هذه الآية أن المسالم الذي لا يقاتل المسلمين لا يقاتل، كما أن الآية لا تكتفي بتوضيح أن المسالم لا يقاتل بل تنهى عن الاعتداء على الآخرين، والبدء بذلك، وذلك واضح من قوله تعالى: (وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾)، بل بين الله سبحانه أنه لا يحب المعتدين، وهذا يدل على أن العدوان محرم في الإسلام، ولو كان بحجة القتال في سبيل الله.

٢- وآيات تأمر بقتال مَن يفتن المسلمين عن دينهم، ويعمل على إخراجهم وإرهابهم، وردهم عن دينهم بالإغراء أو غير ذلك. وجاء بيان هذا السبب في قوله تعالى: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ

(١) تفسير الجلالين، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٠، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ ص: ٨٩.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، السياسة الشرعية (دار المعرفة)ج: ١، ص: ١٠٤.

﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧]. "أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين"(١).

فبينت الآية أن من حق المسلم أن يقاتل مَن يخرجه من وطنه، أو يستولي عليه، وأنه يجب عليه المحافظة على وطنه، ويجب قتال مَن يفتن المسلمين عن دينهم، ويعمل على إخراجهم من دينهم بالإغراء والإرهاب، أو غير ذلك.. وقد جاء بيان هذا السبب في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾.

٣- آيات تأمر بقتال من يخطط ويهيئ لقتال المسلمين للقضاء على الإسلام، وردّ المسلمين عن دينهم، سواء باشر هذا القتال أو أعدَّ له. وجاء بيان هذا السبب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩]. قال القرطبي: "قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي تمنوا أن تكونوا كهم في الكفر والنفاق شرع سواء؛ فأمر الله تعالى بالبراءة منهم فقال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٥٥، وانظر: أضواء البيان، مرجع سابق، ج : ١ ص: ٣٠.

مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ)... (فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ) يقول: إن أعرضوا عن التوحيد والهجرة فأسروهم واقتلوهم (حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ) عامٌّ في الأماكن من حِلٍّ وحرم، والله أعلم"(١). فبينت الآية أن من أسباب قتال الكفار إعراضهم عن التوحيد ومحاولتهم رد المسلمين عن دينهم.

٤- آيات تأمر بالقتال بسبب نصرة وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال، الذين يشتد عليهم الظلم والطغيان، ويستغيثون لطلب العون والإنقاذ والنصرة. وجاء بيان هذا السبب في قوله تعالى: (وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا) [النساء: ٧٥].

قال الطبري: "يعني بذلك جل ثناؤه: (وَمَا لَكُمۡ) أيها المؤمنون (لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)، وفي (وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ)، يقول: عن المستضعفين منكم، (مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ)، فأما من (ٱلرِّجَالِ)، فإنهم كانوا قد أسلموا بمكة، فغلبتهم عشائرهم على أنفسهم بالقهر لهم، وآذوهم، ونالوهم بالعذاب والمكاره في أبدانهم ليفتنوهم عن دينهم، فحض الله المؤمنين على استنقاذهم من أيدي من قد غلبهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصدهم عن دينهم؟! (مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ)، جمع ولد: وهم الصبيان، (ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا)، يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من فتنة من قد استضفهم من المشركين: يا ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"(٢). فبينت الآية أن

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٣٠٨، وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج :٢ ص: ٢٣١.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٦٨، وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج :٢ ص: ٢١٩.

الله عز وجل أوجب القتال من أجل نصرة وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال الذين يشتد عليهم الظلم والطغيان، ويستغيثون لطلب العون والإنقاذ والنصرة. قال تعالى: (ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾).

٥- وقال تعالى: (إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾) [النساء: ٩٠]. و"هؤلاء قوم آخرون من المستثنين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرت صدروهم؛ أي ضيقة صدروهم مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ) أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم (فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ) أي المسالمة (فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾) أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس[١] ونحوه، ولهذا نهى النبي -ﷺ- يومئذ عن قتل العباس وأمر

---

(١) العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي عم رسول الله -ﷺ- أبو الفضل أمه نتيلة بنت جناب بن كلب ولد قبل رسول الله -ﷺ- بسنتين وضاع وهو صغير فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهي أول من كساه ذلك وكان إليه في الجاهلية السقاية، والعمارة، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، وشهد بدرا مع المشركين مكرها فأسر فافتدى نفسه، وافتدى بن أخيه عقيل بن أبي طالب ورجع إلى مكة فيقال: إنه أسلم وكتم قومه ذلك، وصار يكتب إلى النبي -ﷺ- بالأخبار، ثم هاجر قبل الفتح بقليل، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين، وقال النبي -ﷺ- من آذى العباس فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه أخرجه الترمذي، ومات بالمدينة في رجب أو رمضان سنة اثنتين وثلاثين وكان طويلا جميلا أبيض."انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج : ٣ ص : ٦٣١".

بأسره"[١]. فبينت الآية أنه لا يجب قتال من يقاتل المسلمين، وأن من لم يقاتل المسلمين واعتزلهم، فليس للمسلمين حق في قتالهم.

٦- آيات تأمر بقتال من يغدر بالمسلمين ولا يوفي لهم بالعهد. وجاء بيان هذا السبب في قوله تعالى: (سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾) [النساء: ٩١]. "هؤلاء قوم كانوا يظهرون الموافقة لقومهم من الكفار، ويظهرون الإسلام للنبي -ﷺ- والمؤمنين، يريدون بذلك الأمن في الفريقين، فأطلع الله نبيه عليه السلام على نفاقهم، وهو قوله: (يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ) وقوله: (كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا): كلما دعوا إلى الشرك رجعوا فيه (وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾)أي: حجة بينة في قتالهم؛ لأنهم غدرة لا يوفون لكم بعهد "[٢]. فبينت الآية أن هؤلاء خلاف الفئة السابقة؛ فهم يظهرون خلاف ما يبطنون؛ فأوجب الله قتالهم، والسبب في قتال هؤلاء هو غدرهم وعدم وفائهم بالعهد للمسلمين.

٦- آيات تأمر بقتال الكفار حتى يعبدوا الله وحده، كما جاء بيان هذا في قوله تعالى: (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٣٤، وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج : ٢ ص: ٢١٤.

(٢) تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٨١، وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج : ٢ ص : ٢٣٣.

يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾)[الأنفال: ٣٨-٣٩]. "أي حتى لا يُفتن مؤمن عن دينه، ويكون التوحيد لله خالصاً ليس له شريك، ويخلع ما دونه من الأنداد (فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ) [الأنفال: ٣٩-٤٠]عن أمرك إلى ما هم عليه من كفرهم (فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ) [الأنفال:٤٠] الذي أعزكم ونصركم عليهم يوم بدر في كثرة عددهم وقلة عددكم (نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾)[الأنفال:٤٠] [1]. وقال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: وإن يعد هؤلاء لحربك، فقد رأيتم سنتي فيمن قاتلكم منهم يوم بدر، وأنا عائد بمثلها فيمن حاربكم منهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض -وهو الفتنة- (وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ)، يقول: وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصةً دون غيره"[2]. فبينت هذه الآية أن الله أوجب قتال الكفار حتى يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً.

٧- آيات تأمر بقتال كل من طعن في الدين وقدح فيه ونكث العهد وأضمر العداوة والبغضاء للمسلمين. ويتضح هذا السبب من قوله تعالى: (كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾) [التوبة: ٨]. أي: "يعطونكم بألسنتهم خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء (وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ)، أي:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج: ٢.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ٢٤٨.

تأبى عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم، بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم. يحذر جل ثناؤه أمرَهم المؤمنين، ويشحذهم على قتلهم واجتياحهم حيث وجدوا من أرض الله، وأن لا يُقصِّروا في مكروههم بكل ما قدروا عليه (وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾) يقول: وأكثرهم مخالفون عهدكم، ناقضون له، كافرون بربهم، خارجون عن طاعته"[١]. وقال تعالى: (وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾) [التوبة: ١٢]. قال أبوجعفر الطبري: "يقول تعالى ذكره: فإن نقض هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم من قريش، عهودهم من بعد ما عاقدوكم أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم (وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ)، يقول: وقدحوا في دينكم الإسلام، فثلبوه وعابوه (فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ) يقول: فقاتلوا رؤساء الكفر بالله (إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ) يقول: إن رؤساء الكفر لا عهد لهم (لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾) لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم"[٢]. "وقد استدل بهذه الآية على أن الذمي إذا طعن في الدين لا يقتل حتى ينكث العهد كما قال أبو حنيفة؛ لأن الله إنما أمر بقتلهم بشرطين: أحدهما: نقض العهد، والثاني: الطعن في الدين. وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنه إذا طعن في الدين قتل لأنه ينتقض عهده بذلك، قالوا: وكذلك إذا حصل من الذمي مجرد النكث فقط من دون طعن في الدين فإنه يقتل"[٣].

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ٨٥، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج : ١ ص : ٣٣٠.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ٨٧، وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج : ٤ ص : ٤٧.

(٣) تفسير فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٤١.

والخلاصة من الآيتين السابقتين أن الكفار إذا نكثوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين وطعنوا في الدين وقدحوا فيه وجب قتالهم، فالكفار كما أن من صفاتهم إضمار العداوة والبغضاء للمسلمين؛ فلذلك يجب على المسلمين قتالهم حيث وجدوهم.

والخلاصة من جميع ما تقدم من الآيات يتضح أن الأسباب الموجبة لقتال الكفار في الإسلام من دفاع أو نصرة للمستضعفين أو... حتى يعبد الله وحده دون ما سواه، أو بسبب الغدر ونكث العهد وإضمار العداوة والبغضاء للمسلمين... وغير ذلك. وهي أسباب مشروعة يقرها العقل والنقل والأخلاق.

المطلب الثالث

الأمر بقتال الكفار من غير تقييد أو تخصيص أو شرط

لقد أمر الله تبارك وتعالى في مواطن كثيرة من كتابه الكريم بقتال الكفار مطلقاً فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[التوبة:٧٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾[التحريم: ٩]. فهذه الآيات "نسخت ما كان الكفار يعاملون به من الكف عمن سالم، ولم يبق إلا إقامة الحدود، وإعلاء كلمة الله في حق كل إنسان"[١]. فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾[التحريم: ٩]. "ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]؛ وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث بأن محمداً يقتل أصحابه، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم"[٢]. "فأمر تعالى رسوله -ﷺ- بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة... وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله

---

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري (دار ابن حزم-بيروت-ط/١، ١٤١٧هـ)ج: ٢، ص: ٤٤١.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٦٨٣.

تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم. وقال الضحاك[١]: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم... وقال قتادة: مجاهدتهم: إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم"[٢]. "وعن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله(فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ)[التوبة: ٥] وقوله (قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ) [التوبة: ٢٩] قال: فنسخ هذا العفو عن المشركين، وقوله (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ)[التحريم: ٩] فأمره الله بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم"[٣]. "قال عطاء: نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح"[٤]. "فكل من بلغته دعوة رسول الله -ﷺ- إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له فإنه يجب قتاله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وكان الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له في قتل أحد على ذلك ولا قتاله حتى هاجر إلى المدينة فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

---

(١) هو المفسر الثقة الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم، ويقال أبو محمد الخرساني، روى عن طائفة من الصحابة، ولم يثبت له سماع من أحد من الصحابة، وثّقه الإمام أحمد والدار قطني وغيرهما، كان جليل القدر والعلم في التفسير، أخذ جملة منه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وله كتاب في "التفسير" توفي سنة ١٠٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ج: ٤، ص: ٥٩٨، والأعلام ج:٣، ص:٢١٥.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٧٢.

(٣) البيهقي، ك: السير: ب: ما جاء في نسخ العفو عن المشركين ونسخ النهي عن القتال حتى يقاتلوا والنهي عن القتال في الأشهر الحرم: ج: ٩، ص: ١١، رقم الحديث (١٧٥٢٠).

(٤) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣١١. وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٨٤.

صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾) [الحج: ٣٩-٤١]"[١]. كما يجب التنبيه إلى أن "جهاد الكفار يجب أن يكون مسبوقاً بدعوتهم؛ إذ لا عذاب إلا على من بلغته الرسالة، وكذلك عقوبة الفساق لا تثبت إلا بعد قيام الحجة"[٢].

---

(١) السياسة الشرعية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٠.

(٢) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ٣٧٢.

المطلب الرابع

المواطن التي لا يكون فيها القتال

ليس الهدف من القتال هو إزهاق الأرواح وإسالة الدماء، وإنما الغاية منه هو إعلاء كلمة الله، وحتى يكون الدين كله لله. وعلى الرغم من أن الشارع دعى إلى قتال الكفار إلا أنه دعى إلى الكف عن قتالهم في مواطن كما وضح ذلك القرآن الكريم:

١- أن يدخل الكفار في الدين ويعودوا إلى الله تعالى، كما قال تعالى: (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾) [الأنفال: ٣٨].

"يقول تعالى لنبيه محمد -ﷺ-: (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ) أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة؛ يُغفَر لهم ما قد سلف؛ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم[١]". وعند هذا ينتفي السبب الموجب لقتالهم وهو الكفر، وإن استمروا على عنادهم وكفرهم وجب قتالهم. وقال تعالى: (وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾) [البقرة: ١٩٣]. "فإن انتهى الذين يقاتلونكم من الكفار عن قتالكم، ودخلوا في ملتكم، وأقروا بما ألزمكم الله من فرائضه، وتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان؛ فدعوا الاعتداء عليهم وقتالهم وجهادهم؛ فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلا على الظالمين، وهم المشركون بالله، والذين تركوا عبادته وعبدوا غير خالقهم"[٢]. وقال تعالى: (فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٠٩، وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج : ٤ ص : ٤٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، ج١، ص: . ١٩٥، وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج : ١ ص : ٢٢٨.

سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾) [التوبة: ٥]. "يقول: فإن رجعوا عما هم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة نبيه محمد -ﷺ-، إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، والإقرار بنبوة محمد -ﷺ- (وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ) يقول: وأدوا ما فرض الله عليهم من الصلاة بحدودها، وأعطوا الزكاة التي أوجبها الله عليهم في أموالهم أهلها (فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ) يقول: فدعوهم يتصرفون في أمصاركم، ويدخلون البيت الحرام (إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾) لمن تاب من عباده، فأناب إلى طاعته بعد الذي كان عليه من معصيته، ساتر على ذنبه، رحيم به، أن يعاقبه على ذنوبه السالفة قبل توبته"[١].

٢- إذا كف الكفار عن قتال المسلمين، كما قال تعالى: (إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا)[النساء: ٩٠]. "هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدروهم أي ضيقة صدروهم مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم... ومن لطفه بكم أن كفهم عنكم (فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ) فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه؛ ولهذا نهى النبي -ﷺ- يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره"[٢].

---

(١) الطبري، مرجع سابق، ج: ١٠ص: ٧٨، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج : ١ ص : ٣٢٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق،: ج١، ص: ٥٣٤.

٣- عندما يكون عدد الكفار أكثر من عدد المسلمين، وكان عدد المسلمين قليلاً، كما قال تعالى: (وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾) [الأنفال: ٦١]. "يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك، فقاتلهم (وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ) أي مالوا (لِلسَّلْمِ) أي المسالمة والمصالحة والمهادنة (فَٱجْنَحْ لَهَا) أي فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله -ﷺ- تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر"[١].

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق،: ج٢، ص: ٣٢٣، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج : ١ ص : ٣٢٥.

المطلب الخامس

الشبه حول قتال الكفار

يثير بعض أبناء المسلمين بعض الشبه حول قتال الكفار بقولهم: إن القتال في الإسلام إنما شرع للدفاع عن النفس والأوطان، وليس لإكراه الناس على الدخول فيه بالسيف والاستيلاء على ديار غير المسلمين بالقوة. مما جعلهم يضربون عن النصوص التي فيها الأمر بقتال الكفار والإغلاظ عليهم حتى يكون الدين كله لله، وحتى يسلم الكفار أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ويقبلوا على نصوص التي تدل على سماحة الإسلام.

والرد على هذه الشبهة:

١- أن القتال قد شرع لأهداف سامية، وهي أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وحتى يستطيع المسلمون عبادة الله وإظهار شرائع دينه.قال تعالى:(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ)[الأنفال:٣٨-٤٠].

٢- إن جهاد الطلب المقصود به: هو طلب العدو الكافر والظفر به وبأرضه حتى تخضع البلاد والعباد للإسلام، ويقضى على الشرك، ويكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا. وهو الذي قال عنه ابن القيم: "وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين"[١].

---

(١) بن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الفروسية، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان(دار الأندلس-حائل-ط/١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣). ص: ١٨٩.

بينما قال عن جهاد الدفع: "فجهاد الدفع يقصده كل أحد، ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعاً وعقلاً[١]"... قال الله تعالى عن جهاد الطلب: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وهو على الكفاية إلا في حالة استنفر الإمام جميع المسلمين، وقد بين الله فضل جهاد الطلب بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾[النساء: ٩٥].

يقول شيخ الإسلام –رحمه الله تعالى–: "كان النبي –ﷺ– في أول الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده؛ فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتي هي أحسن... وكان مأمورًا بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك، ثم لما هاجر إلى المدينة صار له بها أعوان فأذن له في الجهاد، ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار، فلما فتح الله مكة ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت وأمره بنبذ العهود المطلقة"[٢].

وهذا ما أوضحه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم "زاد المعاد" وهو يستعرض مراحل الدعوة والجهاد منذ بعثته –ﷺ– حتى نزلت سورة براءة حيث يقول: "أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ، ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾[المدثر: ١–٢]؛ فنبأه بقوله: ﴿ٱقْرَأْ ﴾[العلق: ١]،

(١) الفروسية، مرجع سابق، ص: ١٨٩.

(٢) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢٣٧.

وأرسله بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته يُنذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤُمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أُذِنَ له في الهجرة، وأُذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن اعتزله ولم يُقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله، ثم كان الكفارُ معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقامُوا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأُمِرَ أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها؛ فأمره فيها أن يُقاتل عدوَّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم؛ فجهاد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عُهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم -وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له- فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً لهم عهد مُؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم. وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشْهُرُ الأرْبَعَةُ المَذْكُورَةُ في قَوْلِهِ: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ [التوبة: ٢]. وهي الحُرُمُ المَذْكُورَةُ في قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة:٥].

فالحُرُم هاهنا: هي أشهر التسيير، أولها يوم الأذان -وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك- وآخرُها العاشر من ربيع الآخر، وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[التوبة: ٣٦]؛ فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد: رجبٌ، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحَرَّمُ. ولم يَسِرْ المشركين في هذه الأربعة؛ فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجّل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتِمَّ للموفي بعهده عهدَه إلى مدته، فأسلم هؤلاء كُلُّهم، ولم يُقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضَرَبَ على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمرُ الكفار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهلُ الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين: فإنه أُمِرَ أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحُجَّة، وأمره أن يُعْرِضَ عنهم، ويُغلِظَ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يُصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم؛ فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين[١]".

---

(١) زاد المعاد، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٥٩-١٦١.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط كتالي:

١-إن المؤمن الحق لا يتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين حتى وإن كان هؤلاء الكفار أبائهم أو إخوانهم أو أبنائهم أو عشيرتهم لأن موالاتهم ومحبتهم يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله -ﷺ- بينما بغضهم ومعاداتهم من كمال الإيمان.

٢- لقد صنف الله تعالى لنا في كتابه الكريم الكفار إلى أصناف ووضح لنا كيفية التعامل مع كل صنف.

٣-إن التعامل مع الكفار يكون من خلال الحقوق التي كفلها الإسلام لهم ووضحها لنا القرآن الكريم.

٤-جواز التبادل التجاري مع غير المسلمين ولكن وفق ضوابط وقيود كما دلت على ذلك النصوص.

٥-جواز استئجار الكفار وكراهية تأجير المسلم للكفار لما في ذلك من مذلة للمسلم خاصة إذا كان ذلك العمل هو خدمة ذلك الكافر في منزله.

٦-إن الهدف الرئيسي من فرض القتال هو تعبيد العباد لله تعالى وترك عبادة العباد.

الفصل الثالث

الآيات القرآنية الواردة في بيان حال الكفار في الدنيا والآخرة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: الآيات القرآنية الواردة في حال الكفار في الدنيا.

المبحث الثاني: الآيات القرآنية الواردة في حال الكفار في الآخرة.

المبحث الأول

الآيات القرآنية الواردة في حال الكفار في الدنيا

*** تمهيـــد:**

لقد خلقنا الله عز وجل لعبادته، وحثنا على اتباع دينه والإيمان بأنبيائه ورسله، والالتزام بما أنزله عليهم والانقياد له من غير تحريف ولا زيادة ولا نقصان. قال تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾)[الشورى: ١٣]. وقال تعالى: (إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾)[الزمر: ٧]. ولكن الإنسانية ابتليت ببلاء عظيم وهو الانحراف عن دين الله تعالى، واتباع الأهواء البشرية وارتضائها بديلاً عن دين الله تعالى. قال تبارك وتعالى: (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾)[الجاثية: ٢٣]. فوقعوا في الكفر والشقاء والنَّصَب والضنك والعذاب؛ وذلك لأن الإنسان عندما دعي إلى عبادة الله عز وجل وإخلاص ذلك له وقف موقف المعاند المستكبر، متجاهلاً من خلقه ورزقه وجعل له الأرض فرشاً والسماء بناء وأخرج له ثمرات كل شيء؛ فاستحق بذلك عقاب الله عز وجل الذي لا يرد بأسه عن القوم الكافرين.

والقرآن الكريم مليء بالآيات القرآنية التي بينت سبب استحقاق الكفار لغضب الله عز وجل وعقابه، وسوف أتناول في هذا المبحث -بإذن الله تعالى- مطلبين هما:

المطلب الأول: أسباب شقاء الكافرين في الدنيا.

المطلب الثاني: تنوع عقاب الكفار في الدنيا.

المطلب الأول

أسباب شقاء الكافرين في الدنيا

إن المتتبع للآيات القرآنية التي صوَّرت لنا ما حل بالأمم السابقة من الهلاك والعذاب والعقاب، بسبب انحرافهم عن المنهج الصحيح والصراط المستقيم، يجد أن في هذه العقوبات من العظة والعبر ما يجعله يتمسك بالمنهج الصحيح. قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾[آل عمران: ١٣٧]. وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[التوبة: ٦٩-٧٠]. ومن يتأمل في الآيات التي تحدثت عن هلاك الأمم السابقة يجد أن عقاب الله عز وجل لم يحلَّ بهم هكذا، وإنما كان بسبب ما ارتكبوه من أسباب استوجبوا بها العذاب والعقاب؛ فالله عز وجل ليس بظلام للعبيد. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾[آل عمران: ١٨٢].

ومن أبرز أسباب شقاء الكفار في الدنيا:

أولاً: الفساد في الأرض والصد عن ذكر الله تعالى:

إن من أسباب هلاك الأمم السابقة وشقائهم في الدنيا: إفسادهم في الأرض؛ فالله عز وجل لا يحب المفسدين في الأرض. وهذا الفساد يكون بمعصية الله عز وجل، وصلاحها يكون بطاعته عز وجل. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٨-١٢]. "لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة"(١). وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[البقرة: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الرعد: ٢٥]. فهم يفسدون في الأرض "بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد -ﷺ- وبالقرآن"(٢). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾[النساء: ١٦٧]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ

---

(١) شرح كتاب التوحيد، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٠٣.

(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٩، تفسير الثعالبي،مرجع سابق، ج : ١ ص : ١٧٣.

إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾)[النساء: ٤٤].

وقال تعالى: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾)[الأنعام:١١٦]. وقال تعالى: (﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾)[الأعراف: ٤٤-٤٥]. وقال تعالى: (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾) [النحل: ٨٨]. وقال تعالى: (وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾) [الشعراء: ١٥١-١٥٢]. قال السعدي[(١)]: "فإنه لا أعظم فساداً ممن كفر بآيات الله وصد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه ووالى المحاربين لله ورسوله وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجه الله. وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار والنبات بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به؛ لهذا خلق الله الخلق وأسكنهم في الأرض وأدر لهم الأرزاق ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده كان سعياً بالفساد فيها، وإخراباً لها عما خلقت له"[(٢)].

---

(١) هو عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي، من كبار علماء نجد المعاصرين، ولد بعنيزة سنة ١٣٠٧هـ، اشتغل بالتدريس، وله مؤلفات كثيرة، توفي بعنيزة سنة ١٣٧٦هـ، انظر: معجم المؤلفين ج: ١٣، ص: ٣٩٦، الأعلام ج:٣، ص:٣٤٠.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٣.

ثانياً: الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى:

لقد ذكر لنا القرآن الكريم موقف الكفار من أنبيائهم ودعاتهم؛ فهم يقدمون على قتلهم وقتل كل من يدعوهم إلى عبادة الله تعالى والبعد عن الضلال والغي. وهذا من أسباب هلاك الأمم السابقة، كما قال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾)[البقرة: ٦١]. "وذلك أن الله تعالى استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة. وذلك موجود في الناس إذا تؤمل... وقال قتادة رحمه الله -عندما فسر هذه الآية-: اجتنبوا المعصية والعدوان؛ فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس"[(١)]. وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾)[آل عمران: ٢١-٢٢]. "وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم وتعزيرهم وتوقيرهم ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات النكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب

(١) الواحدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٩١، وانظر: تفسير أبي سعود، مرجع سابق، ج : ٢ ص : ٧٢.

والأرواح. وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نقمته مثقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذا الحالة صفة اليهود ونحوهم قبحهم الله ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين"(١).

وقال ابن كثير: "هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق"(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[آل عمران: ١٨١]. وقال تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: ٧٠].

قال الطبري: "فأعلمَ ربُّنا جل ثناؤه عبادَه ما فعل بهؤلاء القوم من أهل الكتاب من إحلال الذلة والخزي بهم في عاجل الدنيا مع ما ادخر لهم في الآجل من العقوبة والنكال وأليم العذاب إذ تعدوا حدود الله واستحلوا محارمه؛ تذكيراً منه تعالى ذكره لهم وتنبيهاً على موضع البلاء الذي من قِبَله أتوا لينيبوا ويذَّكروا، وعظة منه لأمتنا أن لا يستنوا بسنتهم ويركبوا منهاجهم فيسلك بهم مسالكهم ويحل بهم من نقم الله ومثلاته ما أحل بهم"(٣).

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٥٦.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٥١.

ثالثاً: الظلم والكفر بالله تعالى:

الظلم هو تجاوز الحد. وأعظم ظلم يظلم به الإنسان نفسه هو الكفر بالله. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[لقمان: ١٣]. كما أن القرآن الكريم مليء بالآيات التي تبين حال الكافر في الدنيا وأنها مليئة بالظلم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[آل عمران: ١١٦-١١٧]. "بالكفر والمعاصي فباؤوا بغضب من الله، وإنما وصفوا بذلك لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع"[(١)]. كما أن الله عز وجل بين السبب الحقيقي لنشأة الظلم وهو الابتعاد عن الصراط المستقيم الذي يجعل حياة الإنسان مبنية على العدل. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾[النساء: ١٦٨-١٦٩]. قال السعدي: "وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه؛ فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾. وإنما تعذرت المغفرة لهم

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٧٥؛ تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٤٤؛ تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٨٢.

والهداية لأنهم استمروا في طغيانهم وازدادوا في كفرهم فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا"[١].

كما أن الكفار لم يقتصر ظلمهم لأنفسهم بالكفر حتى حاولوا صد الناس عن سبيل الله ليعيشوا في شقاء وتعاسة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[هود: ١٨-١٩]. وعلى الرغم من رؤية الكفار لما حل بمن سبقهم إلا أنهم لم يأخذوا العبرة من ذلك، بل ما زالوا مقيمين على الظلم. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٥]. "أي قَرِرْتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم في الظلم والكفر والمعاصي غير محدِّثين لأنفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذانٌ بأن غائلة الظلم آيلة إلى صاحبه"[٢]. وقال ابن كثير: "قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر"[٣]. وقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم أنه بسبب الظلم وما ينتج عنه من الفساد أهلك الله

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢١٥.

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٥ص: ٥٧.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٥٤٣. تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٢٣٤.

الأمم السابقة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[يونس: ١٣].

رابعاً: التحاكم إلى الطاغوت والحكم بغير ما أنزل الله:

إن من أهم أسباب إهلاك الله عز وجل للكفار وشقائهم في الدنيا: تحاكمهم إلى الطاغوت؛ فإن الكافر الذي لا يحتكم إلى شرع الله عز وجل لا بد أن يلجأ لمن ينظم له حياته ويدبر له شؤونه؛ عند ذلك لا يكون أمامه إلا التحاكم إلى الطواغيت. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾[النساء: ٥١]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[النساء: ٦٠]. "وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله صلى الله عليهم وسلم أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم"(١). قال السعدي: "إن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور؛ فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم"(٢).

---

(١) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٢٥٩.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ١٨٤.

خامساً: التكذيب بالرسل:

والتكذيب بأنبياء الله عز وجل ورسله والاستهزاء بهم وإيذائهم من أهم أسباب إهلاك الكفار وشقائهم في الدنيا. قال تعالى: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ق: ١٤]. قال السعدي: "فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم فحق عليهم وعيد الله وعقوبته"[1]. و"هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب أي يتحتم ويثبت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه"[2]. فقد قابلت كل الأمم السابقة رسلهم وأنبياءهم بالتكذيب؛ الأمر الذي جعلهم مستحقين لعقاب الله عز وجل وعذابه، فحاق بهم الهلاك من المسخ والخسف والإغراق وغير ذلك من أنواع العذاب الذي هدد الله به من كذب رسله وأعرض عن دعوتهم. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [ص: ١٢-١٤].

كما أخبر الله تعالى أن تكذيب الرسل عليهم السلام وقع في جميع الأمم؛ فبعد أن ذكر تكذيب قوم نوح عليه السلام له، بين أن هذا الأمر سارت عليه جميع الأمم من بعد نوح عليه السلام؛ فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[غافر:٥].

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٨٠٤.

(٢) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٧ص: ٤٢٢.

كما وضح الله عز وجل أن الأمم لم تكتفي بتكذيب رسلها بل تعدى ذلك إلى السخرية والاستهزاء بهم فيما أخبروا به كاليوم الآخر؛ فقال تعالى: (وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾)[الرعد: ٣٢]. وقال تعالى: (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾)[الذاريات: ٥٢].

والقرآن الكريم مليء بالآيات الدالة على أن من أسباب شقاء الكفار وهلاكهم في الدنيا الكفر بالله تعالى وتكذيب رسله. قال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾) [إبراهيم: ٩]. فعندما جمعوا بين الكفر بالله تعالى وتكذيب رسله استحقوا ما حل بهم من العذاب والهلاك.

سادساً: الاستكبار والغرور والعتو:

ومن أسباب شقاء الكفار وهلاكهم في الدنيا: الكبر والغرور والعتو. قال الله تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾)[الطلاق: ٨-١٠]. قال السعدي: "يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرون المكذبة للرسل، وأن كثرتهم وقوتهم لم تغن عنهم شيئاً حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم

من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة، ومع عذاب الدنيا فإن الله أعد لهم في الآخرة عذاباً شديداً"[١].

ثم بين الله سبب إهلاكهم بقوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾ "أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله"[٢].

ومن تأمل الآيات التي تحدثت عن سلوك الكفار في الدنيا يجد أن الكافر في حالة من الكبر والغرور والبعد عن طاعة الله عز وجل. قال تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[النحل: ٢٢-٢٣].

سابعاً: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومن أسباب شقاء الكفار في الدنيا وهلاكهم: ارتكابهم للمعاصي وانتشارها مع ترك الأمر المعروف والنهي عن المنكر. يقول الله عز وجل محذراً أمة محمد -ﷺ- من الوقوع في ذلك: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥]. "أي لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كإقرار المنكر بين أظهرهم والمداهنة في الأمر والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد"[٣].

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٨٥؛ أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢١٦.

(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٦. وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٠٠.

وقال الله تعالى مخاطباً أمة محمدٍ -ﷺ-: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[آل عمران: ١٠٤]. وقال تعالى في مدح أمة محمد -ﷺ-: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن هذا يتضح أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب شقاء الكفار وهلاكهم في الدنيا.

ثامنا: البطر:

البطر هو الكفر بنعم الله تعالى التي أنعم بها على عباده، كما قال تعالى عن القرية التي بطرت معيشتها: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[القصص: ٥٨]. "أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق"[١]. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣٩٦. وانظر: تفسير الثعالبي، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٢٥٦.

فالبطر بنعم الله عز وجل -وهو الكفر بالنعمة- سبب لسخط الله تعالى على عباده ومعاقبتهم بزوالها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ [إبراهيم: ٧]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾؛ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾؛ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها"[1]. قال الطبري: "ولئن كفرتم أيها القوم نعمة الله فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه وركوبكم معاصيه؛ إن عذابي لشديد أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي"[2].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٢٤.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٣، ص: ١٨٦.

المطلب الثاني

تنوع عقاب الكفار في الدنيا

إن سنة الله تعالى اقتضت معاقبة كل من كذب به وبرسله عليهم السلام وعصاهم و لم يتبع النور الذي جاؤوا به من عنده سبحانه؛ فعاقبهم الله عز وجل بعقوبات تستأصلهم وتبيدهم عن آخرهم، وهذا راجع إلى ظلمهم وتجبرهم وتكبرهم وتكذيبهم للحق الذي جاء من عند الله تعالى، وهم مع تكبرهم وتجبرهم وتعاليهم عن الحق لم يستطيعوا رد هذه العقوبات عندما حلت بهم، كما بين ذلك الله تعالى. قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾[هود: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾[هود: ٦٦-٦٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾[هود: ٩٤]. ولقد تنوعت هذه العقوبات كما ذكر الله عز وجل ذلك في كتابه الكريم؛ فقد عاقب كل أمة بعقاب من عنده. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾[العنكبوت: ٤٠]. قال ابن تيمية: "وكذلك ما يفعله الله من

الآيات والعقوبات بمكذبي الرسل، كتغريق فرعون، وإهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، وأمثال ذلك، فإن هذا جنس لم يعذب به إلا من كذب الرسل، فهو دليل على صدق الرسل"[١]. ومن أبرز هذه العقوبات ما يلي:

١- الهلاك بالقلب وبالحجارة:

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنه عاقب قوم لوط عليه السلام بالقلب وإرسال الحجارة من السجيل المنضود؛ فقال تعالى: (فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾) [هود: ٨٢]. وقال تعالى: (فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) [الحجر: ٧٤]. ولقد بين سبحانه وتعالى السبب وراء معاقبة قوم لوط بهذا العقاب وهو عمل الخبائث. قال تعالى: (وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾)[الأنبياء: ٧٤]. ومن الخبائث التي كانوا يعملونها وكانت سبباً في هلاكهم: إتيان الذكور بدل الإناث. قال تعالى: (أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾) [الشعراء: ١٦٥]. ومن الخبائث أيضاً: إتيان الفاحشة في ناديهم وقطع السبيل. قال تعالى: (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾)[العنكبوت: ٢٩]. وأعظم من هذا كله تكذيبهم لنبي الله لوط عليه السلام وتهديده بالإخراج من قريتهم. قال تعالى: (قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ

---

(١) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، النبوات، (المطبعة السلفية-القاهرة-١٣٨٦هـ) ج: ١، ص: ١١٢-١١٣.

﴿١٦٧﴾)[الشعراء: ١٦٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[النمل: ٥٦]. فجمع قوم لوط بين الكفر بالله وتكذيب رسوله عليه السلام وبين عمل الخبائث من الفاحشة وقطع السبيل وتهديدهم رسولهم عليه السلام بالإخراج من قريتهم؛ ولهذا استحقوا قلب بلدهم عليهم وإمطار الحجارة من السجيل المنضود عليهم.

ب- الهلاك بالصيحة:

أخبر الله تعالى أنه أهلك ثمود -قوم صالح عليه السلام- بالصيحة؛ فقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾[هود: ٦٧]. فقد كفرت ثمود بالله عز وجل وكذبت برسوله صالح عليه السلام، و لم يكتفوا بذلك بل سخروا منه، واستهزؤوا به، كما أنهم أنكروا أن يبعث الله عز وجل بشراً رسولاً. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٢٣-٢٦]. ولقد بين الله عز وجل سبب هلاكهم وهو أنهم طلبوا من صالح عليه السلام آية دالة على صدق رسالته فعندما جاءهم بما طلبوا عقروا الناقة التي جاء بها واستكبروا عن قبول الحق الذي جاء به صالح عليه السلام. قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾[الأعراف: ٧٧-٧٨].

وكان صالح عليه السلام قد توعدهم بالعذاب إن مسوها بسوء. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾)[الأعراف: ٧٣]. ولقد جمع قوم ثمود العَلَيْهِ السَّلَام بين الكفر بالله والاستكبار عن أمره وتكذيب رسوله العَلَيْهِ السَّلَام وقتل الناقة؛ الأمر الذي استوجب هلاكهم. قال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾)[الشمس: ١١-١٤]. وكان من جملة الأسباب التي كانت سبباً في هلاك قوم ثمود: المكر لقتل صالح العَلَيْهِ السَّلَام. قال تعالى: (قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾)[النمل: ٤٧-٥٢]. ومن خلال الآيات السابقة تتضح الأسباب التي بسببها أهلك الله تعالى قوم ثمود العَلَيْهِ السَّلَام، وكان هلاكهم بأن صاح جبريل العَلَيْهِ السَّلَام. قال تعالى: (إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾)[القمر: ٣١]. "والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء؛ أي كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها"[١].

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٢٤. وانظر: تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٩٧؛ التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٨٢.

ج- الهلاك بالصيحة والظلة:

فقد عاقب الله عز وجل قوم شعيب عليه السلام بالصيحة وبيوم الظلة. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٩١]. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

ولقد وصف الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم هلاك قوم شعيب عليه السلام بأنه أهلكهم بالصيحة وذلك في سورة هود، وبالرجفة في سورة الأعراف، وبيوم الظلة في سورة الشعراء. قال ابن كثير: "وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة -وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم- ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم؛ فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجساد"[(١)].

وأما عن سبب هلاكهم فقد بينه الله عز وجل في كتابه الكريم عندما قال سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٣٣. وانظر: أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٦.

ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾)[الشعراء: ١٧٦-١٩٠]. وقال تعالى: (وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾) [الحجر: ٧٨-٧٩]. فجمعوا من أسباب الهلاك ما استحقوا به العقاب؛ فقد جمعوا بين الكفر بالله، وتكذيب رسوله عليه السلام، وتطفيفهم للكيل، وبخس الناس أشياءهم؛ فاستحقوا بذلك ما حل بهم من العذاب.

د- الخسف:

ولقد خسف الله بقارون الأرض بسبب تكبره وطغيانه وعتوه. قال تعالى: (إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ

فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾)[القصص: ٧٦-٨١]. "وقد كان من بني إسرائيل،....وقد طغى وكفر بموسى وبغى بالكبر والعلو والبذخ وكثرة المال"(١).

هـــ- الهلاك بالإغراق:

فممن أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنه أُهلِك بالغرق: قوم نوح الطَّيْلاً. قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾) [العنكبوت: ١٤]. وقال تعالى: (مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾)[نوح: ٢٥-٢٧]. وقال تعالى: (وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾) [النجم: ٥٠-٥٢]. فأخبر سبحانه وتعالى أن قوم نوح الطَّيْلاً جمعوا من الأسباب ما استحقوا به الهلاك؛ فقد جمعوا بين الكفر بالله تعالى، وبين التكذيب برسوله الطَّيْلاً، وبين الطغيان والظلم. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأنه أهلك قوم نوح الطَّيْلاً من قبل عاد وثمود؛ إنهم كانوا هم أشد ظلماً لأنفسهم وأعظم كفراً بربهم وأشد طغياناً وتمرداً على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم الله به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغياناً من غيرهم من الأمم"(٢).

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١١١. وانظر: البغوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٥٤؛ تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٨٢٥؛ تفسير الجلالين، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥١٨.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٧، ص: ٧٨. وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٦٠؛ تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٥٦.

فعاقبهم الله على كل ما تقدم بأن أرسل عليهم السماء مدراراً وفجر الأرض عيوناً حتى تكون الطوفان الذي أغرق الكافرين، وأنجى الله عز وجل رسوله ﷺ في الفلك ومن حمل معه ممن آمن وممن أمر بحملهم معه. قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[الأعراف: ٦٤]. وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾[الشعراء: ١١٧-١٢٢].

كما أن الله عز وجل أهلك بالغرق فرعون وقومه؛ فقال تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[الأعراف: ١٣٦]. وقال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [آل عمران: ١١]. ولقد بين الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أسباب هلاك فرعون وقومه وهي: الكفر بالله تعالى، وتكذيب رسله الذين أرسلوا إليهم، وإعراضهم عن آيات الله عز وجل التي توالت عليهم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾

وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾)[الزخرف: ٤٦-٥٦]. وقال تعالى: (وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾)[الأعراف: ١٣٠-١٣٣]. وقال تعالى: (وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾) [الفرقان: ٣٥-٣٦]. وقال الله تعالى في تكذيبهم لموسى عليه السلام: (وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾)[غافر: ٣٦-٣٧]. وقد بين الله عز وجل أن من أسباب هلاك

فرعون وقومه طغيانهم وفسادهم في الأرض. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤]. ولقد دعا موسى عليه السلام وأخوه هارون عليه السلام على فرعون وقومه؛ فكان ذلك سبباً في إهلاكهم. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[يونس: ٨٨-٩٢].

و- الهلاك باللعن والمسخ:

لقد أخبر تعالى أنه أهلك بني إسرائيل بالمسخ واللعن، وهذا راجع لعدم تناهيهم عن المنكر. قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[المائدة: ٧٨-٧٩]. " أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم

والمحارم"[١]. قال السعدي: "أي كانوا يفعلون المنكر ولا ينهى بعضهم بعضاً فيشترك بذلك المباشر وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك، وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله وأن معصيته خفيفة عليهم؛ فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجباً للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة"[٢]. ولهذا لعن الله بني إسرائيل ومسخهم قردة وخنازير.

ومما تقدم يتضح أن كل أمة كفرت بالله وكذبت برسوله وفعلت ما تستوجب به العقاب عاقبها الله عز وجل بما تستحق من العقاب في الدنيا مع ما يدخره لهم في الآخرة وهو أشد وأبقى، وبهذا التنوع في العقاب يستشعر المسلم عظم قدرة الله عز وجل، ويزداد خوفاً من ربه عز وجل، كما يستشعر هوان العباد على الله عز وجل؛ فإذا كفروا به وكذبوا رسله وما جاؤوا به من الحق، لم يبال في أي واد هلكوا.

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٨٣. وانظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٣، ص: ١٢١؛ التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٣٢.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٤١.

المبحث الثاني

الآيات القرآنية الواردة في حال الكفار في الآخرة

تمهيد:

بعد أن وصف الله لنا حال الكفار في الدنيا، وما هم فيه من الضيق والشدة والضنك، والأسباب التي استحقوا بها ذلك في الدنيا، وكيف أن الله عز وجل أهلكهم في الدنيا وعذبهم، وغير ذلك كما سبق الحديث معنا في المبحث الأول، فقد وصف لنا أيضاً حالهم عند انتقالهم من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، فوصف لنا حالهم من وقت خروج الروح إلى دخول النار والخلود فيها. وهذا ما سوف نتحدث عنه في هذا المبحث، الذي سأتناول فيه -بإذن الله تعالى- خمسة مطالب:

المطلب الأول: حال الكافر عند الموت وفي القبر.

المطلب الثاني: ذلة الكفار وهوانهم يوم القيامة وحسرتهم ويأسهم.

المطلب الثالث: إحباط أعمال الكفار في الآخرة.

المطلب الرابع: حال الكفار في النار.

المطلب الخامس: النار والجنة مخلوقتان أم لا.

المطلب الأول

حال الكافر عند الموت وفي القبر

المتأمل في نصوص القرآن التي تتحدث عن الموت وسكراته يرى الكرب الشديدة والمحن العظيمة التي تنزل بالكفار عند الموت وفي القبر. وسنعرض في هذا المطلب بعض المشاهد التي وصفها القرآن الكريم:

١- قال تعالى مبيناً حال الكافر عند خروج روحه: (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾) [النحل: ٢٨]. يقول الإمام السعدي: "... ثم ذَكَرَ ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال: (ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ) أي تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم، وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة (فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ) أي استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله وقالوا: (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ)"(١).

٢- وصف الله تعالى ما يعانيه ذلك الكافر من شدة سكرات الموت، فقال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾) [الأنعام: ٩٣]. يقول ابن

---

(١) السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٣٩، انظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج : ١٤ ص : ٩٩.

كثير: "وذلك أن الكافر إذا احتضر، بشرته الملائكة بالعذاب، والنكال، والأغلال، والسلاسل، والجحيم، والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة، حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية" [1] . ويقول السعدي: "ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي شدائده وأهواله الفظيعة وكربه الشنيعة لرأيت أمراً هائلاً وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها وتعصيها عن الخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ أي العذاب الشديد الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ من كذبكم عليه وردكم للحق الذي جاءت به الرسل ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾"[2].

٣- وصف الله تعالى حال هذه الروح عندما تصعد إلى السماء، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٠]. أي "لا تصعد أرواحهم، ولا أعمالهم، ولا

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٥٨.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٦٥.

شيء مما يريدون الله به إلى السماء"(١) وعن النبي -ﷺ- أنه قال في الحديث الطويل الذي رواه البراء بن عازب(٢): "وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله -ﷺ-: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز و جل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح

---

(١) تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٣٩٤.

(٢) لبراء بن عازب بن الحارث بن عدي بن جشم بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي يكنى أبا عمارة، له ولأبيه صحبة، وقد روى عن النبي -ﷺ- جملة من الأحاديث وعن أبيه وأبي بكر وعمر وغيرهما من أكابر الصحابة، أبو جحيفة وعبد الله بن يزيد الخطمي وجماعة آخرهم أبو إسحاق السبيعي. "انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج : ١ ص: ٢٧٨" .

الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؛ فوجهك الوجه يجيء بالشر؟! فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة"[(١)].

٤- بين الله تعالى ما يلاقيه الكافرون الظالمون من عذاب في القبر، فقال سبحانه في حال آل فرعون: (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾)[غافر: ٤٦]. يقول ابن كثير: "أي أشده ألماً وأعظمه نكالاً. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)... وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد روى الإمام أحمد "عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل رسول الله -ﷺ- عليَّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا، من زعم ذلك؟ قالت: هذه اليهودية لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر. قال ﷺ: كذبت يهود، وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة. ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: أَيُّها النَّاسُ، أَظَلَّتْكُمْ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر؛ فإن عذاب القبر حق[(٢)]"... وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة يهودية سألتها فأعطتها، فقالت لها: وقاك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، فلما رأت النبي -ﷺ- قالت له، فقال ﷺ: لا. قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قال لنا رسول الله -ﷺ- بعد

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ك: حديث البراء بن عازب، ب: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. ج: ٤، ص: ٢٨٧، رقم الحديث (١٨٥٥٧)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند السيدة عائشة رضي الله عنها، ب: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، ج: ١، ص: ٨١، رقم الحديث (٢٤٥٦٤). وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

ذلك: وإنه أوحي إلي إنكم تفتنون في قبوركم[١]. وهذا أيضاً على شرطهما، فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ. والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها في القبور؛ إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك في الجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب. ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد... "عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله -ﷺ- دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم. فارتاع رسول الله -ﷺ- وقال: إنما يفتن يهود. قالت عائشة رضي الله عنها: فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله -ﷺ-: ألا إنكم تفتنون في القبور. وقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله -ﷺ- بعد يستعيذ من عذاب القبر"[٢]. وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحي إلى النبي -ﷺ- في ذلك بخصوصه استعاذ منه والله سبحانه وتعالى أعلم... وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أن يهودية دخلت عليها فقالت: أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله -ﷺ- عن عذاب القبر؟ فقال: نعم عذاب القبر حق. قالت عائشة: فما رأيت رسول الله -ﷺ- بعدُ صلى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر. فهذا يدل على أنه بادر -ﷺ- إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي؛ فلعلها قضيتان، والله سبحانه أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً"[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند السيدة عائشة رضي الله عنها، ب: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، ج: ٦، ص: ٢٣٨، رقم الحديث (٢٦٠٥٠). حديث صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند السيدة عائشة رضي الله عنها، ب: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، ج: ٦، ص: ٨٩، رقم الحديث (٢٤٦٢٦). إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٤، ص٨٢-٨٣.

وقد ضل قوم من أهل الزيغ فأنكروا عذاب القبر ونعيمه زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفته الواقع، وقالوا: إنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق. وهذا الزعم باطل؛ فقد دلت الآيات على عذاب القبر ونعيمه، فقال تعالى عن نعيم القبر: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٩-٩١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[فصلت: ٣٠]. وتبشير هذا يكون في الدنيا عند خروج الروح.

"وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. وهذه الآية نصها في عذاب القبر بصريح الأحاديث وباتفاق أئمة التفسير من الصحابة فالتابعين فمن بعدهم، وإن المراد بالتثبيت هو عند السؤال في القبر حقيقة، وإن من أنكر ذاك اعتماداً على كونه لا يراه ولا يسمعه فقد أنكر أن يكون الله يفعل ما يشاء"[١].

وقد "تواترت الأخبار عن رسول الله -ﷺ- في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين[٢]". وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: خرج النبي -ﷺ- من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما... وذكر الحديث وفيه: "كان

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٧١٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٥٠.

أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة"[١]. والأحاديث في عذاب القبر ومسألة منكر ونكير كثيرة متواترة.

قال أبو حنيفة: "من قال: لا أعرف عذاب القبر؛ فهو من الجهمية الهالكة؛ لأنه أنكر قوله تعالى: (سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ)[التوبة: ١٠١] يعني عذاب القبر. وقوله تعالى: (وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾)[الطور: ٤٧] يعني في القبر. فإن قال: أؤمن بالآية، ولا أؤمن بتأويلها وتفسيرها؛ قيل: هو كافر؛ لأن من القرآن ما هو تنزيله تأويله؛ فإن جحد بها فقد كفر"[٢].

قال العلامة أبو الحسن علي سيف الدين الآمدي الأشعري[٣]في كتابه "أبكار الأفكار" ما عبارته: "وقد اتفق سلف الأمة قبل ظهور الخلاف –وأكثرهم بعد ظهوره– على إثبات إحياء الموتى في قبورهم، ومسألة الملكين لهم، وتسمية أحدهما: (منكراً) والآخر: (نكيراً)، وعلى إثبات عذاب القبر للمجرمين والكافرين[٤]".

"فلا خلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها عن الأجساد إلى نعيم أو إلى صفوف ضيق وعذاب وهذه صفة الأجسام، ومن خالف هذا فزعم أن الأنفس تعدم أو أنها

---

(١) البخاري، ب: النميمة من الكبائر، طرف من حديث ابن عباس، ج: ٥، ص: ٢٢٥٠.

(٢) محمد بن عبد الرحمن الخميس، الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة (مكتبة الفرقان–الإمارات العربية–ط/١، ١٤١٩هـ)ج: ١، ص: ١٣٧.

(٣) أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي، الملقب سيف الدين الآمدي؛ ولم يكن في زمانه أحفظ منه لهذه العلوم، وصنف في أصول الفقه والدين والمنطق والحكمة والخلاف، وكل تصانيفه مفيدة. فمن ذلك كتاب " أبكار الأفكار " في علم الكلام، وتوفي على تلك الحال في رابع صفر يوم الثلاثاء سنة إحدى وثلاثين وستمائة ودفن بسفح جبل قاسيون. وكانت ولادته في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى. "انظر: وفيات الأعيان، ج : ٣ ص : ٢٩٣–٢٩٤".

(٤) علي بن سلطان محمد القاري، الآيات البينات في عدم سماع الأموات، تحقيق: مشهور بن حسن بن سلمان (مكتبة الغرباء–السعودية–ط/١، ١٤١٣هـ) ج: ١، ص: ٥٦.

تنتقل إلى أجسام أخر فهو كافر مشرك حلال الدم والمال بخرقه الإجماع ومخالفته القرآن والسنن ونعوذ بالله من الخذلان" [(١)].

والحاصل من ذلك بطلان زعم من زعم أن عذاب القبر لا يقع، بل إن السلف والخلف متفقون على أن عذاب القبر يقع على الكافرين الظالمين.

وقد ضل قوم من أهل الزيغ في عذاب القبر ونعيمه؛ هل يكون على الروح والبدن أم يكون على الروح دون البدن أم لا يكون على البدن ولا الروح؟ وقد فصل شيخ الإسلام الأقوال في هذه المسألة فقال: "وهذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث. قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وان البدن لا ينعم ولا يعذب. وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان –وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين– ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان لكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور. لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط ويقولون: إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ؛ فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً. وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم وابن مرة، فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة، بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر ويقر بالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح، ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على الروح فقط. الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها. الثالث: أنه على البدن فقط. وقد يضم إلى ذلك القول الثاني وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً. فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة؛ فالقول الثاني الشاذ قول

---

(١) الفصل في الملل، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٥٨.

من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب، وإنما الروح هي الحياة. وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة ...، وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن. وهذا قول باطل، وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجويني وغيره، بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة، والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان. وكلا القولين خطأ وضلال، لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام. والقول الثالث الشاذ قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه؛ بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذب؛ فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ، لكنهم خير من الفلاسفة؛ فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى... فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى"[١].

يقول الإمام الطحاوي: "فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته؛ لكونه لا عهد له به في هذا الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه

---

(١) ابن القيم: محمد بن أبي بكر، الروح، (دار الكتب العلمية–بيروت–١٣٩٥هـ–١٩٧٥م). ج: ١، ص: ٥١–٥٢.

قد يأتي بما تحار فيه العقول؛ فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا؛ فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام: أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً. الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض. الثالث: تعلقها به في حال النوم؛ فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه. الرابع: تعلقها به في البرزخ؛ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة؛ فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه. وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة. الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه؛ إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً؛ فالنوم أخو الموت.

فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة، وليس السؤال في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح. والأحاديث الصحيحة ترد القولين. وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ؛ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول -ﷺ- مراده من غير غلو ولا تقصير؛ فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده"[(١)].

والحاصل من ذلك أن السلف متفقون على أن عذاب القبر واقع على البدن والروح معاً.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٥١-٤٥٢.

المطلب الثاني

ذلة الكفار وهوانهم يوم القيامة وحسرتهم ويأسهم

بعد أن صور لنا القرآن حال الكافر عند الموت وفي القبر؛ صور لنا مشاهد يوم القيامة وما فيها من الأهوال والمصائب التي تنزل بالكفار في ذلك اليوم.

وسنعرض بعضاً من تلك المشاهد التي وصفها القرآن الكريم:

١- قال تعالى مبيناً حال الكفار عند خروجهم من قبورهم: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[المعارج: ٤٣]. قال ابن كثير: "أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون." (١).فبين سبحانه وتعالى هنا حالة خروجهم من الأجداث وهي القبور، وهي أنهم يخرجون سراعاً.

٢- وصفهم أنهم يخرجون مبعثرين هنا وهناك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦].

٣- وصفهم أنهم يخرجون وأبصارهم خاشعة. قال تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤٤]. خاشعة أبصارهم، وترهقهم حالة ثانية، وقد جُمعت الحالات السابقة كلها في سورة (اقتربت الساعة) في قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٢٤.

نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨) [القمر: ٦-٨].

٤- وصفهم بأنهم عند قيامهم من القبور يدعون على أنفسهم بالويل والثبور، فقال تعالى ذكره:﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ ﴾ [يس:٥٢]. قال ابن عباس وغيره: "إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بعثوا بعد النفخة الأخيرة وعاينوا القيامة دعوا بالويل"[1]. وكذلك عند رؤيتهم للعذاب فسوف يدعون على أنفسهم بالهلاك والخسران. قال تعالى: (فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١) [الانشقاق:١١].

٥- عند قيام الساعة يقومون من قبورهم شاخصة أبصارهم من شدة الهول، رافعين رؤوسهم إلى السماء، لا يلوون على شيء، وقد اسودت وجوههم وعليهم من الذل والصغار ما الله به عليم. يقول الله تبارك وتعالى واصفاً تلك الحال: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣) [إبراهيم: ٤٢-٤٣]. "قال ابن عباس رضي الله عنه وغير واحد: رافعي رؤوسهم (لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ)؛ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطرفون لحظة؛ لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: (وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ)؛ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف"[2].

---

(١) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤ص: ١٥.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢ص: ٥٤٢-٥٤٣.

٦- ويصور لنا القرآن الفزع الذي يحل بهم في ذلك اليوم. يقول تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [غافر:١٨]. يقول ابن كثير: "يوم الآزفة: اسم من أسماء يوم القيامة. وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[النجم:٥٧-٥٨]، وقال عز وجل: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾[القمر: ١]، وقال جل وعلا: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[الأنبياء: ١]، وقال: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[النحل:١]، وقال جل جلاله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية [الملك: ٢٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾. قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف؛ فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها... ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [النبأ: ٣٨].... وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾؛ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير[١]".

٧- وصور لنا القرآن كيف يؤتى بهؤلاء الكفرة إلى الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥٠]. يقول

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٧٦.

الإمام الطبري: "وتعاين الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ -يعني (يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ)-، (مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ): مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غل وسلسلة، واحدها صفد[1]".

٨- إصابة الكفار بالحسرة والندامة عندما يرون ما يصيب الكفار الظالمين من العذاب والندامة. وقد وضح الله ذلك في وصف يوم القيامة بيوم الحسرة والندامة، فقال تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾) [مريم: ٣٩]. يقول الإمام الشنقيطي[2]: "وقيل له: (يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ)؛ لشدة ندم الكفار فيه على التفريط[3]"، ولشدة تحسرهم على عدم اتباع الرسول الذي أرسل إليهم واتباعهم لأعداء الدين؛ فهم من شدة ندمهم يعضون على أيديهم. قال تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾) [الفرقان: ٢٧-٢٩]. يقول ابن كثير: "يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول -ﷺ- وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٣، ص: ٢٥٤.

(٢) محمد الأمين محمد المختار عبد القادر الجكني الشنقيطي، مفسر، مدرس من علماء شنقيط (موريتانيا) قدم المملكة سنة: ١٣٦٧هـ، حاجاً فأقام بها، كان أستاذاً في الحرم النبوي الشريف، وأستاذاً في الجامعة الإسلامية منذ افتتاحها، له عدة كتب منها: "أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن". ولد سنة: ١٣٢٥هـ وتوفي سنة: ١٣٩٣هـ بمكة المكرمة. انظر: الأعلام ج:٦، ص: ٤٥.

(٣) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٢٢.

حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً"[١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]. "يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك، قالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين"[٢]. ثم يبين الله تعالى أنهم لو عادوا لرجعوا إلى ما نهوا عنه، فقال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]. أي "أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ أي في قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين"[٣]. فعندما يرى الكفار النار ويرون ما فيها من العذاب الشديد يندمون أشد الندم ويعلوا صراخهم ويشتد عويلهم ويدعون ربهم آملين أن يخرجهم من النار. قال تعالى واصفاً ذلك: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨]. "أي قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها و لم نرزقها. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي اردِدنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة"[٤].

"قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً -يعني من جهنم-؛ غيَّر

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣١٨.
(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٢٩.
(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٢٩.
(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٥٨، وانظر: التفسير الكبير، مرجع سابق، ج : ٢٣ ص : ١٠٩.

وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول: يا رب. فيقول الله: من عرف أحداً فليخرجه. فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً، فيناديه الرجل: يا فلان أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾. فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد"[١].

لقد صاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء، ولا يقبل فيه رجاء، وعندما يطلبون الخروج يقابل ذلك الطلب بالرفض بشدة؛ عند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم ربهم. قال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]. "فتوسلوا بمالك إلى الله سبحانه ليسأله لهم أن يقضي عليهم بالموت ليستريحوا من العذاب ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ أي مقيمون في العذاب[٢]".

فلا خروج من النار ولا تخفيف ولا قضاء بالموت، بل هو العذاب السرمدي الدائم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾ [الهمزة: ٨-٩]. "أطبقت الأبواب عليهم ثم شدت بأوتاد من حديد، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح. ومعنى كون العمد ممددة: أنها مطولة، وهي أرسخ من القصيرة. وقيل: العمد أغلال في جهنم، وقيل: القيود[٣]".

٩- في يوم القيامة ييأس الكفار، ويعلموا أنه لن يغفر لهم ولن يقبل عذرهم. قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الروم: ١٢]. "قال قتادة: ييأس المشركون من كل خير"[٤]. عند

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٥٩، النيسابوري: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك (الجزء الخاص بالقرآن)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية-بيروت-ط/١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م)، ج: ٢ ص: ٥٥١.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٥٦٥.

(٣) تفسير فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٤٩٤. وانظر: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، زاد المسير، (المكتب الإسلامي-بيروت-ط/١، ١٤٠٤هـ) ج: ٩، ص: ٢٣٠.

(٤) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٧٨.

ذلك يتمنوا لو أن الله يهلكهم أو يجعلهم تراباً. قال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ﴾[النساء: ٤٢]. يقول ابن كثير: "أي انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ"[١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٤٠]. "يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، و لم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة"[٢].

١٠- وصف حال الكفار وهم يجرون إلى النار وما هم فيه من العذاب والخزي والذل، فقال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[غافر: ٧١]. "أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[غافر: ٧١-٧٢]"[٣].

وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢]. يقول ابن كثير: "يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله؛ أي تضع الأغلال في عنقه ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها؛ أي تغمره فيها[٤]".

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ج: ٤، ص: ٤٦٧.

(٣) تفسير ابن كثير، ج: ٤، ص: ٨٩.

(٤) تفسير ابن كثير، ج: ٤، ص: ٤١٧.

المطلب الثالث

إحباط أعمال الكفار في الآخرة

بعد أن صور لنا القرآن الكريم حال الكفار يوم القيامة، وما هم فيه من الذل والهون والصغار والحسرة؛ صور لنا مصير أعمال الكفار في يوم القيامة. ومن المعلوم بأن "أعمال الكفار تنقسم إلى قسمين: قسم هو طغيان وبغي وفساد في الأرض ونحو ذلك، فهذه أعمال باطلة وفاسدة لا يرجو أصحابها من ورائها خيراً، ولا يتوقعون عليها ثواباً"[(١)].

ولقد وصف الله تلك الأعمال التي عملوها في الدنيا بالظلمات بعضها فوق بعض، فقال تعالى: **(أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾)**[النور: ٤٠]. قال الإمام الطبري: "وهذا مثل آخر ضربه الله لأعمال الكفار. يقول تعالى ذكره: ومثل أعمال هؤلاء الكفار في أنها عملت على خطأ وفساد وضلالة وحيرة من عمالها فيها وعلى غير هدى مثل ظلمات في بحر لجي[(٢)]".

"والقسم الثاني: أعمال يظنون أنها تغني عنهم من الله شيئاً، كالصدقة والعتاق وصلة الأرحام والإنفاق في سبل الخير، وقد ضرب الله في كتابه لهذا النوع من الأعمال أمثلة"[(٣)].

١- تشبيهها بالسراب. قال تعالى: **(وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾)** [النور:٣٩].

---

(١) اليوم الآخر القيامة الكبرى، للدكتور عمر سليمان الأشقر (دار النفائس للنشر والتوزيع- الأردن-ط/٦، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م) ص: ١٢٦.

(٢) تفسير الطبري ج: ١٨، ص: ١٥٠.

(٣) القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص: ١٢٦.

يقول الإمام الطبري: "فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه، كما حسب الظمآن الذي رأى السراب، فظنه ماء يرويه من ظمأه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله، لم يجده ينفعه شيئاً؛ لأنه كان عمله على كفر بالله، ووجد الله هذا الكافر عند هلاكه بالمرصاد، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليها منه"[١].

٢- تشبيهها بالريح الصر؛ أي شديدة البرودة. قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾[آل عمران: ١١٧]. يقول الإمام السعدي: "ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجته ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر؛ أي برد شديد محرق؛ فأهلكت زرعه و لم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف فكذلك هؤلاء الكفار"[٢].

وقال الإمام الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بيّن أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات؛ فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك؛ فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة، وبيّن أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله[٣]".

٣- تشبيهها بالرماد الذي تذره الرياح، فقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ

---

(١) تفسير الإمام الطبري، مرجع سابق، ج: ١٨، ص: ١٤٨.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٤٤.

(٣) لتفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ١٦٩.

﴿١٨﴾)[إبراهيم: ١٨]. يقول الإمام الشنقيطي: "ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف؛ أي شديد الريح؛ فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد و لم تبق له أثراً. فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام وقري الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها كما تطير تلك الريح ذلك الرماد"[١].

٤- تشبيهها بالهباء المنثور. قال تعالى: (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾) [الفرقان: ٢٣]. يقول أبو السعود[٢]في تفسير هذه الآية: "بيان لحال ما كانوا يعملونه في الدنيا من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقَرْي ضيف ومَنٍّ على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها؛ بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالإفساد والتحريف ومزقها كل تمزيق بحيث لم يدع لها عيناً ولا أثراً"[٣].

وهذا الفريق عمل أعمالاً واجتهد فيها اعتقاداً منه بأنها تنفعه عند الله، ولكنهم يفاجؤون يوم القيامة بهلاك واضمحلال ما عملوا. قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾) [الكهف: ١٠٣-

---

(١) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٤٥.

(٢) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، الحنفي (أبو السعود) فقيه، أصولي، مفسر، شاعر، عارف باللغات العربية والفارسية والتركية، من موالي الروم.ولد بقرية بالقرب من القسطنطينية، وقرأ على والده كثيرا، ولازم المولى سعدي جلبي، وتنقل في المدارس، ثم قلد قضاء بروسة ثم قضاء قسطنطينية، ثم قضاء العسكر في ولاية الروم أيلي ودام عليه مدة ثمان سنين، ثم الفتيا، وتوفي بالقسطنطينية في ٥ جمادى الأولى، ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري. من تصانيفه: ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم في تفسير القرآن."انظر: معجدم المؤلفين، ج : ١١ ص : ٣٠١-٣٠٢".

(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٢١٢.

١٠٦]. يقول الإمام السعدي: "بطل واضمحل كل ما عملوه من عمل وهم يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟! فمَن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم فـ(ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥)[الزمر: ١٥]؟! (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ)[الكهف: ١٠٥]..." [١]. وقال سعد بن أبي وقاص[٢] رضي الله عنه عندما سأل "عن قول الله: (قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣) أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً -صلى الله عليه وسلم- وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. فكان سعد رضي الله عنه يسميهم: الفاسقين. وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج[٣] بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عَبَدَ اللهَ على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود[٤]".

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٨٨.

(٢) هو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهري المدني، شهد بدراً والمشاهد كلها، وافتتح القادسية، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتاً، وهو أول من رمى في سبيل الله وفارس الإسلام، جمع له النبي -صلى الله عليه وسلم- =أبويه، وكان سابع سبعة في الإسلام، كان مستجاب الدعوة، ومات في قصره في العقيق، سنة ٧٤هـ ودفن بالبقيع. انظر: سير أعلام النبلاء ج: ١، ص: ٩٢، والأعلام ج: ٣، ص: ٨٧.

(٣) الخوارج هم: كل من خرج عن الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان،والخوارج من أوائل الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام،وقد عد أهل المقال كبار فرق الخوارج سبع فرق وهي: المحكمة الأولى، والأزارقة، والنجدات، والثعالبة، والعجاردة، والأباضية، والصفرية.ومن أهم أصولهم: ١- تكفير مرتكب الكبيرة. ٢- وجوب الخروج على أئمة المسلمين. ٣- إنكار الشفاعة. ٤- وتكفير بعض الصحابة كأهل التحكيم وأصحاب الجمل." انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان، ج: ٢ ص: ١٠٦٣-١٠٦٤".

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٠٨.

والخلاصة أن هذه الأعمال التي ظن الكفار أنها تنفعهم عند الله عز وجل لا قيمة لها ولا وزن؛ لأنها قامت على أساس غير صحيح وهو الكفر والشرك بالله تعالى.

ثم إن الله عز وجل سوف يحاسب هؤلاء الكفار. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾[الحاقة: ٢٥-٢٦]. يقول الإمام الرازي: "واعلم أنه تعالى بين أنه لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله؛ خجل منها وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار؛ فقال: ليتهم عذبوني بالنار وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي؛ حتى لا أقع في هذه الخجالة. وهذا ينبهك على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني. وقوله: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: و لم أدر أي شيء حسابيه؛ لأنه حاصل ولا طائل له في ذلك الحساب، وإنما كله عليه"[١].

وقد أجمع العلماء على ثبوت الحساب للكافر يوم القيامة لحديث: "فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين"[٢] (متفق عليه من حديث ابن عمر). والحساب عام لجميع الناس إلا من استثناهم النبي -ﷺ- وهم سبعون ألفًا من هذه الأمة -منهم عكاشة بن محصن[٣] رضي الله عنه- يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب[٤] (متفق عليه).

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٣٠، ص: ١٠٠.

(٢) البخاري، ب:قول الله تعالى:﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨]، ج:٢ ص:٨٦٢ رقم الحديث(٢٣٠٩)، أخرجه مسلم في صحيحه ،ب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، من حديث ابن عمر بن الخطاب، ج: ٤ ص: ٢١٢٠، رقم الحديث (٢٧٦٨).

(٣) عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة بن بكير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي حليف بني عبد شمس، من السابقين الأولين، وشهد بدرا، قيل استشهد عكاشة في قتال أهل الردة." انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٤ ص: ٥٣٣".

(٤) البخاري، ب: يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، ج: ٥ ص: ٢٣٩٦، رقم الحديث(٦١٧٥)، ومسلم، ب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ج: ١ ص: ١٩٩، رقم الحديث،(٢٢٠)

ولقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦]. "عن قتادة: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ يقول: إن إلى الله الإياب وعليه الحساب"(١).

وحساب هؤلاء الكفار لا يكون مثل حساب من له حسنات وسيئات، وإنما يقررون بسيئاتهم؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ثم يساقون إلى النار سوقاً، كما قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٦]. وكونهم يأخذون صحائفهم بشمالهم ووراء ظهورهم فهذا أمر ثابت في القرآن الكريم ولا ينكره إلا كافر. لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانشقاق: ١٠]. "هو الكافر تغل يمناه إلى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره فيأخذ بها كتابه(٢)".

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٣٠، ص: ١٦٧.

(٢) تفسير الجلالين، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧٩٩. تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٤٩٦.

المطلب الرابع

حال الكفار في النار

لقد صور لنا القرآن الكريم عذاب الكفار في النار فهم يشربون ماء من حميم يصهر به ما في بطونهم والجلود. يقول تعالى: (يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾) [الحج:٢٠]. " أي إذا صب على رؤوسهم الحميم -وهو الماء الحار في غاية الحرارة- أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء(١)".

ويأكلون من شجرة من زقوم طعاماً لا يسمن ولا يغني من جوع. قال تعالى: (إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾) [الدخان: ٤٣-٤٦].

"إن شجرة الزقوم طعام الفاجر؛ أي ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معيشتهم"(٢). ثم وصفهم أنهم يقمعون بمقامع من حديد؛ فقال تعالى: (وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾) [الحج: ٢١]. "قال ابن عباس: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور"(٣). ثم بين الله أن النار تحيط بالكفار من كل جهة، كما كانت خطاياهم في الدنيا تحيط بهم من كل الجهات؛ فالجزاء من جنس العمل. قال تعالى: (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾) [الأعراف: ٤١]. "أي نيران تغشاهم من فوقهم كالأغطية (وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ) أي مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من اتصف بصفة الظلم"(٤). وغير ذلك من العذاب الذي أعده الله لأهل النار.

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢١٣. انظر: أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٨٩-٢٩٠.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٤٦.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢١٤؛ الدر المنثور، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٢١؛ فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٤٥.

(٤) تفسير فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٠٥.

ثم إن الكفار في النار وهم يصارعون العذاب يمقتون أنفسهم ويمقتون من كان بينهم وبينه خلة ومحبة في الدنيا وتنقطع هذه المحبة. قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. يقول ابن كثير: "كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه، وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] [(١)]".

"وعند ذلك يخاصم أهل النار بعضهم بعضاً، ويُحاجُّ بعضهم بعضاً: العابدون المعبودين، والأتباعُ السادةَ المتبوعين، والضعفاءُ المتكبرين، والإنسانُ قرينَه، بل يخاصم الكافر أعضاءه[(٢)]".

١- تخاصم العابدين والمعبودين: قال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٩]. يقول الإمام السعدي: "{قالوا} أي جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في العبادة والمحبة والخوف والرجاء وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ ضلالهم وأقروا بعدل الله في عقوبتهم وأنها في محلها"[(٣)]. فإن كل من أشرك بالله فقد ظلم نفسه ظلماً عظيماً.

---

(١) تفسبر ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٣٤.

(٢) القيامة الكبرى، مرجع سابق، ص: ١٢٩.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٩٣.

وأما من عُبِدَ من دون الله بغير علمه كالصالحين والأخيار، أو عُبِدوا من دون الله بغير رضا منهم كالملائكة وصالحي البشر؛ فإنهم يوم القيامة سيتبرؤون منهم ويكذبونهم فيما افتروه. يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء الكفار بالله جميعاً ثم نقول للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا؟ فتتبرأ منهم الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ ربنا؛ تنزيهاً لك وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء من الشركاء والأنداد ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ لا نتخذ ولياً دونك ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾"[1].

وكذلك عيسى ابن مريم يتبرأ من كل من اتخذه إله من دون الله تعالى ذكره، وجعله له شريكاً في العبادة، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]. يقول الإمام السعدي: "وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. فيقول الله هذا الكلام لعيسى فيتبرأ منه عيسى ويقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٢، ص: ١٠٢.

وعما لا يليق بك ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾؛ أي ما ينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي؛ فإنه ليس أحد من المخلوقين لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مدبرون وخلق مسخرون وفقراء عاجزون"[(١)].

وهذا حال كل من اتُّخِذ إلهاً من دون الله، ولم يرض بذلك، وهو في نفس الوقت مقر بأن المستحق للعبادة وحده هو الحي القيوم، فيكذبون هؤلاء في عبادتهم تلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل: ٨٦-٨٧]. يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهة من دونك. قال الله تعالى ذكره: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ يعني شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله القول، يقول: قالوا لهم: إنكم لكاذبون أيها المشركين، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا"[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٤٩.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٤، ص: ١٦٠.

يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾) [يونس: ٢٨-٣٠]. يقول الإمام الطبري: "عن مجاهد قال: يكون يوم القيامة ساعة فيها شدة، تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدون، فيقال: هؤلاء الذين كنتم تعبدون من دون الله. فتقول الآلهة: والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا. فيقولون: والله لإياكم كنا نعبد. فتقول لهم الآلهة: فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين"[(١)].

٢- تخاصم الأتباع مع القادة أصحاب الضلال: قال تعالى واصفاً ذلك الحال: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾)

[الصافات: ١٩-٣٥]. يقول الإمام الرازي: "يسأل بعضهم بعضاً، وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم، وهو سؤال التبكيت. يقولون: غررتمونا. ويقول أولئك: لم قبلتم منا. وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين بل هو تساؤل التوبيخ واللوم والله أعلم[(٢)]".

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١١، ص: ١١١.

(٢) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٢٦، ص: ١١٦.

٣- تخاصم الضعفاء مع ملوكهم وساداتهم الذين أضلوهم وصدوهم عن الحق: قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]. يقول الإمام الطبري: "قال الذين استكبروا -وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا-: إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون لا خلاص لنا منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ بفصل قضائه فأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار؛ فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون"[1]. وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٤، ص: ٧٣.

بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾)[سبأ: ٣١-٣٣]. ووصف تعالى تخاصمهم عند دخول النار، فقال تعالى: (هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾) [ص:٥٥-٦٤]. فهؤلاء السادة والملوك يتبرؤون من هؤلاء الضعفاء الذين كانوا لهم أتباعاً في الدنيا، وتنقلب كل المودة والمحبة والطاعة إلى عداوة وتمني أن يزيدهم الله من العذاب.

٤- تخاصم الكافر مع قرينه من الشياطين: قال تعالى واصفاً ذلك: (وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾) [ق: ٢٣-٢٩]. يقول الإمام الطبري: "يقول قرينه من الشياطين: ما أنا جعلته طاغياً متعدياً إلى ما ليس له، وإنما يعني بذلك الكفر

بالله ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ يقول: ولكن كان في طريق جائر عن سبيل الهدى جوراً بعيداً. وإنما أخبر تعالى ذكره هذا الخبر عن قول قرين الكافر له يوم القيامة إعلاماً منه عباده تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة"[١].

٥- تخاصم الكافر مع أعضائه يوم القيامة: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ١٩-٢١]. يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الذين يحشرون إلى النار من أعداء الله سبحانه -لجلودهم إذ شهدت عليهم بما كانوا في الدنيا يعملون-: لم شهدتم علينا بما كنا نعمل في الدنيا؟! فأجابتهم جلودهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء فنطقنا، وذكر أن هذه الجوارح تشهد على أهلها عند استشهاد الله إياها عليهم إذا هم أنكروا الأفعال التي كانوا فعلوها في الدنيا بما يسخط الله"[٢].

٦- مقت الكفار لأنفسهم وللذين أضلوهم: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠]. يقول الإمام ابن كثير: "يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة"[٣]. كما يخبر تعالى أن الكفار يمقتون

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٦، ص: ١٦٧-١٦٨.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٤، ص: ١٠٧.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٧٣.

الذين أضلوهم عن طريق الحق ويطلبون من الله أن يضاعف لهم العذاب. يقول تعالى: (**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾**) [الأحزاب: ٦٦-٦٨]. يقول الإمام السعدي: "ولما علموا أنهم وكبراءهم مستحقون للعقاب أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم فقالوا: (**رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**)"[١]. كما يتمنوا أن الله يريهم هؤلاء الذين أضلوهم لكي يجعلوهم تحت أقدامهم. قال تعالى: (**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾**) [فصلت: ٢٩]. يقول الإمام الطبري: "يقول: نجعل هذين اللذين أضلانا تحت أقدامنا؛ لأن أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض، وكل ما سفل منها فهو أشد على أهله، وعذاب أهله أغلظ؛ ولذلك سأل هؤلاء الكفار ربهم أن يريهم اللذين أضلاهم ليجعلوهما أسفل منهم ليكونا في أشد العذاب في الدرك الأسفل من النار"[٢]. كما أنهم عندما يدخلون النار يلعن بعضهم بعضاً وتمنوا لهم مزيداً من العذاب. قال تعالى: (**قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾**) [الأعراف: ٣٨].

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٧٣.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٤، ص: ١١٤.

المطلب الخامس

النار والجنة مخلوقتان أم لا ؟!

وقد ذهبت المعتزلة والقدرية إلى أن الجنة والنار معدومتان الآن، ولا توجدان إلا يوم القيامة"وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم؛ فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خَلْق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مُدَداً متطاولة. فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم"[(١)].

ولكن هذا الزعم باطل من عدة وجوه:

أولاً: دلت نصوص القرآن على وجودهما؛ لقوله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]. وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]. "أي مرصدة معدة"[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ثانياً: ما ورد في الأحاديث الصحيحة عن النبي -ﷺ- أنه رأى سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره: "ثم انطلق بي جبريل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج١: ص: ٤٧٦.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٦٤.

حتى نأتي سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي. قال: ثم أدخلت الجنة؛ فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك[١]". وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة"[٢]. وفي حديث البراء بن عازب وفيه: "فينادي مناد من السماء أن صدق؛ فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله من الجنة. قال: ويمد له في قبره ويأتيه روح الجنة وريحها) [٣]. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خسفت الشمس على عهد رسول الله... فذكرت الحديث وفيه: قال رسول الله -ﷺ- : "رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني جعلت أقدم -وقال المرادي: أتقدم- ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت"[٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس ﷺ: "ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار"[٥].

وفي المسند من حديث كعب بن مالك[٦] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما نسمة المسلم طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله عز وجل إلى جسده يوم القيامة[١]". وهذا الحديث صريح في

---

(١) مسلم، ب: الإسراء برسول الله -ﷺ-، ج: ١، ص: ١٤٨. رقم الحديث (١٦٣).

(٢) البخاري، ب: الميت يعرض عليه بالغداة والعشي، ج: ١، ص: ٤٦٤. رقم الحديث (١٣١٣).

(٣) المستدرك على الصحيحين، ك: الإيمان، ج: ١، ص: ٩٣. رقم الحديث (١٠٧).

(٤) مسلم، ب: صلاة الكسوف، ج: ٢، ص: ٦١٩. رقم الحديث (٩٠١).

(٥) مسلم، ب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، ج: ١، ص: ٣٢٠. رقم الحديث (٤٢٦).

(٦) كعب بن مالك بن أبي كعب واسمه عمرو بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصاري السلمي أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد، ويقال: أبو بشير المدني الشاعر، صاحب النبي -ﷺ- وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، وأنزل فيه، وعلى الثلاثة الذين خلفوا، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة، وحكي خليفة بن خياط عن الكلبي أنه شهد بدرا، وذلك غير صحيح فإنه قد صح عنه أنه =

دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة. وفي المسند من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله -ﷺ- قال: "لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل. قال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها؛ فرجع إليه. قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بها فحجبت بالمكاره. قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فرجع إليها وإذا هي قد حجبت بالمكاره؛ فرجع إليه. قال: وعزتك قد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فإذا هي يركب بعضها بعضاً؛ فرجع. قال: وعزتك لقد خشيت أن لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحفت بالشهوات. فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها"[٢]. ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

ثالثاً: ما سطره علماء السنة في أن الجنة والنار مخلوقتان. يقول ابن تيمية: "ونعتقد أن الله تعالى خلق الجنة والنار وأنهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء... إلى أن قال: ونعتقد أن النبي عرج بنفسه إلى سدرة المنتهى... إلى أن قال: ونعتقد أن الله قبض قبضتين فقال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار"[٣].وقال الإمام الطحاوي: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً؛ فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له"[٤]. ويقول ابن قدامه المقدسي: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان؛

=قال: تخلفت عن بدر روى عن النبي -ﷺ- ، وعن أسيد بن حضير، روى عنه جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس وأولاده عبد الله بن كعب بن مالك، وعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، وعبد الرحمن بن كعب بن مالك." انظر: الأصابة في تمييز الصحابة، ج:٥ ص: ٦١٠-٦١١".

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند: كعب بن مالك الأنصاري ﷺ، ب: حديث: كعب بن مالك الأنصاري ﷺ. ج: ٣، ص: ٤٥٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند أبي هريرة ﷺ، ج: ٢، ص: ٣٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٥ ص: ٧٧.

(٤) العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥١.

فالجنة مأوى أوليائه، والنار عقاب لأعدائه، وأهل الجنة فيها مخلدون (﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾) [الزخرف: ٧٤-٧٥]" [١]. ويقول الخطابي[٢]: "ويشهد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان لا يفنيان أبداً، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها لا يخرجون أبداً، وأن المنادي ينادي يومئذ: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت. على ما ورد به الخبر الصحيح عن رسول الله -ﷺ-"[٣]. وغير ذلك كثير.

ولقد ذهب أهل الزيغ والضلال إلى القول بفناء الجنة والنار، وممن حكى أقوالهم في ذلك ابن أبي العز الحنفي[٤]-شارح العقيدة الطحاوية- وغيره فقال: "وأما أبدية النار ودوامها فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد. وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

---

(١) ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، لمعة الاعتقاد، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر (الدار السلفية-الكويت- ط/١، ١٤٠٦ هـ) ج: ١، ص: ٢٧.

(٢) هو حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، من ولد زيد بن الخطاب، أبو سليمان البستي، نسبة إلى مدينة (بست)، ولد سنة ٣١٩هـ وتوفي سنة ٣٨٨هـ، كان محدثاً، فقيهاً، أديباً، شاعراً، لغوياً، من مؤلفاته: "معالم السنن" وهو شرح سنن أبي داود و"بيان إعجاز القرآن" وغيرهما. "انظر: معجم المؤلفين، ج: ٤، ص: ٧٤، والأعلام ج: ٢، ص: ٢٧٣".

(٣) الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، الغنية عن الكلام وأهله،(مكتبة نور السمان الرقمية، دمشق- سوريا) ج: ١، ص: ٤٤

(٤) ابن أبي العز: هو الإمام العلامة صدر الدين، أبو الحسن علي بن علاء الدين علي بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن شرف الدين أبي البركات محمد بن عز الدين أبي العز الأذرعي الدمشقي الحنفي، ولد سنة٧٢١هـ بدمشق، من مؤلفاته: "الاتباع" و"شرح العقيدة الطحاوية" و"التنبية على مشكلات الهداية"، توفي سنة: ٧٩٢هـ. "انظر: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج: ٢، ص: ٩٥-٩٨. وانظر: الدرر الكامنة ج: ٣، ص: ٨٧"

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم. وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون. وهذا القول حكاه اليهود للنبي -ﷺ- وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى فقال عز من قائل: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[البقرة: ٨٠-٨١].

الرابع: يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه. وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف[1].

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها؛ فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

---

(١) محمد العلاف، محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول، العبدي، المعروف بالعلاف (أبو الهذيل) متكلم، من شيوخ البصريين في الاعتزال ولد بالبصرة، وورد بغداد، ورد على المجوس واليهود والمشبهة والملحدين والسوفسطائية وعمي، وخرف في آخر عمره، وتوفي بسامراء.من تصانيفه: كتاب يعرف بميلاس وكان ميلاس رجلا مجوسيا فأسلم."معجم المؤلفين، ج : ١٢ ص : ٩١-٩٢"

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله (أي الإمام الطحاوي)، وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان، وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهما"[1].

والحاصل بطلان هذه الأقوال إلا القولان الأخيران وذلك لنسبتهما لبعض السلف فسوف نتناولها بالتفصيل:

أدلة القائلين بالقولين الأخيرين:

الدليل الأول: استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧].

ووجه الاستدلال من ذلك كما ذكره ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية:"ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله:﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]" [2].

والجواب عن ذلك:

أ- أن الاستثناء هنا في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٨٣-٤٨٤.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٨٤.

والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط وقال يوماً من الدهر: (لا إله إلا الله) كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله -ﷺ- بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر(١)وأبي سعيد(٢)وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة(٣)ﷺ. ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة(٤).

وقد يَشْكُل على بعضهم أنه استخدام (ما) التي لغير العاقل بمعنى (من) التي للعاقل. والجواب عن ذلك أن هذا وارد في القرآن الكريم واللغة العربية كما في:

١- قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]. يقول الإمام الشوكاني: "(ما) في قوله ﴿مَا طَابَ﴾ موصولة، وجاء بـ(ما) مكان (من) لأنهما قد يتعاقبان فيقع كل واحد منهما مكان الآخر كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾[الشمس: ٥]..." (٥)

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري، ثم السلمي، صحابي ابن صحابي، غزا تسع عشرة غزوة، من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتاً. مات بالمدينة بعد السبعين وهو ابن ٩٤ سنة. "انظر: سير أعلام النبلاء ج: ٣، ص: ١٨٩، والأعلام ج: ٢، ص: ١٠٤".

(٢) الإمام المجاهد، مفتي المدينة، سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر بن عوف بن الحارث بن الخزرج، وأخو أبي سعيد لأمه هو قتادة بن النعمان الظفري أحد البدريين، استشهد أبوه مالك يوم أحد، وشهد أبو سعيد الخندق، وبيعة الرضوان. وحدث عن النبي -ﷺ- فأكثر وأطاب، وأبي بكر، وعمر، وطائفة، وكان أحد الفقهاء المجتهدين. توفي سنة: ٧٤هـ. "انظر: سير أعلام النبلاء ج: ٣، ص: ١٦٨-١٦٩، وانظر: الأعلام ج: ٣، ص: ٨١".

(٣) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -ﷺ-: "يدخل ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة أخرجوا منها ودخلوا الجنة؛ فيقال: هؤلاء الجهنميون" إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير يزيد بن أبي صالح وهو ثقة.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٦١.

(٥) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٢٠.

٢- وقوله تعالى: (إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾) [المؤمنون:٦]. والمقصود: من ملكت.

٣- وقوله تعالى: (وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾) [النساء: ٢٢]. "والتقدير: ولا تنكحوا من نكح آباؤكم"[١].

ب- أن المراد بقوله تعالى: (مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ)[هود: ١٠٨]: "سماوات الآخرة وأرضها؛ فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سماوات وأرضاً غير هذه الموجودة في الدنيا، وهي دائمة بدوام دار الآخرة، وأيضاً لا بد لهم من موضع يقلهم، وآخر يظلهم، وهما أرض وسماء"[٢].

الدليل الثاني: قوله تعالى: (لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾)[النبأ: ٢٣]. وجه الاستدلال: "أفاد مفهوم الأحقاب أنه لا خلود فيها إذ الأبدي لا يقدر بزمان"[٣].

والرد على ذلك أن المراد بالأحقاب "أي دهوراً متتابعة كلما مضى حقب تبعه حقب آخر إلى غير نهاية فإن الحقب لا يكاد يستعمل إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها فليس فيه ما يدل على تناهي تلك الأحقاب ولو أريد بالحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة"[٤].

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ١٨.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٢٥.

(٣) الأمير الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، رفع الأستار، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني (المكتب الإسلامي-بيروت-ط/١، ١٤٠٥هـ)ج: ١، ص: ٨٨.

(٤) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ٩١.

الدليل الثالث: استدل أصحاب هذا القول بالآثار الواردة عن بعض الصحابة كأبي هريرة وابن مسعود وعمر بن الخطاب ﷺ . "وقد روى عبد بن حميد[١] في تفسيره المشهور بسنده إلى عمر ﷺ أنه قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه"[٢].

والجواب عن ذلك أن هذه الآثار لم يصح سندها. يقول صاحب كتاب رفع الأستار: "وأقول فيه شيئان: الأول من حيث الرواية؛ فإنه منقطع لنص شيخ الإسلام بأنه لم يسمعه الحسن من عمر، واعتذاره بأنه لو لم يصح للحسن عن عمر لما جزم به يلزم أن يجري في كل مقطوع يجزم به رواية ولا يقول هذا أئمة الحديث كما عرفت في قواعد أصول الحديث بل الانقطاع عندهم علة والجزم معه تدليس وهو علة أخرى ولا يقوم بمثل ذلك الاستدلال في مسألة فرعية، كيف في مسألة قيل: إنها أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة"[٣].

وبهذا يتضح بطلان هذا القول.

وأما عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك فهي أن الجنة والنار لا تفنيان ولا تبيدان،كما قرر ذلك أهل السنة في مصنفات العقائد، وأدلة هذا القول:

أولاً: من القرآن الكريم:

أ- قال تعالى: ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء:١٦٩].

---

(١) عبد الحميد بن حميد بن نصر الكشي كنيته أبو محمد وهو الذي يقال له عبد بن حميد يروى عن يزيد بن هارون والعراقيين روى عنه مسلم بن الحجاج مات سنة تسع وأربعين ومائتين وكان ممن جمع وصنف."الثقات،ج : ٨ ص : ٤٠١" .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٨٤.

(٣) رفع الأستار، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٠.

ب- وقال تعالى: (خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾)[الأحزاب: ٦٥] .

ج- وقال تعالى: (إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾) [الجن:٢٣].

"وغير ذلك في القرآن كثير، فأخبرنا تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن أهل النار الذين هم أهلها خلقت لهم وخلقوا لها وأنهم خالدون فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين لا فكاك لهم منها ولا خلاص ولات حين مناص، فأخبر تعالى عن أبديتهم فيها بقوله: (خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا)"(١).

ثم أخبر تعالى بعدم خروجهم من النار، ومن ذلك:

أ- قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾) [البقرة: ١٦٧] .

ب- وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ) [المائدة: ٣٧] .

ج- وقال تعالى: (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾) [الفرقان: ٦٥-٦٦].

د- وقال تعالى: (إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ)[الزخرف: ٧٤-٧٧].

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٨٦٤.

وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ ﴾[المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

ولقد نفى تعالى انقطاعها عنهم بقوله عز وجل: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾[الزخرف: ٧٥].

ولقد نفى فناءهم فيها بقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ ﴾[الأعلى: ١٣]. وقوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦ ﴾ [النساء: ٥٦].

ثانياً: من السنة:

ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله -ﷺ- قال: "يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت. ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح. ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت"(١).

ثالثاً: دليل الإجماع:

وقال صاحب كتاب الفرق بين الفرق: "وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على المشركين والمنافقين"(٢).

---

(١) مسلم، ب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، من حديث أبي سعيد الخدري، ج: ٤، ص: ٢١٨٨، رقم الحديث (٢٨٤٩).

(٢) الفرق بين الفرق، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٣٩.

وقال أبو السعود رحمه الله: "وقد انعقد الإجماع على أنَّ المراد به -أي الخلد- الدوام[١]".

وقال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعالى في شرحه للعقيدة الطحاوية: "وقوله: لا تفنيان أبداً ولا تبيدان: هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف"[٢].

والخلاصة من كل ما تقدم أن أهل السنة والجماعة متفقون على أن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً وأن الكفار مخلدون في النار.

---

(١) تفسير أبو السعود، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٩٤.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١ ص: ٤٨٠.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة أمور وهي كتالي:

١-إن الإنسان عندما دعي إلى عبادة الله عز وجل وإخلاص العبادة له سبحانه، وقف موقف المعاند المستكبر، متجاهلا من خلقه ورزقه وجعل له الأرض فرشا والسماء بناء وأخرج له من ثمرات كل شيء، فستحق بذلك عقاب الله عز وجل الذي لا يرد بأسه عن القوم الكافرين.

٢-إن الله عز وجل ليس بظلام لعباده قال تعالى:(**وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢**)[آل عمران: ١٨٢]فلا يعاقب إلا من يستحق العقاب.

٣-إن سنة الله تعالى اقتضت معاقبة كل أمة كفرت بالله عز وجل وبرسله وفعلت ما يستوجب العقاب في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة.

٤-إن التنوع في العقاب يجعل المسلم يستشعر عظم قدرة الله عز وجل ويزيد من خوفه من ربه عز وجل.

٥-إن السلف -رضي الله عنهم- جميعا متفقون على أن عذاب القبر واقع على البدن والروح معا.

٦-إن أعمال الكفار التي ظنوا أنها تنفعهم عند الله عز وجل لا قيمة لها ولا وزن لها يوم القيامة لأنها قامت على أساس غير صحيح وهو الكفر والشرك بالله تعالى.

٧-إن أهل السنة والجماعة متفقون على أن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً وأن الكفار مخلدون في النار.

البـــاب الثاني

بيان القرآن الكريم لموقف الكفار

من أركان الإيمان والرد عليهم

ويشتمل على ستة فصول:

الفصل الأول: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الإله والرد عليهم.

الفصل الثاني: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الملائكة والرد عليهم.

الفصل الثالث: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الكتب والرد عليهم.

الفصل الرابع: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الرسل والرد عليهم.

الفصل الخامس: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من اليوم الأخروالرد عليهم.

الفصل السادس: الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من القدر والرد عليهم.

الفصـل الأول

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الإله والرد عليهم.

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : موقف الكفار من ربوبية الله عز وجل والرد عليهم

المبحث الثاني : موقف الكفار من الألوهية والرد عليهم.

الفصل الأول

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الإله والرد عليهم

تمهيـــد:

العقيدة هي الركن الشديد والدافع القوي، بها يهتدي العبد إلى فطرته التي فطره الله عليها؛ فيضيء بها النور الذي أودعه الله فيه؛ فيأمن من كل ما يخاف، ويهتدي من كل حيرة، ويطمئن من كل قلق واضطراب. وبأركان الإيمان تتم عقيدة العبد ويكمل يقينه، والإيمان يُبنى على ستة أركان، وإن الركن الأساسي الذي تبنى عليه بقية الأركان هو الإيمان بالله عز وجل. قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾)[النساء: ١٣٦].

إن حقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى هو الاعتقاد الجازم بأنه الخالق الرازق المدبر للكون، وأنه وحده المستحق للعبادة من صلاة، وصيام، ودعاء، ورجاء، وخوف، وذل، وخضوع، ومحبة، وأنه متصف بصفات الكمال ومنزه عن كل نقص وعيب. وعلى الرغم من أن الله عز وجل فطر النفوس على معرفته إلا أن من الناس من كفر بالله عز وجل وارتضى غيره رباً وإلهاً. وسوف أتناول في هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: موقف الكفار من ربوبية الله عز وجل والرد عليهم.

المبحث الثاني: موقف الكفار من الألوهية والرد عليهم.

المبحث الأول

موقف الكفار من ربوبية الله عز وجل والرد عليهم

تمهيد:

إن الإيمان بالله عز وجل أصل من أصول الإيمان يتضمن الإيمان بأنه الخالق الرازق المتصرف والمدبر لهذا الكون. والإيمان بربوبية الله تعالى يثمر تعظيمه وإجلاله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣]. وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال تعالى مثنياً على نفسه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]. وقد فطر الله جميع الخلق على الإقرار بربوبيته سبحانه، حتى إن المشركين على الرغم من إشراكهم إلا أنهم يقرون بربوبيته سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[المؤمنون: ٨٦-٨٩]. وهذا الإقرار لم يقتصر على مشركي العرب في الجاهلية فقط، بل إن الأمم السابقة كانت مقرة به، فقوم نوح عليه السلام -على سبيل المثال- عندما قال لهم نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢]. فلم يعترضوا على هذا

ويزعموا أن الذي يفعل ذلك هو آلهتهم، بل كانوا مقرين بأن الله سبحانه هو الذي يرسل السماء مدراراً، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً.

كما أن القرآن دل على أن قوم يوسف عليه السلام كانوا "مقرين بالله وهم مشركون به، ولهذا كان خطاب يوسف عليه السلام للملك وللعزيز ولهم يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله: (ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾) [يوسف: ٣٩]، (ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ) إلى قوله: (إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾)[يوسف: ٥٠]، (وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾) [يوسف: ٥٢] ... وقد قال مؤمن آل فرعون: (وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ) [غافر: ٣٤]؛ فهذا يقتضي أن أولئك الذين بعث إليهم يوسف كانوا يقرون بالله"[1].

ولهذا قالت الرسل لأقوامهم: (أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾) [إبراهيم: ١٠].

وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم كانوا مقرين بربوبية الله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾) [العنكبوت: ٦١]. وقال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ

---

(١) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٦٣٠.

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾)[العنكبوت٦٣]. وقال تعالى: (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾) [لقمان: ٢٥]. وقال تعالى: (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾) [الزمر: ٣٨]. وقال تعالى: (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٩﴾) [الزخرف: ٩]. وقال تعالى: (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾) [الزخرف: ٨٧]. والحاصل أن البشرية جمعاء مقرة بربوبيته سبحانه وتعالى. قال قتادة رحمه الله: "الخلق كلهم يقرون الله أنه ربهم ثم يشركون بعد ذلك[١]". وقال ابن قتيبة[٢]رحمه الله: "فلست واجداً أحداً إلا وهو مقر بأن له صانعاً ومدبراً، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئاً دونه ليقربه منه عند نفسه، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علواً كبيراً. قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾) [الزخرف: ٨٧]" [٣]. وقال العلامة أحمد المقريزي[٤]رحمه الله: "فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد

---

(١) الدرر المنثورة، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٢٠.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد: من أئمة الادب، ومن المصنفين المكثرين.ولد ببغداد وسكن الكوفة.ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها.وتوفي ببغداد. من كتبه " تأويل مختلف الحديث"، و " أدب الكاتب"، و " المعارف"، وكتاب " المعاني"."انظر: الأعلام للزركلي، ج : ٤ ص : ١٣٧".

(٣) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مختلف الحديث، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر (المكتب الإسلامي- دار الإشراق- ط/٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م). ص: ١٢٢.

(٤) أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي: مؤرخ الديار المصرية.أصله من بعلبك، ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه) ولد ونشأ ومات في القاهرة، وولي فيها الحسبة والخطابة والامامة مرات، واتصل بالملك الظاهر برقوق، فدخل دمشق مع ولده الناصرسنة: ٨١٠ هـ، وعرض=

الإلهية، مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام: (لا إله إلا الله)، ولو قال: (لا رب إلا الله) لما أجزأه عند المحققين[١]". وسوف أتناول في هذا المبحث المطلبين التاليين:

المطلب الأول: شبهة المنكرين لذات الله عز وجل ونقضها.

المطلب الثاني: شبهة المدعين لشيء من خصائص الربوبية والرد عليهم.

=عليه قضاؤها فأبى.وعاد إلى مصر.من تآليفه كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، و (السلوك في معرفة دول الملوك)، قال السخاوي: قرأت بخطه أن تصانيفه زادت على مئتي.ولد سنة:٧٦٦هـ، وتوفي سنة: ٨٤٥هـ."انظر: الأعلام للزركلي، ج : ١ ص : ١٧٧-١٧٨".

(١) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تجريد التوحيد المفيد، تحقيق: على بن حسن، (دار عمار، ط١) ص: ٢١.

المطلب الأول

شبهة المنكرين لذات الله عز وجل ونقضها

على الرغم من أن توحيد الربوبية أمر استقر في الفطر وجبلت عليه النفوس وتكاتفت الأدلة على تقريره، إلا أنه وجد في البشر من كابر وعاند وأنكر، وإنكاره هذا كان بلسانه فقط مع اعترافه بذلك في قرارة نفسه. ومن أشهر من عرف بذلك فرعون؛ الذي قال لقومه -كما أخبر الله عنه-: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]. "وقد كان مستيقناً به في الباطن كما قال له موسى‌عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾[الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى عنه وعن قومه ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤]. ولهذا لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء:٢٣] على وجه الإنكار له تجاهل العارف؛ قال له موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٤-٢٨]. وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهماً عن الماهية وأن المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية؛ عجز موسى عن الجواب. وهذا غلط، وإنما هذا استفهام إنكار وجحود، كما دلت سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله نافياً له و لم يكن مثبتاً له طالباً للعلم بماهيته؛ فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو، بل هو سبحانه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل،

بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معروف"[١]. ففرعون في حقيقة الأمر لم يكن له شبهة في إنكاره، وإنما كل ذلك مبني على الكبر والغرور والخوف على فقدان ملكه. قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١]. وقوله هو وملئه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨].

نقض هذه الشبهة بالأدلة:

لقد أقام الله عز وجل براهين مختلفة على وجوده دحض بها حجة من أنكر وجوده سبحانه، وذلك من خلال الأدلة الفطرية، والأدلة العقلية، والآيات الكونية. وبيان ذلك على النحو التالي:

أولاً: دلالة الفطرة:

لقد فطر الله عز وجل الناس على الإحساس بأن هناك قوة علياً مدبرة لهذا الكون ومسيطرة عليه؛ فعندما يتأمل الإنسان في خلقه وتركيبه وما أودع فيه. قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، أو عندما يتأمل في هذا الكون الشاسع من حوله. قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠]؛ فإنه يُنَبِّه هذا الإحساس ويسيطر عليه ويدفعه دفعاً للإقرار بوجود قوة عليا خالقة عاقلة، وهذه القوة العليا هي الله عز وجل؛ فهذا هو ما استقر في الفطر كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧٧.

شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾) [الأعراف: ١٧٢]. فهذه النتيجة الحقيقية التي يخرج بها من حرك نظره وأعمل عقله الصحيح وهو أنه تبارك وتعالى موجود.

ولا تظهر هذه الفطرة واضحة جلية إلا عند الشدائد وانقطاع الحيل والسبل عند إحاطة الخطر بالإنسان من كل مكان؛ ففرعون على الرغم من مكابرته وعناده اعترف بوجوده تبارك وتعالى عندما رأى الموت، كما قال تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾)[يونس: ٩٠]. وهذا يدل على أنه رجع لفطرته التي فطر عليها وهي الأقرار بوجود الله تعالى. وهذا دليل أيضاً على أنه كان عالماً بوجوده سبحانه وتعالى.

ثانياً: الدليل العقلي:

لقد وهب الله عز وجل الإنسان نعمة العقل، وحثَّه على النظر والتأمل في الكون من حوله من أرض وسماء وماء وجبال وبحار وأنهار وتلال ونجوم وكواكب. قال تعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾)[الغاشية: ١٧-٢٠]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومعلوم بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدث أحدثه، وإن حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل، وهذا أمر مركوز في بني آدم، حتى الصبيان لو ضرب الصبي ضربة فقال: من ضربني؟ فقيل: ما ضربك أحد. لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل. ولهذا لو جوز مجوز أن يحدث كتابة أو بناء أو غراس ونحو ذلك من غير محدث لذلك؛ لكان عند العقلاء إما مجنوناً وإما مسفسطاً كالمنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية، وكذلك معلوم أنه لم يُحْدِث نفسَه؛ فإن كان

معدوماً قبل حدوثه لم يكن شيئاً؛ فيمتنع أن يحدث غيره فضلاً عن أن يحدث نفسه؛ فقولكم: لم يكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب تعليل باطل؛ فإن علمنا بأن حدوثها لم يكن من ذواتها ليس لأجل ما فيها من التضاد والتقلب بل سواء كانت متماثلة أو مختلفة أو متضادة نحن نعلم بصريح العقل أن المحدث لا يحدث نفسه، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل، كما يعلم أن العدم لا يخلق موجوداً، وأن المحدث للحوادث الموجودة لا يكون معدوماً"[١]. "وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى؛ فقال لهم: دعوني؛ فإني مفكر في أمر قد أُخبرت عنه: ذكروا لي سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد! فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال: ويحكم، هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه. وعن الشافعي رحمه الله تعالى أنه سئل عن وجود الخالق عز وجل؛ فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك، وهو شيء واحد"[٢].

ومن الحجج العقلية التي تثبت ربوبية الله عز وجل ما استدل بها إبراهيم عليه السلام من السنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ليرد بها على حجة النمرود. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

---

(١) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) انظر: معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١١٠-١١٢.

وقال الله تعالى في القرآن الكريم الذي جاء به الرسول -ﷺ-: (أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾)[الطور: ٣٥].

ثالثاً: دلالة المخلوقات على الخالق سبحانه وتعالى:

لقد خلق الله تبارك وتعالى الخلق، وأودع فيه من الأسرار والآيات ما لا يدع مجالاً للشك في أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً هو الله سبحانه وتعالى. يقول تبارك وتعالى حاكياً قول رسله عليهم السلام لأقوامهم: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)[إبراهيم: ١٠]. ولقد قال موسى عليه السلام -لفرعون وملئه معرفاً لهم الرب تعالى عندما جحده فرعون-: (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾)[طه: ٥٣-٥٥]. كما أخبره بأن الخلق والهداية كلها بيد الله تعالى. قال سبحانه: (﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾)[طه: ٥٠]. كما أخبره أنه تبارك وتعالى علمه شامل وله الكمال المطلق. قال تعالى: (قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾) [طه: ٥١-٥٢].

فالنظر في ملكوت السماوات والأرض أحد أهم الطرق التي تدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وأنه وحده المتفرد بالربوبية دون سواه.

والقرآن الكريم مليء بالآيات الكونية الدالة على كمال ربوبيته سبحانه. وقد تقدم معنا مناقشة هذا الدليل في المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الأول.

رابعاً: الأدلة الواقعية المحسوسة:

ومن الأدلة الواقعية التي أكدت وجود الخالق تبارك وتعالى:

أ- إجابته للدعاء وإغاثته للمكروب:

فهذا من أدل الأدلة على وجود الله تبارك وتعالى؛ فما من نبي دعا الله عز وجل إلا استجاب الله تبارك وتعالى دعاءه، كما جاء ذلك في القرآن الكريم، فقال تعالى عن سيدنا نوح ﷺ عندما دعا الله أن ينجيه من ظلم قومه له: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾[الأنبياء: ٧٦]. ونلاحظ هنا أن الإجابة جاءت مباشرة بعد الدعاء.

وسيدنا شعيب ﷺ دعا الله عز وجل بقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[الأعراف: ٨٩]. فاستجاب الله تبارك وتعالى دعاءه. قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[الأعراف: ٩١-٩٢].

وسيدنا أيوب ﷺ ينهكه المرض ويشتد عليه؛ فيدعو ربه أن يعافيه ويشافيه. قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأنبياء: ٨٣-٨٤].

وسيدنا يونس ﷺ عندما كان في بطن الحوت في حالة صعبة جداً دعا الله عز وجل فاستجاب دعاءه. قال تبارك وتعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء: ٨٧-٨٨]. وأما سيدنا زكريا عليه السلام فقد كان يريد من الله تبارك وتعالى ولداً تقر به عينه؛ فدعا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء: ٨٩-٩٠]. ولقد استجاب الله عز وجل له الدعاء على الرغم من كبر سنه عليه السلام.

وفي قصة سيدنا محمد -ﷺ- في غزوة بدر عندما استغاث الله عز وجل. قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: ٩].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "أصابت الناس سنة على عهد النبي -ﷺ- فبينا النبي -ﷺ- يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال، وجاع العيال؛ فادع الله لنا. فرفع يديه وما نرى في السماء قَزَعَة، فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته -ﷺ-، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي أو قال غيره فقال: يا رسول الله، تهدم البناء، وغرق المال؛ فادع الله لنا. فرفع يديه، فقال: اللهم حوالينا ولا علينا. فما يشير بيده إلى ناحية من

السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجَوْبَة، وسال الوادي -وادي قناة- شهراً، و لم يجئ أحد من ناحية إلا حدث بالجود"(١).

ب- النظر في مهلك الأمم السابقة:

إن من نظر في القرون الماضية، وما حل بها من الهلاك، وما صنع الله عز وجل بالمكذبين منهم، وبمن طغى وتجبر وأفسد في الأرض بعد أن أصلحها الله عز وجل؛ وجد الدليل الواضح على وجود الله تبارك وتعالى، وكمال قدرته عز وجل، وقد نبه الله تعالى في آيات كثيرة إلى النظر في ذلك؛ فقد ختم الآيات التي تحدثت عن هلاك الأقوام السابقة بالنظر والاعتبار، فقال تبارك تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾) [آل عمران: ١٣٧]. وقال تعالى: (قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾) [الأنعام: ١١]. وقال تعالى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾) [الأعراف: ٨٤]. وقال تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾)[الأعراف: ١٠٣]. وقال تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾) [يونس: ٣٩]. وقال تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾)[يونس: ٧٣]. وقال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ

(١) البخاري، ك: الجمعة، ب: الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، ج: ١، ص: ٣١٥، رقم الحديث: (٨٩١).

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾)[النحل: ٣٦]وقال تعالى: (أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾)[الحج: ٤٦]وقال تعالى: (فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴿٥١﴾)[النمل: ٥١]. وقال تعالى: (قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴿٦٩﴾)[النمل: ٦٩]. وقال تعالى: (قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾)[الروم: ٤٢]. وغير ذلك في القرآن كثير.

ج- المعجزات النبوية:

لقد أيد الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام بمعجزات، وهي أمور خارقة للقوانين الكونية، أجراها الله عز وجل تأييداً لرسله فيما جاؤوا به ونصراً لهم. وهي من أعظم الأدلة على وجود الخالق تبارك وتعالى؛ إذ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل ما أتى به الرسل عليهم السلام على الرغم من أن المعجزات جاءت فيما برع فيه أقوام الرسل عليهم السلام.

يقول ابن القيم: "وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها؛ فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه: (آيات بينات). وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها؛ فإن انقلاب عصا تقلها اليد ثعباناً عظيماً يبتلع ما يمر به ثم يعود عصا كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات...

وكذلك سائر آيات الأنبياء؛ فإخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم انصدعت عنها والناس حولها ينظرون، وكذلك تصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائراً ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس، وكذلك إيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين بحيث يراه الحاضر والغائب فيخبر به كما رآه الحاضرون، وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله"[١].

فجميع الآيات والمعجزات التي أيد الله بها رسله ونصرهم بها وتحدى بها من خالفهم دليل قاطع على وجود الباري تعالى.

والخلاصة من كل ما سبق أن من أنكر وجود الله تعالى ما هو إلا مكابر معاند، وأن وجود الله عز وجل ثابت بدليل الفطرة والعقل والآيات الكونية والأدلة الواقعية المحسوسة.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١١٩٧-١١٩٨.

المطلب الثاني

شبهة المدعين لشيء من خصائص الربوبية

إن الأمم جميعها مقرة بوجود الخالق الرازق المدبر للكون المحيي المميت، وإن كان هناك من أنكر ذلك مكابرة ومعاندة، فدعا لنفسه شيئاً من خصائص الربوبية كالقدرة على الإحياء والإماتة كما حصل من النمرود عندما حاجه إبراهيم عليه السلام. قال تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾[البقرة: ٢٥٨]. والإحياء والإماتة من خصائص الربوبية التي اختص به الله عز وجل وحده دون من سواه.

وكما حصل من قوم هود عليه السلام عندما كذبوه وأنكروا قدرة الله عز وجل على إهلاكهم. قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾[فصلت: ١٥]. ولقد اعتمدوا في شبهتهم هذه على التكبر والعناد والتجبر والعتو في الأرض بغير ما أذن الله عز وجل؛ فاغتروا بما وهبهم الله عز وجل من القوة في الأجسام، حتى إنه بلغ من قوتهم أن ينحتوا من الجبال بيوتاً؛ فقد "كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده"[(١)].

---

(١) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٨٦. وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٨؛ تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١١١.

نقض هذه الشبهة بالأسلوب العقلي:

لقد أبطل الخليل إبراهيم عليه السلام ادعاء النمرود للربوبية بدليل عقلي، بين فيه قلة عقله، وكثرة جهلة، جاء ذلك في قوله تعالى: (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ) [البقرة: ٢٥٨]. قال ابن كثير في تفسير الآية: " أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب. فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة"[1].

فبين الخليل عليه السلام ضلاله وجهله وقلة علمه فيما ادعاه كذباً وزوراً، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه بل انقطعت حجته. قال تعالى: (فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾) [البقرة: ٢٥٨].

كما أن الله تعالى نقض شبهة قوم هود بدليل عقلي يتمثل في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾} [فصلت: ١٥]. "فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوي على ما لا يقدر عليه غيره عز وجل مفيض للقوة والقدر على كل قوي وقادر، وفي هذا إيماء إلى أن ما خوفهم به الرسل ليس من عند أنفسهم بناء على قوة منهم وإنما هو من الله تعالى خالق القوى والقدر وهم يعلمون أنه عز وجل أشد قوة منهم"[2]. وقال ابن

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع السابق، ج: ١، ص: ٣١٤.

(٢) الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني، (دار إحياء التراث-بيروت-) ج:٢٤، ص: ١١٢.

كثير: "أي فما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؛ فإنه العظيم الـذي خلـق الأشـياء وركـب فيهـا قواهـا الحاملة لها وإن بطشه شديد"(١). وهو ما يشار له بـ(قيـاس الأولى) الـذي مفـاده: "إن كـل كمـال ثبـت للممكن أو المحدَث لا نقص فيه بوجه من الوجوه -وهو ما كان كمالاً للموجود غـير مسـتلزم للعـدم- فالواجب القديم أولى به، وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبـت نوعـه للمخلـوق المربـوب... فإنما استفاده من خالقه وربه ومدبره؛ فهو أحق به منه(٢)".

"فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا، فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً لم يغتروا بقـوتهم فعـاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها"(٣)؛ "فجاءتهم ريح صرصر بـاردة شـديدة الـبرد عاتيـة شـديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها علـيهم وتقـتلعهم مـن الأرض فترفـع الرجـل مـنهم مـن الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه علـى أم رأسـه فتشـدخه فيبقـى بـدناً بـلا رأس كـأنهم أعجـاز نخـل منقعر"(٤).

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٩٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٠.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧٤٦.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤١٤.

المبحث الثاني

موقف الكفار من الألوهية والرد عليهم

تمهيـــد:

إن الله عز وجل خلق الخلق لغاية عظيمة وهي عبادته وحده وترك عبادة من سواه، فهو القائل سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات٥٦]. ومع هذا نازع الناس في هذا الأمر في حين كانوا مقرين بربوبيته سبحانه وتعالى وهو الاعتراف بأنه سبحانه وتعالى الخالق الرازق المحيي المميت المنزل للغيث المدبر لهذا الكون، فلم تقع عداوة وخصومة بين الرسل وأقوامهم في ربوبيته عز وجل، وإنما جاء الرسل والأنبياء عليهم السلام من عند الله تعالى ليقولوا لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[هود: ٦١].

وقد بقي الناس بعد آدم قرابة فترة من الزمن يعبدون الله عز وجل حتى اجتالتهم الشياطين من عبادة الله إلى عبادة غير الله عز وجل، وقد كان الشرك أول ما وقع في قوم نوح ﷺ وذلك بسبب تعظيم الصالحين والأولياء، وهكذا زين لهم الشيطان ولمن بعدهم ممن عبد غير الله عز وجل أو صرف له شيئاً من أنواع العبادة من دعاء أو استعانة أو خوف أو رجاء أو ذبح أو نذر... وغير ذلك من أنواع العبادة التي لا يستحقها إلا الله عز وجل.

وهكذا عادة الأمم، تموت أجيال وتأتي أخرى فتنسى الغرض الأساسي الذي من أجله خلقوا فتنشأ البدع وتنصب التماثيل وتعبد الآلهة من دون الله عز وجل، ويرسل الله الرسل وتقوم الحجج وتدفع الشبه ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

وسوف أتناول في هذا المبحث -بإذن الله تعالى- ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى توحيد الألوهية وأهميته.

المطلب الثاني: موقف أهل الكتاب من الألوهية.

المطلب الثالث: موقف المشركين من الألوهية.

المطلب الأول

معنى توحيد الألوهية وأهميته

***معنى توحيد الألوهية:**

التوحيد: مصدر وحَّد، يوحد، توحيداً، ومعناه: التفرد، والانفراد[١]. والتوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو التوحد والوحدانية[٢].

الألوهية في اللغة: مأخوذة من آله، إلاهةً وألوهة، وهي العبادة، والجمع آلهة، والإله كل ما عبد بحق وهو الله عز وجل، أو بغير حق كالأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله عز وجل[٣].

وقيل مأخوذة من "إلاهٍ، وتقديرها: فُعلانية بالضم. تقول إلاه بين الإلأهية والألهانية، وأصله من أله يأله إذا تحير، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله... وصرف همه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد[٤]".

الألوهية في الاصطلاح:

هو إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، والعبادة هي "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[٥]. فلا يستعان إلا بالله، ولا يستغاث إلا بالله، ولا يدعى إلا الله، ولا يرجى إلا الله، ولا يذبح إلا لله، ولا ينذر إلا له سبحانه... وغير ذلك.

---

(١) انظر: لسان العرب، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٥٠ مادة (وحد).

(٢) الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: د/مهدي المخزومي ود/إبراهيم السامرائي(دار ومكتبة الهلال) ج: ٣، ص: ٢٨١.

(٣) لسان العرب، مرجع سابق، ج: ١٣، ص: ٤٦٧ وما بعدها (مادة أله). وانظر: الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص: ١٦٠٣.

(٤) أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي-محمود محمد الطناحي (المكتبة العلمية-بيروت-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) ج: ١، ص: ٦٢. لسان العرب، مرجع سابق، ج: ١٣، ص: ٤٦٩.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ١٤٩. وانظرج: ١٤، ص: ٣٧٨-٣٨٠. وانظر: ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الفتاوى الكبرى، تحقيق: حسنين محمد مخلوف(دار المعرفة-بيروت- ط/١، ١٣٨٦هـ) ج: ٢، ص: ٣٦١.

"فهو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحداً يعبده ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالى ويتقرب إليه[(١)]".

وتوحيد الألوهية، هو توحيد الطلب، وتوحيد القصد والإرادة، وهو التوحيد العملي الذي بينه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾[الكافرون: ١-٣].

*** أهمية توحيد الألوهية:**

لقد أرسل الله رسله عليهم السلام من لدن نوح إلى محمد -ﷺ- مبشرين ومنذرين؛ فكل رسول بعث إلى قومه دعاهم إلى توحيد الله عز وجل وعدم إشراك غيره معه جل في علاه، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وهود عليه السلام قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وصالح عليه السلام قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[الأعراف: ٧٣].

وشعيب عليه السلام قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا

---

(١) فتاوى مهمة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨.

تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾)

[الأعراف: ٨٥].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام دعوا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه. قال تعالى مخبراً عن ذلك: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾) [الأنبياء: ٢٥].

ومما يدل على أهميته أنه لأجله وقعت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم، ولأجله أنزل الله الكتب على أنبيائه، ومن أجله قاتل الأنبياء أهل الشرك والجحود، ومن أجله خلق الله الجنة والنار، ونصب الميزان، وهو أول ما يخاطب به العباد من أمور الدين، فإن العباد وإن أقروا بأن الله الخالق الرازق المدبر للكون فلن يقبل منهم حتى يوحدوه سبحانه وتعالى ويفردوه بالعبادة دون من سواه.

ولقد بين الله تعالى في كتابه الكريم اعتراف الكفار بربوبية الله تعالى مع عدم إقرارهم بألوهيته. قال تعالى: (قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾) [يونس: ٣١-٣٢]. ومع هذا لم ينفعهم إقرارهم هذا حتى يوحدوا الله عز وجل.

ومما يدل على أهميته أيضاً أن قبول أعمال العباد متوقف عليه. قال تعالى: (لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ)[الزمر:٦٥]. وقال تعالى: (وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾)[الأنعام: ٨٨]. كما

أن جميع أنواع التوحيد داخلة فيه؛ فمن أقر بألوهية الله تعالى فقد أقر لله عز وجل بالربوبية وبالأسماء والصفات.

والقرآن الكريم كله في الدعوة إلى التوحيد، وما يترتب عليه من حقوق، ومن ثواب، وفي أهل الشرك والضلال والاعراض، وجزائهم.

قال شيخ الإسلام مبيناً أهمية هذا التوحيد: "واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس عليه، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة.

فإن حقيقةَ العبدِ قلبُه وروحُه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن بالدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذّاتٌ أو سرورٌ بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ غير منعمٍ ولا ملتذٍّ له، بل قد يؤذيه اتصالُه به، ووجوده عنده، ويضره ذلك.

وأما إلهه فلابد له منه في كل حال، وكل وقت، وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾[الأنعام: ٧٦]. وكان أعظم آية في القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥]"[1].

"وهذا الأصل أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها، وأفضلها، وأوجبها، وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجنَّ والإنسَ لأجله، وخلق المخلوقات، وشرع الشرائعَ لقيامه، وبوجوده

---

(١) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٤-٢٥.

يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين"[1].

ومن هذا كله تتضح أهمية توحيد الألوهية الذي هو أصل الأصول كلها فهو الواجب شرعاً وعقلاً وفطرة.

(١) انظر: السعدي: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن، (دار العصيمي-الرياض-ط/ ١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م)، ص:٢١-٢٢.

المطلب الثاني

موقف أهل الكتاب من الألوهية

تمهيد:

من المعلوم أن اليهود والنصارى يكفرون بالدين الحق الذي أنزله الله تعالى في التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله عز وجل على موسى وعيسى عليهما السلام، وهو التوحيد الذي أنزله الله تعالى على أنبيائه من لدن نوح عليه السلام إلى محمد -صلى الله عليه وسلم-، والدليل على ذلك واضح بدليل الكتاب والسنة. قال تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾) [آل عمران: ٦٤-٦٨]. فهذه الآيات واضحة في أن اليهود والنصارى مشركون على الرغم من تسمية الله عز وجل لهم بأهل الكتاب، كما أن الله تبارك وتعالى نفى عنهم التوحيد، حينما وضح أنهم ليسوا على دين إبراهيم عليه السلام، وأثبت لهم الشرك.

ثم إن أهل الكتاب لم يكتفوا بالكفر بدين الله الحق حتى حاولوا صد الناس عنه وذلك من خلال بعض الشبه الواهية التي لا تقوم على دليل ولا برهان حتى يزينوا للناس معتقداتهم الباطلة فيتبعوهم، ولكن الله رد عليهم ودَحَضَ حجتهم وأظهر الحق ولو كره الكافرون.

وسوف أتناول في هذا المطلب أبرز مواقف أهل الكتاب والرد عليهم:

الموقف الأولى: نسبة الولد لله تعالى:

لقد افترى اليهود والنصارى على الله فرية عظيمة وذلك بأن زعموا أن لله ولداً؛ فقال الله تعالى عن اليهود: (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ)[التوبة:٣٠]. و"الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: ومطعماه وكاسياه! فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله. قال: فإن الله حي لا يموت. قالت: يا عزير، فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت: فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به، ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين؛ فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به؛ فإذا الشيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة. فقالوا: يا عزير ما كنت كذاباً. فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها، فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً. فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٤٩.

ولأن عزيراً "هو الذي أوجد توراة موسى بعد أن ضاعت، فبسبب ذلك وبسبب إعادته بناء (الهيكل) –على حد زعم اليهود– سمي عزرا ابن الله"[١].

"وهذا قاله طائفة من اليهود وهو معروف عن شخص يقال له فنحاص بن عازورا وأتباعه. قال أبو محمد بن حزم: والصدوقية طائفة من اليهود نسبوا إلى رجل يقال له صدوق وهم يقولون من بين سائر اليهود: إن العزير ابن الله، وكانوا بجهة اليمن[٢]".

وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، كما زعموا أنه الله، وأن الله ثالث ثلاثة. وقد كذبهم الله تعالى في كتابه الكريم وبين أن أقوالهم هذه كلها كفر، فقال تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾)[المائدة: ١٧]. وقال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾)[المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: (وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) [التوبة: ٣٠].

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، مرجع سابق،ج: ١ ص: ٥٧١.

(٢) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٤ ص: ٤٧٥-٤٧٦ .

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[المائدة: ٧٣].

"والنصارى قالت الأقوال الثلاثة فذكر الله عنهم هذه الأقوال، لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم وهذا قول طائفة منهم، كما ذكره طائفة من المفسرين كابن جرير الطبري وغيره، .... والصواب أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة الملكية[١] واليعقوبية[٢]والنسطورية[٣]؛ فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة الأب والابن وروح القدس؛ فتقول عن الله ثالث ثلاثة، وتقول عن المسيح إنه الله، وتقول أنه ابن الله. وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت. وأن المتحد هو الكلمة، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك وهو قولهم: نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السماوات والأرض كل ما يرى وما لا يرى وبرب

---

(١) هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية،قالوا : إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته،ويعنون بالكلمة : أقنوم العلم،ويعنون بروح القدس : أقنوم الحياة،ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا بل المسيح مع ما تدرع به ابن،فقال بعضهم : إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.وصرحت الملكانية أن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث ،وأخبر عنهم القرآن : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ،وقالت الملكانية : إن المسيح ناسوت كلي لا جزئي وهو قديم أزلي من قديم أزلي وقد ولدت مريم عليها السلام إلها أزليا والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معا."انظر: الملل والنحل، ج : ١ ص : ٢٢٢ وما بعدها".

(٢) هم أصحاب يعقوب،قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا : انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده بل هو هو وعنهم أخبرنا القرآن الكريم : (لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ) [المائدة: ٧٢]."انظر: الملل والنحل، ج : ١ ص : ٢٢٥وما بعدها"

(٣) هم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ،وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة .قال : إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ،وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هوواتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج، كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم."انظر: الملل والنحل، ج :١ ص : ٢٢٤ وما بعدها".

واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق"[١].

* **الرد عليهم:**

أولاً: الدليل النقلي:

أ- أن الله تعالى نفى أن يكون له ولد. قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]. يقول القرطبي: "قال ابن عباس لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير، وهو رد على النصارى وعلى من قال عزير ابن الله ولم يكن له كفواً أحد"[٢]. وعن أبي سعيد الخدري قال: "قلنا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟ قلنا: لا. قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما. ثم قال: ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون. فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا. فيتساقطون في جهنم... الحديث"[٣]. فدل الحديث على بطلان دعواهم أن لله ولداً.

ب- أن عيسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام لم يدعوا إلى عبادة أنفسهم، وإنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك، وأقروا له بالعبودية. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ

---

(١) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١١-١٣.

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٢٠، ص: ٢٤٦، وانظر: التفسير الكبير، مرجع سابق، ج :٣٢ ص : ١٦١.

(٣) البخاري، ب: قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القيامة:٢٢]، طرف من حديث أبي سعيد الخدري، ج: ٦، ص: ٢٧٠٦. رقم الحديث (٧٠٠١).

لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾) [المائدة: ١١٦].

فنفى عيسى ﷺ أن يكون طلب أمراً لا يستحقه إلا الله عز وجل، ولو كان فعل ذلك لعاقبه الله عز وجل لعلمه أن الله علام الغيوب. وقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ)[الصف: ٦]. فبين لهم عيسى ﷺ أنه مجرد رسول من عند الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة ولو كان يدعو لعبادته لم يقل: إني رسول الله. كما أن عيسى ﷺ أول ما نطق به عندما جاءت به أمه تحمله وأشارت إليه عندما سألها القوم هي العبودية لله عز وجل فقال: (إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾)[مريم: ٣٠]. ولقد سمعوا منه هذه المقالة. وقال تعالى: (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾)[النساء: ١٧٢]. "فالملائكة مع كمالهم في صفة القدرة والقوة في صفة العلم والحكمة لما لم يستنكفوا عن عبودية الله فكيف يمكن أن يستنكف المسيح مع ضعف بشريته عن عبودية الله"[١].

ج- إن الله عز وجل وضح أصل خلق عيسى ﷺ وأنه كغيره من البشر. قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾) [آل عمران:٥٩]. يقول ابن كثير: "فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز أدعاء

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١١، ص: ٤٨، وانظر: تفسير النسفي، مرجع سابق، ج : ١ ص : ٢٦٤.

البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل؛ فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً[١]". وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]؛ "فدل بقوله عيسى ابن مريم على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً؟! وحق الإله أن يكون قديماً لا محدثاً"[٢]. كما بين الله أن عيسى عليه السلام "هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه قال له كن فكان ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى عليه السلام إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل "[٣]. فبين الله أن عيسى عليه السلام خلق من خلقه قال له كن فكان.

د- إن الله عز وجل نسب عيسى عليه السلام إلى أمه "وهذا قد جرى في القرآن في غير موضع فنسبه إلى أمه لينفي نسبته إلى غيرها فلا ينسب إلى الله تعالى أنه ابنه[٤]". قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧]. وغير ذلك في القرآن كثير.

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٦٨، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج : ١ ص :١٣٣.

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٢٢.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٩١.

(٤) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تلخيص كتاب الاستغاثة، تحقيق: محمد علي عجال،(مكتبة الغرباء الأثرية -المدينة المنورة- ط/١، ١٤١٧هـ)، ج : ٢ ص : ٤٦٠.

ثانياً: الدليل العقلي:

أ- أن عيسى عليه السلام وعزير كغيرهم من البشر يأكلون الطعام؛ فمن كان كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد. قال الله عن عيسى عليه السلام وأمه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة: ٧٥]. "وقد تضمنت هذه الآية دليلين ببطلان إلهية المسيح وأمه؛ أحدهما: حاجتهما إلى الطعام والشراب وضعف بنيتهما عن القيام بنفسهما بل هي محتاجة فيما يقيمها إلى الغذاء والشراب، والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً؛ إذ من لوازم الإله أن يكون غنياً. الثاني: أن الذي يأكل الطعام يكون منه ما يكون من الإنسان من الفضلات القذرة التي يستحي الإنسان من نفسه وغيره حال انفصالها عنه، بل يستحي من التصريح بذكرها. ولهذا والله أعلم كنى سبحانه عنها بلازمها من أكل الطعام الذي ينتقل الذهن منه إلى ما يلزمه من هذه الفضلة؛ فكيف يليق بالرب سبحانه أن يتخذ صاحبة وولداً من هذا الجنس، ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقذرة التي يستحي منها ويرغب عن ذكرها[١]".

ب- أن كل من لا يملك لنفسه نفعاً ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضراً دليل على عدم صلاحيته لأنْ يكون إلهاً يرجى منه جلب نفع ودفع ضر. قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧]. يقول الإمام السعدي: "فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ولا

(١) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢ ص: ٤٨٢-٤٨٣.

قدرة لهم على ذلك؛ دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ولا في قوته شيء من الفكاك. ومن الأدلة أن (لِلَّهِ) وحده (لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا) [الزخرف:٨٥] يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون؛ فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟! هذا من أعظم المحال[١]". "فاحتج بذلك على فساد عقولهم وتقريره أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية[٢]".

*** الموقف الثاني: مزاعم اليهود والنصارى في تفضيل الله ومحبته لهم:**

لقد زعم اليهود والنصارى أن الدار الآخرة خالصة لهم، كما قال تعالى: (قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾) [البقرة:٩٤]. كما زعموا أيضاً أنهم أبناء الله وأحباؤه. قال تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾) [المائدة: ١٨]. قال الطبري: "فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولداً من ولدك أدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فأخرجهم، فذلك قوله: (لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ)[آل عمران: ٢٤] [٣]". وقال القرطبي: "زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل عليه السلام أن ولدك بكري من الولد... والنصارى قالت: نحن أبناء الله؛ لأن

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٠٨.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ١٦٤.

في الإنجيل حكاية عن عيسى: (أذهب إلى أبي وأبيكم). وقيل: المعنى: نحن أبناء رسل الله؛ فهو على حذف مضاف. وبالجملة فإنهم رأوا لأنفسهم فضلاً[(١)]". ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً أو نصرانياً. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة: ١١١]. كما زعموا أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠].

وقد ردّ الله عز وجل عليهم، ويتضح ذلك من خلال الآيات القرآنية التالية:

١- قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾[البقرة: ٩٤]. "أي فأريدوه أو اسالوه؛ لأن من علم أن الجنة مأواه حن إليها، ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت؛ فاستعجلوه بالتمني"[(٢)]. "فإن كنتم محقين فتمنوا الموت؛ فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله في جنانه، إن كان الأمر كما تزعمون أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا[(٣)]". وقد نفى الله عز وجل أن يتمنوه أبداً. قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[البقرة: ٩٥]. قال ابن كثير: "أي على طول العمر لما

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ١٢٠.
(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٩٥.
(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٢٤.

يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؛ فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم[١]". وقال السعدي: "من الكفر والمعاصي؛ لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة؛ فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب[٢]". وقوله تعالى: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾) [الجمعة: ٦-٧] "أي إن كان قولكم حقاً، وكنتم على ثقة؛ فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدها لأوليائه"[٣]. فبين تعالى أنهم لن يتمنوه أبداً وذلك "بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور[٤]".

٢- قوله تعالى: (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾)[المائدة: ١٨]. "فإن صح ما زعمتم فلأي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد عرفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أياماً بعدد أيام عبادتكم العجل، ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع"[٥]. يقول الإمام الطبري: "يقول الله تبارك وتعالى: فلأي شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه فإن الحبيب لا يعذب حبيبه وأنتم مقرون أنه

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢٩.
(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٠.
(٣) تفسير النسفي، ج: ٤، ص: ٢٤٥.
(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٦٥؛ البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٣٣٨.
(٥) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢١.

معذبكم، وذلك أن اليهود قالت: إن الله معذبنا أربعين يوماً عدد الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم يخرجنا جميعاً منها. فقال الله لمحمد -ﷺ-: قل لهم: إن كنتم كما تقولون أبناء الله وأحباؤه فلم يعذبكم بذنوبكم؟! يعلمهم عز ذكره أنهم أهل فرية وكذب على الله جل وعز"[١]. كما أن الله عز وجل أوضح أنهم مجرد بشر "تجري عليكم أحكام العدل والفضل (يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ) إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب[٢]". فلا مزية لهم على سائر الخلق؛ فهم كغيرهم من بني آدم، كما أنهم داخلون في ملك الله تعالى كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٨)[المائدة: ١٨]. "فمن كان ملكه هكذا وقدرته هكذا فكيف يستحق البشر الضعيف عليه حقاً واجباً؟! وكيف يملك الإنسان الجاهل بعبادته الناقصة ومعرفته القليلة عليه ديناً؟! إنها كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا[٣]". قال السعدي: "فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة فيجازيكم بأعمالكم"[٤]. وقال صاحب "روح المعاني": "أي كل ذلك له تعالى لا ينتمي إليه سبحانه شيء منه إلا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيه كيف يشاء؛ إيجاداً وإعداماً، إحياء وإماتة، إثابة وتعذيباً، فأنى لهؤلاء ادعاء ما زعموا؟! وربما يقال: إن هذا مع ما تقدم رد لكونهم أبناء الله تعالى بمعنى أشياع بنيه؛ فنفى أولاً كونهم أشياعاً، وثانياً وجود بنين له عز شأنه[٥]".

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ١٦٥.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٧.

(٣) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١١، ص: ١٥٣.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٧.

(٥) روح المعاني، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ١٠٣.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة: ١١١]؛ " أي أحضروا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين في دعواكم. هذا ما يقتضيه المقام بحسب النظر الجليل، والذي يستدعيه إعجاز التنزيل؛ أن يحمل الأمر التبكيتي على طلب البرهان على أصل الدخول الذي يتضمنه دعوى الاختصاص به[١]". قال السعدي: "وهذا مجرد أماني غير مقبولة إلا بحجة وبرهان فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا فلو قلبت عليه دعواه وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان لكان لا فرق بينهما؛ فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان علم كذبهم بتلك الدعوى"[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[البقرة: ٨٠]. "أي: لم يتقدم لكم مع الله عهداً بهذا، ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم إخلاف العهد[٣]". "فأخبر تعالى أنَّ صدق دعواهم متوقف على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما؛ إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً فتكون دعواهم صحيحة، وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون كاذبة فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولنكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق؛ فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٤٧.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٢-٦٣.

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٥.

القبيحات[١]". ثم أتْبَعَ اللهُ عز وجل ذلك بقوله تعالى: (بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾)[البقرة: ٨١].

*** الموقف الثالث: وصف الله عز وجل بالفقر والبخل:**

إن قوماً عبدوا غير الله وأشركوا به غيره في العبادة ونسبوا له النقص بنسبة الولد له؛ ليس غريباً عليهم أن يوصفوه بصفة الفقر والبخل وينسبوا لأنفسهم الغنى. قال تعالى: (لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ)[آل عمران: ١٨١]. "عن ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: (مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ) [البقرة:٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد أفتقر ربك فسأل عباده القرض؟! فأنزل الله: (لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ)"[٢].

كما وصفوا الله عز وجل بأن يده مغلولة. قال تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ)[المائدة: ٦٤]. "عن ابن عباس قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون بخيل؛ يعني أمسك ما عنده بخلاً تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[٣]". "وروي أن اليهود أصابتهم سنة جهد، فقالوا هذه المقالة الشنيعة، وكان الذي قالها فنحاص، ونسبت إلى جملة اليهود لأنهم رضوا بقوله[٤]".

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٣٥. انظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٢١؛ تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٧٩.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٧٦.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج:١، ص:١٨٢؛ الدر المنثور، مرج سابق، ج:٢، ص:٣٩٧؛ تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج:٣، ص:٥٨.

ولقد رد الله عز وجل على قولهم هذا بما يلي:

١- إن الله تعالى له ملك السماوات والأرض؛ فمن كان كذلك فليس بفقير. قال تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾)[آل عمران: ١٨٩]. يقول الإمام الطبري: "وهذا تكذيب من الله جل ثناؤه للذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. يقول تعالى ذكره مكذباً لهم: لله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض؛ فكيف يكون أيها المفترون على الله من كان ملك ذلك له فقيراً؟!"(١).

٢- إن الله عز وجل وصف نفسه بأن يداه مبسوطتان. قال تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ) [المائدة: ٦٤]. قال ابن كثير: "أي بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه في ليلنا ونهارنا وحضرنا وسفرنا وفي جميع أحوالنا، كما قال: (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾) [إبراهيم: ٣٤]. والآيات في هذه كثيرة(٢)".

٣- وصفهم الله عز وجل بالبخل والحسد والجبن والذلة؛ كما قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾)[النساء: ٥٣]. وقال تعالى: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ)[البقرة: ٦١]. وقال تعالى: (أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) [النساء: ٥٤].

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٢٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٧٢.

*** الموقف الرابع: عبادة اليهود للعجل:**

لقد اتخذ اليهود لهم إلهاً من دون الله عز وجل؛ فعبدوه وهو العجل. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾[البقرة: ٥١]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾[البقرة: ٩٢]. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾[طه: ٨٨]. ولقد أبطل الله عز وجل استحقاق العجل للعبادة من دونه سبحانه.

*** نقض الموقف من خلال الآيات القرآنية:**

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩]. "بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل، وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سأله، ولا يملك نفعاً لمن عبده ولا ضراً لمن عصاه. وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزاً عن النفع والضر ورد الجواب، وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع"[(١)]. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨]. "فبين الله تعالى سوء فطرهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ الآية؛ وذلك أن الصامت الجماد لا يتصف بالإلهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غماً كذلك"[(٢)]؛

---

(١) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٨٤.

(٢) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (دار الكتب العلمية–لبنان–١٤١٣هـ–١٩٩٣م)ج: ٢ص: ٤٥٥. انظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٢٧٣.

"فنبه بهذا الدليل على أن من لا يكلم ولا يهدي لا يصلح أن يكون إلهاً، وكذلك قوله في الآية الأخرى عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٩]؛ فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع دليلاً على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم ويملك لعابده الضر والنفع وإلا لم يكن إلهاً[١]"، كما "علم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل[٢]".

والخلاصة من كل ما تقدم أن كل الشبه التي أقامها أهل الكتاب لا تقوم على أي دليل وبرهان، وأي شبه لا تقوم على دليل وبرهان فهي حجة باطلة لا أساس لها.

---

(١) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٩١٤-٩١٥.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٨١.

المطلب الثالث

موقف المشركين من الألوهية

الموقف الأول: أنهم جعلوا لله شركاء:

إن الله عز وجل خلق الخلق لأمر عظيم وهو إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة، الأمر الذي أجمعت عليه الرسل عليهم السلام، ولكن الشرك في ذلك وقع في جميع الأمم السابقة، كما وقع في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، فطائفة قالت بأن للعالم إلهين أحدهما فاعل الخير والآخر فاعل الشر. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ أنها نزلت في "الذين قالوا: إن الله وإبليس أخوان، فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور[١]".

وطائفة عبدوا الأصنام فيقولون الأصنام شركاء لله في العبودية، ولكنهم كانوا معترفين بأن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾[إبراهيم: ٣٠]. "والمراد في الأنداد الأشباه والشركاء. وهذا الشريك يحتمل وجوهاً؛ أحدها: أنهم جعلوا للأصنام حظاً فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا. وثانيها: أنهم شركوا بين الأصنام وبين خالق العالم في العبودية. وثالثها: أنهم كانوا يصرحون بإثبات الشركاء لله وهو قولهم في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك[٢]". "فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين.

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٣، ص٩٢، وانظر: تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج : ٧ ص : ٥٣.

(٢) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٩، ص: ٩٧.

قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦]. قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]... وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء وابتغوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أنداداً. قال الله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الزمر: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[يونس: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥]. ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها ويصوم وينسك لها ويتقرب اليها"[(١)].

---

(١) شرح قصيدة ابن القيم، مرجع سابق،ج: ٢، ص: ٢٦٢.

وكان موقفهم ذلك يرجع إلى عدة أمور:

١ـ الاحتجاج بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم:

إن الكفار عندما دعاهم الرسول -ﷺ- إلى عبادة الله عز وجل وحده وترك عبادة من سواه احتجوا بأنهم ورثوا هذا الأمر عن آبائهم وأجدادهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾[المائدة: ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾[لقمان: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف:٢٣].

فشبهتهم هذه ليس لهم دليل عليها ولا برهان سوى اتباع الآباء والأجداد. قال تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾[الزخرف: ٢٢]. "فلم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم"[١]؛ "فجعلوا أنفسهم مهتدين بمجرد تقليد الآباء من غير حجة[٢]".

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٣.

(٢) زاد المسير، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٣٠٨.

"وفي هذا دليل على إبطال التقليد لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول -ﷺ-"(١)، كما أن التقليد لا يصلح أن يكون حجة يحتج بها الكفار، وإلا لم ينكر الله عز وجل عليهم هذا الاحتجاج، كما أن آباء الكفار الذين اتبعوهم لم يكونوا على هدى حتى يجوز اتباعهم. قال تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[المائدة: ١٠٤]. فنفى الله تبارك وتعالى عنهم العلم والعقل والاهتداء؛ فمن كان كذلك لا يصلح أن يتبع أو أن يقتدى به، ويكون الاقتداء بالآباء محموداً إذا كان الذي اقتدى بهم فيه حق من عند الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يوسف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

٢ـ اتباع الظن:

لقد ذم تعالى في كتابه الكريم كل من بنى شبهته على الظن المنافي للعلم؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[يونس: ٣٦]. "وما يتبع

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ١٦، ص: ٧٥.

أكثرهم -في قولهم للأصنام أنها آلهة- إلا ظناً، والمراد بالأكثر: الجميع[١]". وقال البغوي[٢]: "يقولون: إن الأصنام آلهة، وإنها تشفع لهم في الآخرة؛ ظناً منهم لم يرد به كتاب ولا رسول، وأراد بالأكثر: جميع من يقول ذلك"[٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]. "أي في المعتقدات المواضع التي يريد الإنسان إن يحرر ما يعقل ويعتقد فإنها مواضع حقائق لا تنفع الظنون فيها، وأما في الأحكام وظواهرها فيجزى فيها بالظنونات"[٤]. فمن كان كذلك كانت حجتهم داحضة لعدم وجود برهان عليها.

٣ـطلب الشفاعة والقربى من الله تعالى بواسطة هذه الآلهة:

لقد استند الكفار الذين عبدوا الأصنام أو عبدوا غير ذلك من المعبودات إلى أنها تقربهم إلى الله زلفى؛ فقالوا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ)[الزمر: ٣]. "ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٤٥.

(٢) الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي يعرف بابن الفراء ويلقب محيي السنة وركن الدين أيضا : كان إماما في التفسير إماما في الحديث إماما في الفقه تفقه على القاضي حسين وسمع الحديث منه ومن آبي عمر عبد الواحد المليحي وأبي الحسن الداودي وطائفة روى عن أبو منصور حفدة وأبو الفتوح الطائي وجماعة آخرهم أبو المكارم فضل الله بن محمد النوقاني روى عنه بالإجازة و بقي إلى سنة ستمائة أجاز للفخر علي بن البخاري وله من التصانيف معالم التنزيل في التفسير و شرح السنة والمصابيح و الجمع بين الصحيحين و التهذيب في الفقه، وقد بورك له في تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته وكان لايلقي الدرس إلا على طهارة وكان قانعا ورعا يأكل الخبز وحده ثم عذل في ذلك فصار يأكله مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة وقد جاوز الثمانين و لم يحج. "طبقات للمفسرين للسيوطي ، ج: ١ ص: ٣٨".

(٣) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٥٤

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٢٠٣.

الله عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه"[1]. كما عللوا عبادتهم لهم لأجل أن يكونوا لهم عزاً. قال تعالى: (وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾)[مريم: ٨١]. "ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وصلة إلى الله وشفعاء عنده[2]". ولقد أردف الله قولهم هذا بالرد عليهم بقوله: (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾)[مريم: ٨٢].

ونقض هذا الموقف بالدليل العقلي من وجهين:

الوجه الأول: دليل النقص الحاصل في الأصنام:

إن هذه الآلهة التي عُبدت من دون الله ناقصة لا تملك أي سبب من أسباب الحياة ومقوماتها؛ فهي ميتة لا حياة فيها، كما أنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً، كما أنها لا تملك حياة ولا نشوراً، وهذا النقص الموجود فيها لا تستحق به العبادة من دون الله تعالى. قال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾) [الفرقان:٥٥].

وقال تعالى:(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ)[يونس: ١٨]. وردَّ الله عليهم في دعائهم هذا بقوله تعالى: (قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[يونس: ١٨]. وقد بين الله نقص هذه

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٦.

(٢) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٣؛ البغوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٠٨؛ تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٢٨٠.

الأصنام في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾[الرعد: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾[الإسراء: ٥٦]. وقوله تعالى:﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الفرقان:٣]. وهكذا بين الله عجز هذه الآلهة وأنها لا تستحق العبادة، كما بينه تعالى عندما أبطل عبادة اليهود للعجل عندما بين الله تعالى لهم أن الذي لا يتكلم ولا يستطيع الهداية لا يستحق أن يكون إلهاً. قال تعالى:﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

الوجه الثاني: عجز الآلهة المعبودة من دون الله تبارك وتعالى في الدنيا والآخرة:

أ- إثبات عجز الأصنام في الدنيا:

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾[الرعد: ١٤]. "إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء، والقابض على الماء لا يكون في يده شيء ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع لا يكون بيده شيء(١)"؛ "لأنها جماد لا تشعر بدعائه ولا تقدر على

---

(١) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٢.

إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه[١]". قال السعدي: "كذلك الكفار الذين يدعون مع الله آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء، كما أن من دعوهم فقراء لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير (وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾) لبطلان ما يدعون من دون الله فبطلت عبادتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها. ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين كانت عبادته حقاً متصلة النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة[٢]". وقال تعالى:(قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾)[سبأ: ٢٢]؛ فـ"كلُّ معبود من دون الله لا ينفع عابده، وكلُّ معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له جل وعلا[٣]".

ب- إثبات عجز الأصنام في الآخرة:

إن الشفاعة التي جعلها الكفار سبباً لعبادتهم لهذه الأصنام منتفية يوم القيامة. قال تعالى: (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾)[سبأ: ٢٢-٢٣]. "قيل: لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن الله له أن يشفع فإنه لا يشفع أحد إلا بإذنه. وقيل: لا تنفع الشفاعة إلا لمن

---

(١) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣٢٣.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤١٥.

(٣) انظر: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تحقيق: زهير الشاويش، (المكتب الإسلامي-بيروت-دمشق-عمان-ط/١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م). ص: ١٨٧-١٩٨.

أذن له الله أن يشفع فيه. والمعنى أن الشفاعة على كل وجه لا تكون إلا بإذن الله؛ ففي ذلك رد على المشركين الذين كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله[(١)]". "فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرج منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده أو شريكاً لمالكها أو ظهيراً أو وزيراً ومعاوناً له أو وجيهاً ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت؛ انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده. فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السماوات والأرض. فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق؛ فنفى شركتها له. فيقول المشرك: قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً؛ فقال: (**وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾**). فلم يبق إلا الشفاعة؛ فنفاها عن آلهتهم وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فهو الذي يأذن للشافع. فإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه كما يكون في حق المخلوقين؛ فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له؛ فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما مَن كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغني بذاته عن كل ما سواه فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟!"[(٢)].

فإذا ثبت عدم امتلاكهم للشفاعة التي كان يرجوها هؤلاء الكفار منهم؛ فعندئذٍ تتنكر لهم هذه الآلهة وتتبرأ منهم. قال تعالى: (**إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾**)[البقرة: ١٦٦]. وقال تعالى: (**قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ**

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٤٩.

(٢) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٦١.

أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾)[القصص: ٦٣]. فعند ذلك يتبين لهم أن كل ما بنوه من تلك العبادة ما هو إلا كبيت العنكبوت. قال تعالى: (مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾) [العنكبوت: ٤١]. قال السعدي: "فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة وبيتها من أضعف البيوت فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم، فإن اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم وألقوها عليهم تخلوا هم عنها على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل، فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم ولتبرؤوا منهم ولتولوا الرب القادر الرحيم الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه كفاه مؤونة دينه ودنياه وازداد قوة إلى قوته في قلبه وبدنه وحاله وأعماله، ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه وأنها ليست بشيء بل هي مجرد أسماء سموها وظنون اعتقدوها وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها[1]"

٤ـ الاحتجاج بالقدر على ما هم عليه من الشرك:

لقد احتجوا على إشراكهم بالله تعالى أن الله عز وجل لو أراد أن يمنعهم من الشرك لفعل؛ لأنه قادر على ذلك؛ فهذا دليل على رضاه بإشراكهم. قال سبحانه وتعالى: (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٣١.

هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾)[الأنعام: ١٤٨]. وقال تعالى: (وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) [الزخرف: ٢٠]. وقد رد الله عز وجل عليهم فقال تعالى:(قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾)[الأنعام: ١٤٨]. قال البغوي: "ورد عليهم في هذا لأن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته فإنه مريد لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد[1]". كما طلب الله منهم دليلاً على ذلك "هل عندكم بدعواكم ما تدعون على الله من رضاه بإشراككم في عبادته ما تشركون وتحريمكم من أموالكم ما تحرمون علم يقين من خبر من يقطع خبره العذر أو حجة توجب لنا اليقين من العلم فتخرجوه لنا؟!"[2].

الموقف الثاني: نسبة الولد إلى الله عز وجل:

فقد زعموا بأن الملائكة بنات الله عز وجل. قال تعالى: (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾)[الصافات:١٥١-١٥٢]. "بقولهم: الملائكة بنات الله[3]". وقال تعالى:(وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾)[الكهف: ٤]. وقال تعالى: (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾) [مريم: ٨٨]. وقال تعالى: (وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ

---

(١) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٤٠؛ النسفي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٥١؛ تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٨١.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٧٩.

(٣) تفسير الجلالين، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٩٦.

مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾)[الأنبياء: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾)[الأنعام: ١٠٠]. كما لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا بين الله عز وجل وبين الجن نسباً. قال تعالى: (وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾) [الصافات:١٥٨]. يقول الإمام الطبري: "عن مجاهد: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله. فسأل أبو بكر: من أمهاتهن؟! فقالوا: بنات سروات الجن؛ يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس... وعن قتادة -في قوله (وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗا)-: قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى تزوج إلى الجن فخرج منهما الملائكة..."[(١)].

ونقض هذا الموقف على النحو التالي:

١- وصف الله تبارك وتعالى هذا القول وهذا الافتراء بالقول العظيم. قال تعالى: (أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾)[الإسراء: ٤٠]. يقول الإمام الرازي في تفسير هذه الآية: "إن إثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركباً من الأجزاء والأبعاض وذلك يقدح في كونه قديماً واجب الوجود لذاته، وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام. والثاني: أن بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لأنفسكم وأخس القسمين لله. وهذا أيضاً جهل عظيم[(٢)]". وقال تعالى: (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾) [مريم: ٨٨-٩٠]. فبين تعالى "أن

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٣، ص: ١٠٨.

(٢) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٢٠، ص: ١٧٢.

من هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتت من شدتها أو أن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على من تفوه بها [١]".

٢- انتفاء أن يكون لله صاحبة يستلزم انتفاء أن يكون له ولد. قال تعالى: (بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾) [الأنعام: ١٠١].

"فإن انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة وإن أمكن وجوده بلا والد وانتفاء الأول مما لا ريب فيه لأحد فمن ضرورته انتفاء الثاني أي من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحال أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبة يكون الولد منها[٢]". وقال تعالى: (وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾)[الجن: ٣]. فنزه الجن الله تعالى عن اتخاذ الصاحبة والولد؛ لأن "الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد؛ فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو وقاع شيء يكون منه ولد[٣]".

٣- نفي العلم عمن نسب الولد لله. قال تعالى: (مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾)[الكهف: ٥]. يقول الإمام السعدي: "فإنهم

(١) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٥.

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٦٩.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٩، ص: ١٠٥.

لم يقولوها عن علم ولا يقين لا علم منهم ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس[(١)]".

٤- إن الله عز وجل له ملك السماوات والأرض؛ فمن كان كذلك فهو غني عن اتخاذ الولد. قال تعالى: (قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾)[يونس: ٦٨]. وفي هذه الآية براهين على بطلان ما نسبه الكفار لله عز وجل من اتخاذ الولد "أحدها قوله: (هُوَ ٱلۡغَنِيُّ) أي الغنى منحصر فيه وأنواع الغنى مستغرقة فيه؛ فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه. فإذا كان غنياً من كل وجه؛ فلأي شيء يتخذ الولد؟! أَلِحاجة منه إلى الولد؟! فهذا مناف لغناه؛ فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه. البرهان الثاني: قوله (لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ). وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مماليك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له ولد؛ فإن الولد من جنس والده لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً؛ فملكيته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة. البرهان الثالث: قوله (إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢ بِهَٰذَآ)؛ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولداً؟! فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تحداهم وعجَّزهم على إقامة الدليل علم بطلان ما قالوه[(٢)]". وقال تعالى:(وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ) [البقرة: ١١٦]. يقول الإمام السعدي: "فجميعهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم تصرف المالك بالمماليك وهم

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٧٠.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٦٩، وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج : ٣ ص : ٢٠٨.

قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده مفتقرين إليه وهو غني عنهم فكيف يكون منهم أحد يكون له ولداً والولد لا بد أن يكون من جنس والده لأنه جزء منه؟![1]".

٥- رد الله تبارك وتعالى على زعمهم أن بين الله والجن نسباً بقوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾)[الصافات: ١٥٨] "لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار ويعذبهم بها، ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء في استحقاق العبادة لما عذبهم[2]".

والخلاصة من كل ما متقدم أن الله عز وجل واحد أحد مستحق للعبادة دون ما سواه منزه عن كل نقص وعيب نسبه له الكفار من الولد والند والشريك.

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٤، وانظر: تفسير ابن كثير،مرجع سابق، ج : ١ ص : ١٦١.

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٢٠٩.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط وهي كتالي:

١- إن الإيمان بالله تعالى هو الركن الأول من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان عبد إلا به.

٢- إن توحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، فالبشرية جمعاء مقرة بربوبية سبحانه وتعالى وأن عبدوا غيره.

٣- إن الله عز وجل أقام البراهين المختلفة على وجوده ليدحض حجة من أنكر ذلك من خلال الأدلة الفطرية والأدلة العقلية والآيات الكونية.

٤- إن أهل الكتاب لم يكتفوا بالكفر بدين الله تعالى الحق حتى حاولوا صد الناس عنه وذلك من خلال بعض الشبه الواهية التي لا تقوم على دليل ولا برهان كنسبة الولد له سبحانه، وزعمهم أن الله فضلهم وأحبهم من دون العالمين، ووصفه سبحانه، وتعالى بالبخل والفقر، وجعل الند له تعالى، وقد رد الله عز وجل على هذه الشبه وأبطلها وبين أنها لا تقوم على حجة ولا برهان.

٥- لقد زعم المشركين أن لله شركاء وأنهم إنما عبدوا هؤلاء الشركاء ليقربهم إلى الله زلفى، كما زعموا أن الله تعالى ولد، وقد رد الله عز وجل على هذا كله في كتابه الكريم ووضح أن هذا كله لا دليل عليه وإنما هو من إتباع الظن الذي لا يغني من الحق شيئا.

الفصل الثاني

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الملائكة والرد عليهم

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني: موقف الكفار في الملائكة.

الفصل الثاني

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الملائكة والرد عليهم

تمهيـد:

الملائكة هم عباد الله عز وجل، وهم السفرة بينه وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، خلقهم الله من نور، وجبلهم على طاعته وعبادته، ولا يعلم عددهم إلا الله. قال تعالى:(**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾**)[التحريم: ٦]. وقال تعالى: (**يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾**) [الأنبياء: ٢٠]. ويعد الإيمان بهم أصل من أصول الاعتقاد، والركن الثاني من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، والملائكة عالم غيبي، لا يعلمهم إلا الله، ولذلك امتدح الله المؤمنين على تصديقهم للغيب الذي أخبرهم به عز وجل وأخبرهم به رسوله -ﷺ-، لأن العقل البشري أعجز عن أن يدرك ما يهمه معرفته عن الملائكة، كما أنه لا يستطيع بحواسه أن يرى الملائكة، أو أن يخاطبهم، أو أن يسمع أحاديثهم، ولهذا فإن الإيمان بالملائكة إيمان إخباري، والقرآن الكريم مليء بالنصوص التي تحدثت عن الملائكة، ومن يتأملها يصبح الإيمان عنده بالملائكة جلياً واضحاً. ولقد انتشر منذ القدم القول بأن الملائكة بنات الله، كما انتشر القول بألوهية الملائكة. ومن تأمل النصوص وجد أن هذا مجرد خرافة لا أصل لها. وسوف أتناول في هذا الفصل مبحثين هما:

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني: موقف الكفار في الملائكة.

المبحث الأول

حقيقية الإيمان بالملائكة

جاء في نصوص القرآن الكريم ذكر الملائكة مقترناً بالإيمان بالله تعالى، وبكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خير وشره. قال تعالى:(لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ)[البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾)[البقرة: ٢٨٥].

وفي حديث جبريل المشهور لما سأل رسول الله -ﷺ- عن الإيمان والإسلام والإحسان؛ قال -أي جبريل-: فأخبرني عن الإيمان. قال -أي رسول الله ﷺ-: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره"(١). فهو الركن الثاني من أركان الإيمان الستة التي لا يقبل إيمان عبدٍ إلا بها، فلا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بالملائكة؛ فلو آمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره و لم يؤمن بالملائكة لم يصح إيمانه حتى يأتي بهذا الركن.

ولقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالملائكة، ومن أنكر وجود الملائكة أو وجود بعضهم غير جاهلٍ بذلك فقد كفر، والسبب في ذلك راجع لتكذيبه لما ثبت بالقرآن الكريم والسنة والإجماع، ولقد جمع القرآن الكريم بين الكفر بالملائكة والكفر بالله عز وجل، قال تعالى: (وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ

---

(١) مسلم، ب:الإيمان والإسلام والحسان، طرف من حديث ابن عمر عن أبيه، ج : ١ ص : ٣٦، رقم الحديث(٨)، أخرجه الأمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند عمر بن الخطاب، طرف من حديث عبد الله بن عمر، ج:١ ص:٢٨.صحيح على شرط الشيخين.

وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾) [النساء: ١٣٦]. "وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلا"(١). وقال الطبري: "لأن جحود الشيء من ذلك بمعنى جحوده جميعه؛ وذلك لأنه لا يصح إيمان أحد من الخلق إلا بالإيمان بما أمره الله بالإيمان به والكفر بشيء منه كفر بجميعه(٢)". وقال السعدي: "واعلم أن الكفر بشيء من هذه الأمور المذكورة كالكفر بجميعها لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض(٣)".

والمقصود من الإيمان بالملائكة:

هو الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودة خلقهم من نور، وجبلهم الله عز وجل على طاعته لا يعصونه فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقائمون بما كلفهم الله به من أعمال ووظائف مختلفة، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعلم عددهم إلا الله، فالإيمان بالملائكة يقتضي الإيمان بوجودهم وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف.

والإيمان بالملائكة يكون إجمالاً وتفصيلاً:

أولاً: الإيمان المجمل بالملائكة يتضمن أموراً منها:

أ- الإقرار بأن الملائكة موجودون، وأنهم خلق من خلق الله، خلقهم الله من نور، وخلقهم لطاعته وعبادته، وأن وجودهم حق لا شك فيه، وعدم رؤيتنا لهم لا يدل على أنهم غير موجودين، فكم من المخلوقات في الكون لا نراها ولكن نؤمن بوجودها حقيقة. وقد ثبت في حديث جبريل

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٤٣.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٣٢٦.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٠٩.

المشهور والذي رواه مسلم أن جبريل عليه السلام جاء بصورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة[١]".

ب- إنزال الملائكة منازلهم التي أنزلهم الله إياها، فهم عباد لله تعالى مأمورون وصفهم الله بأنهم مكرمون، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[الأنبياء: ٢٦-٢٩]. وقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[التحريم: ٦]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٩-٥٠]. فلا يقدرون على فعل شيء لم يقدرهم الله عز وجل عليه، فهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً لأنفسهم ولا لغيرهم، فلا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لهم؛ "فإنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركاً وكان جزاؤه جهنم[٢]".

وهذا القدر من الإيمان المجمل بالملائكة واجب على كل مسلم تعلمه واعتقاده، ولا يعذر بجهله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٣٩.

ثانياً: **الإيمان المفصل بالملائكة يتضمن أموراً منها:**

أ- مادة خلق الملائكة وصفاتهم:

خلق الله عز وجل الملائكة من مادة النور، كما خلق الجان من نار، وبني آدم من طين. قال رسول الله -ﷺ-: "خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم"(١).

وقد خلقهم الله عز وجل قبل أن يخلق آدم عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[البقرة: ٣٠]. وجعل لهم القدرة على التمثل بأمثال البشر بإذنه سبحانه وتعالى، فقد ذكر الله في كتابه الكريم أن جبريل عليه السلام جاء مريم عليها السلام على صورة بشر. قال تعالى: ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[مريم: ١٧]. و أيضاً في حديث جبريل المشهور عندما جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة(٢).

كما أن الملائكة عليهم السلام لا يوصفون بالذكورة ولا بالأنوثة؛ فأصل خلق الملائكة مغاير لأصل خلق الإنسان ولأصل خلق الجان، كما أن نوع الملائكة مختلف عن نوع الإنس والجن، فالإنس والجن يتناكحون ويتناسلون، ويوصفون بالذكور والإناث، بينما الملائكة عليهم السلام لا يتناكحون

---

(١) مسلم، ب: أحاديث متفرقة، من حديث عائشة رضي الله عنها، ج: ٤، ص: ٢٢٩٤، رقم الحديث (٢٩٩٦).

(٢) انظر: ص (٢٧٩) من الرسالة.

ولا يتناسلون، ولا يوصفون بالذكور ولا بالإناث. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف:١٩].

كما أخبر الله تعالى عن عِظَم خلق وقوة أجسادهم، وأنه خلق لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[فاطر: ١]. وكما رأى رسول الله -ﷺ- جبريل على صورته له ستمئة جناح وقد سد الأفق.

والملائكة عليهم السلام يموتون كلهم يوم القيامة، ثم يبعثون للقيام بأعمالهم التي وكلهم الله بها. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الزمر: ٦٨].

كما أن الملائكة عليهم السلام يعبدون الله عز وجل بعبادات منها: الصلاة والركوع والسجود والتسبيح والدعاء والمحبة والخشية والخوف وغير ذلك. قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾[الأعراف: ٢٠٦]. قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر:٧]. وقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ

ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾)[الأنبياء: ٢٠]. فهم مستمرون على عبادة الله لا يفترون عنها، ومخلصون لله عز وجل في ذلك، مطيعون له، متواضعون له مع كثرت عبادتهم له.

ب- عدد الملائكة:

لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل لكثرتهم عليهم السلام. قال تعالى:(وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۖ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾)[المدثر: ٣١]. وجاء في الحديث أنه -ﷺ- قال: "أطَّت السماء وحق أن تَئِطَّ، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد وراكع[١]". وقال -ﷺ- عن البيت المعمور: "يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه"[٢]. وقال -ﷺ-: "يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك[٣]".

فسبحان من خلقهم وأحصى عددهم.

ج- أسماء الملائكة:

يجب الإيمان بالملائكة الذين سماهم الله لنا أو سماهم رسوله الكريم -ﷺ- بأسمائهم، والذين سماهم الله لنا هم ثلاثة:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ب: حديث المشايخ عن أبي بن كعب ﷺ، ج: ٥، ص: ١٧٣، رقم الحديث (٢١٥٥٥).

(٢) مسلم، ب: الإسراء برسول الله -ﷺ- إلى السماوات، طرف من حديث أنس بن مالك ﷺ، ج: ١، ص: ١٤٥، رقم الحديث (١٦٢).

(٣) مسلم، ب: في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها، من حديث عبد الله ﷺ، ج: ٤، ص: ٢١٨٤، رقم الحديث (٢٨٤٢).

الأول: جبريل، وهو روح القدس الذي ينزل بالوحي من عند الله تعالى على الرسل عليهم السلام، ويسمى جبرائيل، وقد وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بعدة صفات، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩- ٢١].

فوصفه الله عز وجل في هذه الآية بسبع صفات مدح وهي:

١و٢- رسول كريم: فلقد اصطفى الله عز وجل جبريل بأعظم مهنة فوصفه بأنه رسول "ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه وخصاله الحميدة فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه(١)".

٣- ذو القوة: فوصفه الله تعالى بالقوة على ما أمره به "وكان من قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها، وأنه أبصر إبليس يكلم عيسى على بعض عقاب الأرض المقدسة فنفخه بجناحه نفخة ألقاه إلى أقصى جبل بالهند، وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ويصعد في أسرع من الطرف(٢)".

٤و٥- عند ذي العرش مكين: فهو "ذو مكانة رفيعة عند الله تعالى؛ عندية إكرام وتشريف، لا عندية مكان"(٣).

٦- مطاع: "وله وجاهة، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى. قال قتادة: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ أي في السماوات؛ يعني ليس من أفناء الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة العظيمة"(٤).

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٩١٣.

(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٥٣؛ السمرقندي: نصر بن محمد أحمد أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي، تحقيق: د/محمود مطرجي، (دار الفكر-بيروت-) ج: ٣، ص: ٥٣٠؛ تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٣٠، ص: ٨٠.

(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ١١٨؛ تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٨٠.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٨٠؛ تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤؛ ص: ٤٥٣؛ تفسير الثعالبي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٨٣.

٧- أمين: فقد وصفه الله عز وجل "بالأمانة، وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾[التكوير: ٢٢]" [(١)]؛ فهو"ذو أمانة وقيام بما أمر به لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حد له"[(٢)]؛ فهو أمين على "وحي الله ورسالته إلى أنبيائه[(٣)]".

وقال الله تعالى في شأن جبريل أيضاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٦]. وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢]. وقد وصفه بالروح لأنه ينزل من عند الله تعالى بما فيه حياة للقلوب وهو القرآن الكريم.

ولجبريل عليه السلام وظائف عدة منها:

أ- أنه ينزل بالشرائع السماوية من عند الله تعالى. قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٦].

ب- إن الله عز وجل أيد رسله عليهم السلام بجبريل عليه السلام وكذلك أصحابهم. قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٨١.

(٢) السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٩١٣.

(٣) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٥٣؛ تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٣٠، ص: ٨٠؛ النسفي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٢٠.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾)[التحريم: ٤]. وقال تعالى:(وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ)[البقرة: ٢٥٣]. وعن البراء بن عازب ﷺ أن النبي -ﷺ- قال لحسان بن ثابت: "اهجهم -أي المشركين- وجبريل معك"(١).

الثاني: ميكائيل، وهو من أكابر الملائكة عليهم السلام ويسمى ميكال، وهو موكل على قطر السماء يسوقه حيث يشاء الله عز وجل. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي -ﷺ- قال في جملة من حديث طويل: "قلت: يا جبريل، على أيّ شيء أنت؟ قال: على الرياح والجنود. قلت: على أي شيء ميكائيل؟ فقال: على النبات والقطر"(٢).

الثالث: إسرافيل، وهو من أكابر الملائكة عليهم السلام، وهو المأمور بالنفخ في الصور، والذي ينفخ النفخة الأولى إعلاماً بانتهاء الحياة الدنيا وابتداء الحياة الآخرة؛ فيموت من في السماوات والأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ النفخة الثانية وهي التي تبعث بها الأجساد بعد موتها. قال الله تعالى: (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾) [الزمر: ٦٨].

وأما الملائكة الذين لم يرد ذكر أسمائهم فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، فمثلاً نؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين. قال الله تعالى: (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ

---

(١) البخاري، ب: ذكر الملائكة، ج: ٣، ص: ١١٧٦، رقم الحديث (٣٠٤١).مسلم، ج:٤ ص :١٩٣٣،رقم الحديث(٢٤٨٦).

(٢) الطبري: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، (مكتبة العلوم والحكم-الموصل-ط/٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م) مقسم عن ابن عباس، ج: ١١، ص: ٣٧٩، رقم الحديث (١٢٠٦١).

وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾) [الزخرف: ٨٠]. وقال الله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾) [ق: ١٦-١٨]. وقال الله تعالى: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾) [الانفطار: ٩-١٢]. ونؤمن بالملائكة الموكلة بقبض أرواح العالمين وعلى رأسهم ملك الموت. قال الله تعالى: (وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) [الأنعام: ٦١]. وقال تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾)[السجدة: ١١]. وقال الله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾) [الأنفال: ٥٠-٥١]. وقال تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾) [الأنعام: ٩٣]. ونؤمن بحملة العرش. قال الله تعالى: (ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾) [غافر: ٧-٩].

وقال تعالى: (وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾) [الحاقة: ١٦-١٨].

ونؤمن بالملائكة الموكلين بالنار. قال الله تعالى: (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾)[الزمر: ٧١-٧٢]. ونؤمن بالملائكة الموكلين بالجنان. قال الله تعالى: (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾) [الزمر: ٧٣].

ونؤمن بالملأ الأعلى أو الرفيق الأعلى أو النديُّ الأعلى. قال الله تعالى:(قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٠﴾) [ص: ٦٧-٧٠]. ونؤمن بالملائكة المقربين. قال الله تعالى: (لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ) [النساء: ١٧٢]. ونؤمن بالملائكة الموكلين بحفظ الإنسان. قال الله تعالى:(لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ)[الرعد: ١١]. و غيرهم.

والخلاصة من كل ما تقدم أن الإيمان بالملائكة يكون إيماناً مجملاً ومفصلاً، ومن لم يؤمن بالملائكة عليهم السلام فقد كفر بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

المبحث الثاني

موقف الكفار في الملائكة

الموقف الأول: القول بأنوثة الملائكة:

زعم الكفار أن الملائكة بنات الله وأنهم إناث كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم في عدة مواضع من كتابه الكريم، فقال تعالى: (أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا)[الإسراء: ٤٠]. وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾) [النجم: ٢٧]. وقال تعالى: (فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾)[الصافات: ١٤٩]. وقال تعالى:(وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾)[الزخرف: ١٩]. فجعلوا "أكمل العباد وأكرمهم على الله عز وجل أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً"(١).

*** نقض الموقف من عدة وجوه:**

أولاً: إن الله عز وجل نفى أن يكون هؤلاء شهدوا خلق الملائكة حتى يحكموا عليهم أنهم إناث، فقال تعالى: (أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾)[الزخرف: ١٩]. وقال تعالى: (أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾) [الصافات: ١٥٠]. " أي: أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكموا بأنوثتهم فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة"(٢). قال الطبري: "يعني تعالى ذكره: أم شهد هؤلاء القائلون من المشركين: (الملائكة بنات الله) خلقي الملائكة وأنا أخلقهم

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨،ص: ٤٣. تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٤٢.

(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٣. تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٣٦. تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٤٢.

فشهدوا هذه الشهادة ووصفوا الملائكة بأنها إناث[١]". "وهذا تهكم بهم، يعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فان الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، و لم يشاهدوا خلقهم حتى يخبروا عن المشاهدة [٢]". "وهذا رد على العرب في قولهم إن الملائكة إناث. والمعنى: هم لم يشهدوا خلق الملائكة فكيف يقولون ما ليس لهم به علم"[٣].

كما بين الله تعالى أنهم لم يشهدوا خلق أي شيء. قال تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[الكهف: ٥١]. فدل ذلك على أنهم قالوا ذلك القول بدون علم بل كذباً وافتراءً على الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النجم: ٢٨]. قال السعدي: "فالمشركون إنما يتبعون في ذلك القول القبيح وهو الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة"[٤].

ثانياً: إن شهادة هؤلاء الكفار بذلك الكفر ستكتب عليهم في الدنيا ويسألون عنها في الآخرة، كما قال تعالى في عدة مواضع من كتابه الكريم: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾[الجاثية: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ [يونس: ٢١). وقال تعالى:﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٣، ص: ١٠٦.

(٢) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١١١.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٦.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١٤، ص: ٨٢٠.

وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ) [الإسراء: ١٣]. قال تعالى: (كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾) [مريم: ٧٩]. قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ستكتب شهادة هؤلاء القائلين: (الملائكة بنات الله) في الدنيا بما شهدوا به عليهم، ويسألون عن شهادتهم تلك في الآخرة"(١). فالله عز وجل سوف يسألهم عن هذا الافتراء والكفر، كما قال تعالى في عدة مواضع من كتابه الكريم: (سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾)[الزخرف: ١٩]. وقال تعالى: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾) [العنكبوت: ١٣]. وقال تعالى: (لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾) [الحجر: ٩٢]. وقال تعالى: (تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾) [النحل: ٥٦]. قال ابن كثير: "(وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾)عن ذلك يوم القيامة، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد"(٢).

ثالثاً: إن الله طلب منهم إقامة دليل على دعواهم، كما قال تعالى: (أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾)[الصافات: ١٥٦-١٥٧]. فطلب منهم أن يأتوا "ببرهان على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل بل لا يجوزه العقل بالكلية"(٣). فألزمهم الله تعالى بإقامة الحجة على دعواهم؛ فإنه من يقول قولاً ثم لا يقيم عليه بينة وحجة شرعية فإنه كاذب متعمد الكذب. ولن يستطيعوا إقامة دليل على ذلك.

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٥، ص: ٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٢٦. تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٤٢.

(٣) تفسير ابن كثير مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٤.

وبهذا يتضح بطلان ما وصفوا به الملائكة بأنهم إناث.

* **الموقف الثاني: عداوة الكفار لبعض الملائكة:**

فلقد زعمت اليهود بأن جبريل عليه السلام عدو لهم؛ فنصبوا العداوة له ﷺ، ولا بد لهذه العداوة من سبب، وقد اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله قال اليهود: إن جبريل عدوٌّ لهم:

القول الأول: قال بعضهم: إنما كان سبب قولهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين النبي –ﷺ– واليهود في أمر نبوته؛ فعن ابن عباس أنه قال: "حضرت عصابة من اليهود إلى نبي الله –ﷺ– يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي. قال: سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب عليه السلام على بنيه لئن حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابعنّي على الإسلام. قالوا: فذلك لك. قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؛ كيف يكون الذكر منه؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى –ﷺ– هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ﷺ مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها. قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله؛ إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله. قالوا:

اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؛ فعندها نجامعك أو نفارقك؟ قال: فإن وليي جبريل عليه السلام، و لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه. قالوا: فعندها نفارقك؛ لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك. قال: فما يمنعكم من أن تصدقوه؟ قالوا: إنه عدونا"[1]. وعن ابن عباس قال: "أقبلت يهود إلى النبي -ﷺ- فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن أشياء، فإن أجبتنا فيها اتبعناك وصدقناك وآمنا بك. قال: فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قالوا الله على ما نقول وكيل. قال: أخبرنا عن علامة النبي -ﷺ-؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: وأخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل؟ قال: يلتقي الماءان؛ فإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت. قالوا: صدقت. قالوا: فأخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله. قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يلاومه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي فمن صاحبك فإنه إنما بقيت هذه حتى نتابعك؟ قال: هو جبريل. قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب وبالقتل، ذاك عدونا من الملائكة، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة"[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، مسند: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ج: ١، ص: ٢٧٨. رقم الحديث (٢٥١٤) إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كيف تؤنث المرأة وكيف يذكر الرجل، ج: ٥، ص: ٣٣٦. رقم الحديث (٩٠٧٢).

القول الثاني: قال آخرون بل كان سبب قولهم ذلك لأجل مناظرة جرت بين اليهود وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمر النبي -ﷺ-:

قال ابن كثير: "عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود فلما انصرف رحبوا به فقال لهم عمر: أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم. فسألهم وسألوه فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبرائيل. فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء بالخصب والسلم. فقال لهم عمر: هل تعرفون جبرائيل وتنكرون محمداً -ﷺ-؟! ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي -ﷺ- ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٩٧]الآيات"[١].

ونقض هذا الموقف من وجهين:

أولاً: إن عداوة جبريل عليه السلام عداوة لله ولرسله وملائكته وكفر به وبرسله وآياته. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة:٩٨]. وفي هذه الآية: "وعيد وذم لمعادي جبريل عليه السلام وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته ومعاداة أوليائه وعداوة الله للعبد تعذيبه وإظهار أثر العداوة عليه"[٢]. قال السعدي: "فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته وعداوة لله ولرسله وملائكته فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٣٢-١٣٣.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٨٣. تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢٠.

فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله والذي أرسل به والذي أرسل إليه فهذا وجه ذلك"[١].

وقال ابن كثير في تفسيره: "فمن عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله له في ذلك فهو رسول من رسل الله ملكي ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠] الآيتين؛ فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم"[٢]؛ "فإن من كان عدواً لله كان الله عدواً له فبين أن في مقابلة عداوتهم لا تؤثر ولا تنفع ولا تضر، وعداوته تعالى تؤدي إلى العذاب الدائم الأليم الذي لا ضرر أعظم منه[٣]".

ثانياً: إن ما جاء به جبريل عليه السلام من البشارة للمطيعين والإنذار للعصاة بالعقاب والأمر بالمحاربة والمقاتلة فإن ذلك ليس باختياره بل بأمر الله عز وجل. قال تعالى:﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧]. قال ابن كثير: "من عادى جبرائيل فإنه عدو لله؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَ ﴾[مريم:٦٤] الآية. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤]"[٤]. فالله عز وجل أمره "بإنزال كتاب فيه الهداية والبشارة فأنزله فهو من حيث إنه مأمور وجب أن

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٠. تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٣٣. تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٩٧.

(٣) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٨٠.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٣٣.

يكون معذوراً، ومن حيث إنه أتى بالهداية والبشارة يجب أن يكون مشكوراً؛ فكيف تليق به العداوة"[(١)].

ثالثاً: إن عداوة الكفار لجبريل ﷺ لا وجه لها "لأنه هو الذي نزل بالقرآن المصدق للكتب والهادي والمبشر لمن آمن، ومن كان بهذه المثابة فينبغي أن يحب ويشكر إذ كان به سبب الهداية"[٢]؛ فلا ينبغي لهم أن يعادوه "لأنه نزله على قلبك فهو مستحق للمحبة"[٣]. قال الشوكاني: "فمن كان معادياً لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له؛ فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة، أو من كان معادياً له فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل وليس ذلك بذنب له وإن نزهوه؛ فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان؛ لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابهم وهدى وبشرى للمؤمنين"[٤].

والخلاصة من كل ما تقدم أن شبه الكفار لم تبنى على دليل وبرهان، وإنما بنيت على الظن والشك والبغض والعداوة وكتمان الحق فهي باطلة.

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٧٩.

٢ – أبو حيان: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض (دار الكتب العلمية–لبنان–بيروت–ط/١، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م) ج: ١، ص: ٤٨٤.

٣ – التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٥.

٤ –فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١١٧.

خلاصة الفصل

يمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط و هي كتالي:

١- أن الإيمان بالملائكة عليهم السلام أصل من أصول الاعتقاد، والركن الثاني من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها.

٢- أن حقيقة الإيمان بالملائكة عليهم السلام تقتضي الإيمان بوجودهم، وأن الله عز وجل خلقهم من نور، وجبلهم على طاعته، وأنهم يفعلون ما يؤمرون به من أعمال، ولا يعلم عددهم إلا الله عز وجل.

٣- إن الملائكة عليهم السلام خلقٌ من خلق الله تعالى مأمورون فيجب أن ينزلوا منازلهم.

٤- أن من لم يؤمن بالملائكة عليهم السلام فقد كفر بالله وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

٥- زعم الكفار أن الملائكة إناثا وأنهم بنات الله عز وجل، كما نصبوا العداوة لبعض الملائكة عليهم السلام، وبنوا مزاعمهم تلك على حجج واهية، أبطلها الله عز وجل في كتابه، وبينا أن هذه المزاعم لا دليل لها ولا برهان وأنها فقط مبنية على الظن والشك والعداوة والبغضاء وكتمان الحق فهي باطلة.

الفصل الثالث

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الكتب والرد عليهم.

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالكتب السماوية.

المبحث الثاني: تحريف الكتب السماوية السابقة للقرآن الكريم.

المبحث الثالث: التكذيب بالكتب السماوية المترلة وإنكارها أو إنكار شيء منها.

المبحث الرابع: شبهات المنكرين والمكذبين للكتب السماوية.

الفصل الثالث

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الكتب والرد عليهم

تمهيد:

إن الإيمان بالكتب أصل من أصول الاعتقاد، وركن من أركان الإيمان. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾[الشورى: ١٥]. وقال -ﷺ- في حديث جبريل المشهور عندما سأله عن الإيمان قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله"[١] الحديث. فلا يصح إيمان أحد إلا إذا آمن بجميع الكتب التي أنزلت من عند الله تعالى كما أخبر الله تعالى عن رسوله -ﷺ- والذين آمنوا معه، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]. كما أن الله عز وجل أثنى على رسله الذين يُبَلِّغون رسالاته بقوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩﴾ [الأحزاب: ٣٩]. كما أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يؤمنوا بما أنزل إليهم من الكتب، فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ

---

(١) سبق تخريجه.

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾) [البقرة: ١٣٦]. ثم إن الله عز وجل حكم بالكفر على من أنكر شيئاً مما أنزل فقال تعالى: (وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾) [النساء: ١٣٦]. ومما يدل على أهمية الإيمان بالكتب أيضاً أن الله عز وجل أهلك الأمم السابقة بسبب تكذيبهم برسالاته، كما أخبر عن نوح عليه السلام بقوله: (أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾) [الأعراف: ٦٢]. وهود عليه السلام بقوله: (أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾)[الأعراف: ٦٨]. وصالح عليه السلام بقوله: (فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾)[الأعراف: ٧٩]. وشعيب عليه السلام بقوله:(فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾)[الأعراف: ٩٣]. فالله عز وجل أنزل الكتب لغاية عظيمة وهدف واحد أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئاً، ولكي تخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولتكون للبشرية منهج حياة فتدلهم على ما فيه خير ونفع لهم وتصرفهم عن كل شر وفساد لهم.

ومن هذا كله تتضح أهمية إنزال الكتب والغاية من إنزالها للبشر. ويحتوي هذا الفصل أربعة المباحث:

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالكتب السماوية.

المبحث الثاني: تحريف الكتب السماوية السابقة للقرآن الكريم.

المبحث الثالث: التكذيب بالكتب السماوية المنزلة وإنكارها أو إنكار شيء منها.

المبحث الرابع: شبهات المنكرين والمكذبين للكتب السماوية.

المبحث الأول

حقيقة الإيمان بالكتب السماوية

لقد اقتضت حكمت الله عز وجل ورحمته أن ينزل الكتب على الرسل عليهم السلام لهداية الناس وتبيين الحلال والحرام لهم والنافع والضار مما هو كفيل بإصلاح البشرية؛ فلو أوكلت البشرية إلى نفسها لفسدت وضلت وتاهت. قال تعالى لآدم عليه السلام -عندما أهبطه إلى الأرض-: (قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾)[البقرة: ٣٨]. وقال تعالى: (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾)[الأعراف: ٣٥]. ولهذا كان الإيمان بالكتب أصل من أصول الإيمان وركن من أركانه، ولقد دعا الله عز وجل الناس إلى الإيمان بالكتب المنزلة على رسله عليهم السلام فالإيمان بالكتب هو: "التصديق الجازم بأنها حق وصدق، وأنها كلام الله عز وجل، فيها الهدى والنور والكفاية لمن أنزلت عليهم، نؤمن بما سمى الله منها -وهي القرآن والتوراة والإنجيل والزبور- وما لم يسم منها، فإن لله كتباً لا يعلمها إلا هو سبحانه"[١]. يقول شارح "الطحاوية": "وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى. وأما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء"[٢].

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، مرجع سابق، ص: ١٧٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٥٠.

والإيمان بالكتب السماوية يتضمن أربعة أمور هي:

أولاً: التصديق الجازم بأن جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى هي كلام الله تعالى لا كلام غيره، وأن الله تكلم بها حقيقة وعلى الوجه الذي أراد. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى: ٥١].

هذه الآية "بين الله تعالى فيها كلامه لعباده وجعله على ثلاثة أوجه؛ أحدها: الوحي المذكور أولاً، وهو الذي يكون بإلهام أو منام، والآخر أن يسمعه كلامه من وراء حجاب، الثالث الوحي بواسطة الملك وهو قوله أو يرسل رسولاً يعني ملكاً فيوحي بإذنه ما يشاء إلى النبي، وهذا خاص بالأنبياء، والثاني خاص بموسى وبمحمد -ﷺ- إذ كلمه الله ليلة الإسراء، وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء كثيراً، وقد يكون لسائر الخلق، ومنه:﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ ﴾[النحل: ٦٨] ومنه منامات الناس"[١].

وقد ذكر الله ذلك في كتابه الكريم؛ فأما المسموع منه تعالى من وراء حجاب وبدون واسطة كما حدث مع موسى‬عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾[النساء: ١٦٤].

وأما ما كان تبليغه بواسطة الرسول الملكي إلى الرسول البشري، كما أنزل الله عز وجل على نبينا محمد -ﷺ-: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾[الشعراء: ١٩٣].

ومن هذه الكتب ما كتبه الله عز وجل بيده، فقد قال تعالى في شأن التوراة: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٤.

سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾)[الأعراف: ١٤٥].كما جاء في الحديث:" خلق الله ثلاثة أشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده[١] ".

وقد أوجب الله الإيمان بها جميعاً سواء المسموع منها أو المبلغ بواسطة الوحي، وأنكر الله تعالى على من نفى أن الله عز وجل أنزل هذه الكتب على رسله عليهم السلام، فقال تعالى:(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ) [الأنعام: ٩١]. قال السعدي: "هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين، وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء. فمن قال هذا فما قدر الله حق قدره ولا عظّمه حق عظمته؛ إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها؛ فأي قدح في الله أعظم من هذا؟!"[٢]. وهم أيضاً بتكذيبهم بالكتب "ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثه الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته: (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾) [الأنبياء:١٠٧]" [٣].

ثانياً: يجب الإيمان بما علمنا اسمه من الكتب السماوية باسمه تفصيلاً، وهذه الكتب هي: القرآن الكريم الذي أنزل على محمد -ﷺ-، والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، والزبور الذي أوتيه داود عليه السلام، وصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

---

(١) كنز العمال، مرجع سابق، ج:٦ ص: ٢٠٢،إسناده ضعيف فيه نجيح بن عبد الرحمن السندي وهو ضعيف أسن واختلط.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٦٤.

(٣) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٣٤.

وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً، فنقول كما أمرنا الله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[الشورى: ١٥]. "يعني بجميع ما أنزل الله من الكتب عليَّ وعلى من كان قبلي"[١]. وفيه أيضاً "تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب في الأصل وتأليف لقلوب أهل الكتابين[٢]". قال شارح "الطحاوية": "وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين؛ فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى، وأما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء"[٣].

ثالثاً: تصديق ما صح من أخبار الكتب السماوية كالقرآن الكريم، وما لم يبدل ولم يحرف من أخبار الكتب السماوية، كما قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]. والإيمان بما صح من أخبار الكتب السماوية "والإيمان بأن كل كتاب من تلك الكتب منزل منه تعالى على رسول معين لإرشاد أمته إلى ما شرع لهم من الدين بالأوامر والنواهي لكن لا على أن مدار الإيمان بكل واحد من تلك الكتب خصوصية ذلك الكتاب ولا على أن أحكام تلك الكتب وشرائعها باقية بالكلية ولا على أن الباقي منها معتبر بالإضافة إليها، بل على أن الإيمان بالكل مندرج تحت الإيمان بالكتاب المنزل على رسوله، وأن أحكام كل منها كانت حقه ثابتة إلى ورود ما نسخها، وأن ما لم ينسخ منها إلى الآن من الشرائع والأحكام ثابتة من حيث إنها من أحكام هذا الكتاب الجليل المصون عن النسخ والتبديل[٤]".

---

(١) تفسير السمرقندي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٢٧.
(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢٧.
(٣) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٢٤-٤٢٥.
(٤) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٤٢-٢٤٣.

رابعاً: العمل بأحكام ما لم ينسخ منها، والرضا والتسليم بما جاء فيه سواء فهمنا حكمته أو لم نفهمها:

ولقد أنزل الله عز وجل القرآن الكريم ناسخاً لجميع ما سبقه من الكتب السماوية، وحاكماً لها، ومصدقاً لها، ومهيمناً عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨]. فهو "رقيب على سائر الكتب المحفوظة من التغيير؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات، ويقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتاب وانقضاء وقت العمل بها، ولا ريب في أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبداً عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمناً عليه"[١]. يقول ابن كثير: "فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة[٢]". ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب السماوية ممن لم ينقلب على عقبيه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾[القصص: ٥٢-٥٣]. وإنما آمنوا به "لموافقته ما جاءت به الرسل ومطابقته لما ذكر في الكتب واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم وينفع قولهم لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب وغيرهم"[٣].

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٦٦.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٢٠.

وعلى هذا فلا يجوز العمل بشيء مما جاء في الكتب السماوية السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن الكريم.

ولقد وضح القرآن الكريم أن الكتب السماوية التي أنزلت على الرسل عليهم السلام قد اتفقت في عدة أمور هي:

أولاً: وحدة المصدر: فجميع الكتب السماوية منزلة من عند الله تعالى، كما قال تعالى: (الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾)[آل عمران: ١-٤]. وقال تعالى: (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ)[البقرة: ٢١٣].

ثانياً: وحدة الهدف: فالكتب السماوية من أولها إلى آخرها اتفقت في الهدف من إنزالها، وهو عبادة الله عز وجل وترك عبادة ما سواه، كما قال تعالى:(وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ)[النحل: ٣٦]. كما دعا جميع الرسل إلى دين الإسلام وهو دين جميع الرسل عليهم السلام. قال تعالى: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ)[آل عمران: ١٩]. قال السعدي: " يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له[١]". قال ابن

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٤٠.

كثير: "والسنن مختلفة هي في التوراة شريعة وفي الإنجيل شريعة وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام"(١). فإبراهيم عليه السلام أمره الله عز وجل بالإسلام كما قال تعالى:(إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾) [البقرة:١٣١]. وموسى عليه السلام قال لقومه: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ)[يونس:٨٤]. والحواريون أشهدوا عيسى عليه السلام على أنهم مسلمون كما قال تعالى: (قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾)[آل عمران:٥٢].

فالهدف إذاً من إنزال جميع الكتب السماوية هو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، والدعوة إلى دين الإسلام دين جميع الرسل عليهم السلام.

ثالثاً: اتفاق جميع الكتب السماوية في أصول الاعتقاد؛ فقد اشتملت على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والنشور والإيمان بالغيب إلى غير ذلك.

رابعاً: اتفاق الكتب السماوية في تقرير القواعد العامة التي تحكم حياة البشرية وتوجهها كقاعدة الثواب والعقاب، والتي تبنى على أن كل إنسان سوف يحاسب على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأن الإنسان لن يحاسب إلا بعمله فليس عليه وزر غيره، وأن ليس له سعي غيره، كما قال تعالى:(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾)[النجم: ٣٦-٤١]. قال

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٦٧.

السعدي: "وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: (﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾)؛ أي كل عامل له عمله الحسن والسيئ؛ فليس له من عمل غيره وسعيه شيء ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً: (وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾) في الآخرة فيميز حسنه من سيئه (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾)؛ أي المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى والسيئ الخالص بالسوء والمشوب بحسبه جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها وتحمد الله عليه؛ حتى إن أهل النار ليدخلون النار وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد[١]".

وكذلك قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾)[الأعلى: ١٤-١٩]. فبين سبحانه وتعالى أن طلب التزكي من الأمور الواردة في القرآن الكريم كما ورد في صحف إبراهيم وموسى.

خامساً: وكذلك من القواعد العامة التي قررتها الكتب السماوية أن عباد الله الصالحون في كل مكان وزمان هم الوارثون للأرض، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾)[الأنبياء: ١٠٥]. قال الطبري: أي "ولقد قضينا فأثبتنا قضاءنا في الكتب من بعد أم الكتاب أن الأرض يرثها عبادي الصالحون يعني بذلك أن أرض الجنة يرثها

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٢٢.

عبادي العاملون بطاعته المنتهون إلى أمره ونهيه من عباده دون العاملين بمعصيته منهم المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته"[١]. كما أن الله أخبر في الكتب السماوية كلها أن العاقبة للمتقين. قال تعالى:(وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾)[الأعراف: ١٢٨]. وقال تعالى: (إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾) [هود: ٤٩]. "أي للمتقين الذين يعملون في طاعة الله تعالى على نور من الله مخافة عقاب الله ورجاء ثواب الله تعالى يعني آخر الأمر لهم[٢]"، "والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه فخافه باجتناب معاصيه وأدى فرائضه[٣]".

سادساً: الأمر بالعدل والقسط: فقد أرسل الله عز وجل الأنبياء عليهم السلام وأنزل معهم الكتاب وحملهم ميزان العدل والقسط بين الناس، كما قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ)[الحديد: ٢٥]. قال الإمام السعدي: "وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع وهو القيام بالقسط وإن اختلفت صور العدل بحسب الأزمنة والأحوال"[٤].

سابعاً: إن كثيراً من العبادات التي أمرنا بفعلها كانت أيضاً عند الرسل السابقين عليهم السلام وعند أتباعهم مثل الصلاة والزكاة. قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾) [الأنبياء: ٧٣]. وقد امتدح الله إسماعيل عليه السلام بأنه كان

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٧، ص: ١٠٤.

(٢) تفسير السمرقندي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٥٦.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٩، ص: ٢٧.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٤٢.

يأمر أهله بالصلاة فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾[مريم: ٥٥]. وقال الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾[طه: ١٤]. وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾[مريم: ٣١]. وقد أمر الله بني إسرائيل بالصلاة والزكاة فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[البقرة: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البينة: ٥].

كما أن الله فرض علينا الصوم كما فرضه على الذين من قبلنا، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

والحج أيضاً فرضه الله عز وجل علينا كما فرضه على الذين من قبلنا، فقال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحج: ٢٧].

ولقد جعل الله عز وجل لكل أمة من الأمم مناسكها، كما قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الحج: ٦٧].

ثامناً: لقد دعت جميع الكتب السماوية إلى مكارم الأخلاق؛ كَبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء والمساكين واليتامى وغير ذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

والخلاصة أن الكتب السماوية قد اتفقت في المسائل الأساسية وإن اختلفت في التفاصيل، ولقد جاء القرآن مقرراً وناسخاً وحاكماً وشاملاً لكل ما سبقه من الكتب السماوية؛ لذلك وجب على جميع الأمة التمسك بالقرآن الكريم وذلك بإحلال حلاله، وتحريم حرامه، وفعل أوامره، ولبعد عن نواهيه، والاتعاظ بمواعظه، والاعتبار بأمثاله، والعلم بحكمه، والتسليم بمتشابهه والوقوف عند حدوده. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولا يوجد في التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو في القرآن أو مثله أو منه، وفي القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل[١]".

(١) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٦.

المبحث الثاني

تحريف الكتب السماوية السابقة للقرآن الكريم

لقد وقف أهل الكتاب من الكتب السماوية موقف المكذب المنكر، وهم مع هذا لم يكتفوا بذلك بل قاموا على تحريف الكتب، وذلك ثابت بالأدلة القطعية من الكتاب والسنة، أما الدليل من القرآن فقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]. وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٣-١٥]. وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. والآيات في ذلك كثيرة. وأما دليل من السنة فما رواه الإمام أحمد عن جابر ﵁

قال: قال رسول الله -ﷺ-: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإنكم، إما أن تصدقوا بباطل، أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني[١] ". وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف لكن له شواهد، وقوله -ﷺ- فيه: "أو تصدقوا بباطل" هذا فيه دليل على أن التوراة وقع فيها التحريف، فالتوراة والإنجيل حق من عند الله تعالى فهي وحي من عند الله تعالى.

وقد أجمع المسلمون على وقوع التحريف في التوراة والإنجيل سواء كان بالتبديل أو الزيادة أو النقصان أو تغيير المعنى دون اللفظ، كما أقر بذلك أهل الكتاب أنفسهم "فاليهود تقر أن السبعين كاهناً اجتمعوا على اتفاق من جميعهم على تبديل ثلاثة عشر حرفاً من التوراة، وذلك بعد المسيح في عهد القياصرة الذين كانوا تحت قهرهم؛ حيث زال الملك عنهم ولم يبق لهم ملك يخافونه ويأخذ على أيديهم ومن رضي بتبديل موضع واحد من كتاب الله فلا يؤمن منه تحريف غيره واليهود تقر أيضاً أن السامرة[٢]حرفوا مواضع من التوراة وبدلوها تبديلاً ظاهراً وزادوا ونقصوا، والسامرة تدعي ذلك عليهم، وأما الإنجيل فالذي بأيدي النصارى منه أربعة كتب مختلفة من تأليف أربعة رجال: يوحنا ومتى ومرقس ولوقا"[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، من حديث جابرﷺ، ج: ٣ ص: ٣٣٨، رقم الحديث(١٤٦٧٢)في سنده جابر الجعفي وهو ضعيف.

(٢) هم هؤلاء قوم يسكنون جبال بيت المقدس وقرايا من أعمال مصر ،ويتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود ،أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام وأنكروا نبوة من بعدهم من الأنبياء إلا نبيا واحدا ،وقالوا : التوراة ما بشرت إلا بنبي واحد يأتي من بعد موسى يصدق ما بين يديه من التوراة ويحكم بحكمها ولا يخالفها البتة وافترقت السامرة إلى دوستانية وهم الألفانية وإلى كوستانية، والدوستانية معناها : الفرقة المتفرقة الكاذبة ،والكوستانية معناها : الجماعة الصادقة وهم يقرون بالآخرة والثواب والعقاب فيها ، والدوستانية تزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا ، وبين الفريقين اختلاف في الأحكام والشرائع."انظر: الملل والنحل، ج : ١ ص : ٢١٧ وما بعدها".

(٣) ابن القيم: محمد بن أبي بكر أبو عبد الله الزرعي، هداية الحيارى(الجامعة الإسلامية-المدينة المنورة-)ج: ١، ص: ١٠٦.

ومن الأمثلة على التحريف والتبديل في التوراة ما نسب إلى الأنبياء عليهم السلام من زور وبهتان مما لا يجوز نسبته للأنبياء عليهم السلام ومما ورد "فيها عن لوط رسول الله أنه خرج من المدينة وسكن في كهف الجبل ومعه ابنتاه، فقالت الصغرى للكبرى: قد شاخ أبونا فارقدي بنا معه لنأخذ منه نسلاً. فرقدت معه الكبرى ثم الصغرى، ثم فعلتا ذلك في الليلة الثانية وحملتا منه بولدين: مواب وعمون!! فهل يحسن أن يكون نبي رسول كريم على الله يوقعه الله سبحانه في مثل هذه الفاحشة العظيمة في آخر عمره ثم يذيعها عنه ويحكيها للأمم؟!"[١].

وأما الأمثلة على تحريف الإنجيل فتعدد الأناجيل من أكبر الأدلة على تحريفها، وكذلك قصة صلب المسيح عليه السلام وغير ذلك كثير.

وقد اختلف علماء المسلمين في مقدار التحريف في التوراة والإنجيل:

فقال بعضهم: إن أكثر ما في التوراة والإنجيل باطل ليس من كلام الله عز وجل.

وقال بعضهم: بل ذلك قليل.

وقال بعضهم: إنه لم يُحرَّف شيءٌ من حروف الكتب، وإنما حرف معانيها بالتأويل.

وقال بعضهم: كانت توجد نسخ صحيحة للتوراة والإنجيل بقيت إلى مبعث الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ونسخ كثيرة محرفة.

وقال الجمهور: بأنه بدّل بعض ألفاظها وحرّف[٢].

وبغض النظر عن مقدار التحريف في التوراة والإنجيل فقد بقي بعض من الوحي الإلهي وسبيل إلى معرفته هو بموافقتها لما في القرآن الكريم والسنة النبوية.

---

(١) هداية الحيارى، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٧.

(٢) نظر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٧٧. فتح الباري، مرجع سابق، ج: ١٧، ص: ٥٢٣–٥٢٦. الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٢٠ –٤٢٥، ج: ٣، ص: ٩.

ثم إن التحريف في التوراة والإنجيل لم يقتصر على التبديل والزيادة والنقصان وتغير اللفظ دون المعنى، بل إن القرآن الكريم ذكر وسائل أخرى لا تقل خطورة عن التحريف وهي كالتالي:

أولاً: الإخفاء: فكانوا يخفون كثيراً مما في التوراة والإنجيل على الناس وحتى على العوام من أهل ملتهم. قال تعالى:(يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾)[المائدة: ١٥]. "أي من التوراة والإنجيل مثل صفة محمد -ﷺ- وآية الرجم وغير ذلك"[١]. وقال تعالى: (تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا)[الأنعام: ٩١]. قال السعدي: "وهو الكتاب الذي شاع وذاع وملأ ذكره القلوب والأسماع؛ حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس ويتصرفون فيه بما شاؤوا فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه وما خالف ذلك أخفوه وكتموه وذلك كثير[٢]".

ثانياً: الكتمان: فكانوا يكتمون ما جاء في كتبهم من الهدى والنفع للناس مع علمهم بأنه الحق. قال تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾) [البقرة: ١٤٦]. وقال تعالى: (وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾) [آل عمران: ١٨٧]. قال الإمام السعدي: "وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبؤوا بها فكتموا الحق وأظهروا الباطل وتجرؤوا على محارم الله

---

(١) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٢. تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٦

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٦٤.

وتهاونوا بحقوقه تعالى وحقوق الخلق واشتروا بذلك الكتمان ثمناً قليلاً وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق"[١]. كما أن الله عز وجل توعد من فعل ذلك.

قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾) [البقرة: ١٥٩]. قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾)[البقرة: ١٧٤]. قال ابن كثير: "وهذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله"[٢]. قال السعدي: "فالكاتم لما أنزله الله مضاد لأمر الله مشاق لله يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها فهذا عليه هذا الوعيد الشديد[٣]". وقال تعالى:(ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾)[النساء: ٣٧]. قال السعدي: "من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق فجمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم وهذه هي صفات الكافرين؛ فلهذا قال تعالى: (وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)"[٤].

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٦٠، وانظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج :٤ ص: ٢٠٢.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٠١.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج:١، ص: ٧٧.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٧٨، وانظر: تفسير أبي السعود ،مرجع سابق، ج: ٢ ص: ١٧٦.

ثالثاً: إلباس الحق بالباطل. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[البقرة: ٤٢]. "عن قتادة في قول الله: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ قال: لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام؛ إن دين الله الإسلام. واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله"(١). وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران: ٧١]. قال الشنقيطي: "فقد كانوا جبهة تضليل للناس وتحريف للكتاب وتلبيس للحق بالباطل، كل ذلك عن قصد وعلم بدافع الحسد ومناصبة العداء"(٢). قال السعدي: "فوبخهم على لبس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق؛ لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم؛ فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما بل أبقوا الأمر مبهماً، وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره؛ ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، و لم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروه. والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلنوا به ويميزوا الحق من الباطل ويظهروا الخبيث من الطيب والحلال والحرام والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة ليهتدي المهتدون(٣)".

رابعاً: الكذب: فهم على الرغم من تحريفهم لكتبهم لم يتورعوا عن الكذب على الله عز وجل، كما قال تعالى:﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[آل عمران: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[آل عمران: ٩٤].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٥. عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب(المكتبة العصرية-صيدا-)ج: ١، ص: ٩٨. الدرر المنثورة، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٥٥.

(٢) تفسير أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢٤.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٣٤.

خامساً: لوي الألسنة بالكتاب. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[آل عمران: ٧٨]. قال السعدي: "أي يميلونه ويحرفونه عن المقصود به. وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه؛ وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه. وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب إما تعريضاً وإما تصريحاً؛ فالتعريض في قوله ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله وليس هو المراد. والتصريح في قولهم ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾. وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق وإثبات المعنى الباطل وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد مع علمهم بذلك"[١].

سادساً: التعطيل: والمراد بهذا التعطيل هو عدم العمل بأحكام التوراة والإنجيل وعدم إقامتها. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[المائدة: ٦٦]. "يعني أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما[٢]". وقال السعدي: "أي قاموا بأوامرها كما ندبهم الله وحثهم ومن

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٣٧، وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج: ١ ص: ٤٦٠.

(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥١.

إقامتهما الإيمان بما دعوا إليه من الإيمان بمحمد -ﷺ- وبالقرآن فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليـهم أي لأجلهم وللاعتناء بهم (لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم)"[١]. وقال تعالى: (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾) [المائدة: ٦٨]. قال ابن كثير: "أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها. ومما فيها الإيمان بمحمد والأمر باتباعه -ﷺ- والإيمان بمبعثه والاقتداء بشريعته[٢]". وقال تعالى: (مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾) [الجمعة: ٥]. قال الإمام الشنقيطي: "مثلٌ ضربه الله لليهود وهو أنه شبههم بحمار وشبه التوراة التي كلفوا العمل بما فيها بأسفار أي كتب جامعة للعلوم النافعة وشبه تكليفهم بالتوراة بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في تلك الكتب المحمولة على ظهره فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة لأنهم كلفوا باتباع محمد -ﷺ- وإظهار صفاته للناس فخانوا وحرفوا وبدَّلوا فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم"[٣].

سابعاً: الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر. قال تعالى: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ)[البقرة: ٨٥]. ففعلهم لبعض الأحكام التي في كتبهم وتركهم لبعضها كان سبباً

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٣٨.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٨١.

(٣) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٨ص: ١١٧.

للحكم عليهم بالكفر "وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي وأن فعل المأمورات من الإيمان"[١].

ثامناً: النبذ. قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٠ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١﴾[البقرة: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. "أي طرحوه رغبة عنه"[٢]؛ "فإن نبذ الشيء وراء الظهر مَثَل في الاستهانة به والإعراض عنه بالكلية"[٣].

تاسعاً: الظن. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨]. قال الشوكاني: "لما ذكر الله سبحانه أهل العلم منهم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؛ ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأماني ويعتمدون على الظن الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره ولا يظفرون بسواه"[٤].

"فما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى رتبة العلم فأنى يرجى منهم الإيمان المؤسس على قواعد اليقين[٥]".

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٥٨.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٠.

(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٢٥.

(٤) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٠٥.

(٥) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١١٩.

عاشراً: النسيان. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المائدة: ١٣-١٤]. قال ابن كثير: "تركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمة[(١)]". وقال السعدي: "فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه وأنهم نسوه وضاع عنهم و لم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه عقوبة منه لهم وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم أو وقع في زمانهم أنه مما نسوه"[(٢)].

الحادي عشر: التزوير. قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة:٧٩]. قال ابن كثير: "هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل[(٣)]". قال البغوي: "وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٣٤.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١١٨.

وزوال رياستهم حين قدم النبي -ﷺ- المدينة فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة القامة؛ فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر؛ فإذا سألهم سفلتهم عن صفته قرؤوا ما كتبوه فيجدونه مخالفاً لصفته ويكذبونه[1]".

والخلاصة من كل ما تقدم أن هذه الوسائل التي سلكها أهل الكتاب في تحريف ما أنزل إليهم يهدفون من ذلك إلى تضليل الناس وصدهم عن الهدى، وهو من أكبر الأدلة على تحريف كتبهم و ما جاء فيها من الحق من إثبات نبوة محمد -ﷺ-.

(١) تفسير البغوي ج: ١، ص: ٨٩. تفسير الثعالبي ج: ١، ص: ٢٢٤.

المبحث الثالث

التكذيب بالكتب السماوية المنزلة وإنكارها أو إنكار شيء منها

بعث الله الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين، يبشرون الناس بالجنة إن هم عبدوا الله ووحدوه، وينذرونهم النار إن هم عصوه وكذبوه. وأنزل الله معهم كتباً كثيرة لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور. قال تعالى لرسوله -ﷺ-: (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾)[النساء: ١٦٣]. وقال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾)[الشورى: ٥٢]. وأوجب الله تعالى على عباده الإيمان بهذه الكتب جميعاً دون تفريق بينها، ووجوب الإيمان بهذه الكتب، يعتبر أمر بدهياً بالنسبة للمؤمن، فبما أن المؤمن آمن بالله تعالى، وصدق برسله، وصدق بالوحي الذي نزل من عند الله تعالى، وبما أن الله تعالى أخبر في كتابه الكريم أنه أنزل كتباً كثيرة على أنبيائه عليهم السلام، فوجب عليه الإيمان بها جميعها وأنها منزله من عند الله تعالى.

أما الكفار فوقفوا من هذه الكتب موقف المكذب المنكر، فما يأتي شيء من عند الله تعالى إلا جحدوه و لم يعترفوا به. قال تعالى: (كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾)[آل عمران: ١١]. وقال تعالى عن كفار قريش: (فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾)[الأنعام: ٥].

وقد حكم الله تعالى في كتابه الكريم بالكفر على من جحد آياته، وتوعد بالعذاب لمن كذب بها، كما أخبر أنه لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله تعالى، كما أخبر تعالى أن من كذب بآياته لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة... وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾[النساء: ٥٦]. قال الطبري: "يقول الله لهم: إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد -ﷺ- من آياتي يعني من آيات تنزيله ووحي كتابه وهي دلالاته وحججه على صدق محمد -ﷺ- فلم يصدقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به؛ سوف نصليهم ناراً"[(١)]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[العنكبوت: ٤٧]. قال ابن كثير: "أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات"[(٢)]. وقال السعدي: "الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا فكل من له قصد صحيح فإنه لا بد أن يؤمن به لما اشتمل عليه من البينات لكل من له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد، ومما يدل على صحته أنه جاء به هذا النبي الأمين الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطاً بل ولا يقرأ خطاً مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد"[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٤٢.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤١٨.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٣٣.

وقال تعالى: (أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾)[الأنعام: ١٥٧]. يقول الرازي: "والمراد تعظيم كفر من كذب بآيات الله وصدف عنها أي منع عنها؛ لأن الأول ضلال، والثاني منع عن الحق وإضلال[١]". وقال ابن كثير: "أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله؛ أي صرف الناس وصدهم عن ذلك[٢]".

وقال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾)[الأعراف: ٤٠]. قال الطبري: "إن الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا فلم يصدقوا بها ولم يتبعوا رسلنا واستكبروا عنها. يقول: وتكبروا عن التصديق بها وأنفوا من اتباعها والانقياد لها تكبراً (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ): لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء ولا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل لأن أعمالهم خبيثة"[٣]. وقال السعدي: "يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته فلم يؤمن بها مع أنها آيات بينات واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها بل كذب وتولى أنهم آيسون من كل خير فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله فتستأذن فلا يؤذن لها كما لم تصعد في الدنيا إلى الإيمان بالله ومعرفته ومحبته كذلك لا تصعد بعد الموت فإن الجزاء من جنس العمل[٤]".

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٤، ص: ٦.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٩٣.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ١٧٥.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٨٨.

وقال تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾) [الأعراف: ٣٦]. وقال تعالى: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾) [الحج: ٥٧].

وقال تعالى: (فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾) [فصلت: ٢٧-٢٨]. وغير ذلك من الآيات التي توعد الله عز وجل فيه من كذب بآياته بالعذاب الشديد.

ثم إن الإيمان الحقيقي بالكتب السماوية يقتضي الإقرار بها وتصديقها كما تقدم معنا في مبحث حقيقة الإيمان(١) ومن أنكر هذه الكتب أو أنكر شيئاً منها فقد ناقض هذا الإقرار والتصديق.

كما أن إنكارها يتضمن إنكار صفة الكلام التي اتصف الله تعالى بها، ونفي هذه الصفة من الإلحاد في أسماء الله تعالى المنهي عنه، وفي إنكارها أيضاً عدم تعظيم لله تعالى؛ حيث لم يقدروا قدره. قال تعالى: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ) [الأنعام: ٩١]. قال ابن تيمية: "فقد علم بالاضطرار من دين جميع الرسل أنهم يخبرون عن الله بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا؛ فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت كلام الله تعالى، وجحد كون الله متكلماً هو جحد لما بلغت عنه الرسل من الأمر والنهي"(٢). وقال صاحب "الصارم المسلول": "أجمع المسلمون على إن من سب الله أو سب رسوله - ﷺ- أو دفع شيئاً مما أنزل الله عز وجل أو قتل نبياً من أنبياء الله عز وجل أنه كافر بذلك وإن كان مقراً

---

(١) انظر: ص: (٣٠٦) من الرسالة.

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، العقيدة الأصفهانية، تحقيق: إبراهيم سعيداي(مكتبة الرشد-الرياض-ط/١، ١٤١٥هـ)ج: ١، ص: ٨١.

بكل ما أنزل الله[١]. وقال ابن حزم: "وصح الإجماع على أن كل من جحد شيئاً صح عندنا بالإجماع أن رسول الله -ﷺ- أتى به فقد كفر، وصح بالنص أن كل من استهزأ بالله تعالى أو بملك من الملائكة أو بنبي من الأنبياء عليهم السلام أو بآية من القرآن أو بفريضة من فرائض الدين فهي كلها آيات الله تعالى بعد بلوغ الحجة إليه فهو كافر[٢]". "فمن جحد حرفاً مما في هذا الكتاب أو شكَّ في حرف منه أو شك فيه أو وقف فهو صاحب هوى، ومن جحد أو شك في حرف من القرآن أو في شيء جاء عن رسول الله -ﷺ- لقي الله مكذباً[٣]". "وقال علي ﷺ: من كفر بحرف منه فقد كفر به كله[٤]". وقال عبد الله بن المبارك[٥]: "من كفر بحرف من القرآن فقد كفر بالقرآن، ومن قال: (لا أومن بهذا الكلام) فقد كفر، وأن الكتب المنزلة على الرسل مئة وأربعة كتب كلام الله غير مخلوق[٦]". "وسُئل ابن تيمية عن رجل لعن اليهود، ولعن دينه وسبّ التوراة؛ فهل يجوز لمسلم أن يسب كتابهم أم لا؟ فأجاب: الحمد لله، ليس لأحد أن يلعن التوراة، بل من أطلق لعن التوراة فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وإن كان ممن يعرف أنها منزلة من عند الله، وأنه يجب الإيمان بها، فهذا يقتل بشتمه لها، ولا تقبل توبته في أظهر قولي العلماء. وأما إن لعن دين اليهود الذي هم عليه في هذا الزمان فلا بأس في ذلك، فإنهم

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٥.

(٢) الفصل في الملل، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٤٢.

(٣) البربهاري: الحسن بن علي بن خلف البربهاري أبو محمد، شرح السنة، تحقيق: د/محمد سعيد سالم القحطاني (دار ابن القيم- الدمام- ط/١، ١٤٠٨هـ) ج: ١، ص: ٥٩.

(٤) ابن قدامة: عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي أبو محمد، حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة، تحقيق : عبد الله يوسف الجديع(مكتبة الرشد – الرياض- ط/١)،ج:١ ص:٣٣.

(٥) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي، أحد الأئمة الأعلام، وحفاظ الإسلام ، روى عنه كثيرون، قال العباس بن مصعب المروزي كانت أم عبد الله بن المبارك خوارزمية وأبوه تركيا ، وقال محمد بن عيسى بن الطباع عن عبد الرحمن بن مهدي: الأئمة أربعة سفيان الثوري، ومالك بن أنس، وحماد بن زيد، وبن المبارك ، توفي سنة:١٨١هـ، "انظر: تهذيب الكمال، ج: ١٦ ص: ٥- ١٤".

(٦) الغنية عن الكلام وأهله، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٧. توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٨٢.

ملعونون هم ودينهم، وكذلك إنْ سبَّ التوراة التي عندهم بما يبين أن قصده ذكر تحريفها مثل أن يقال: (نسخ هذه التوراة مبدلة لا يجوز العمل بما فيها، ومن عمل اليوم بشرائعها المبدلة والمنسوخة فهو كافر)، فهذا الكلام ونحوه حق لا شيء على قائله، والله أعلم[1]".

والخلاصة من كل ما تقدم أن من أنكر الكتب السماوية أو أنكر شيئاً منها فقد كفر بالله عز وجل و لم يؤمن الإيمان الصحيح كما ثبت ذلك بالأدلة القطعية.

(١) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٣٥، ص:٢٠٠.

المبحث الرابع

شبهات المنكرين والمكذبين للكتب السماوية

لقد مضت سنة المكذبين في كل عصر ومكان أن يقفوا في وجوه أنبيائهم لصد دعوتهم والتشويش على الناس، وذلك من خلال ما يثيرونه من الشبه حتى يردوا الحق ويصدوا الناس عنه؛ فهم لم يكتفوا برد دعوة الأنبياء والتشكيك فيها بل تعدى الأمر إلى التشكيك في الكتب التي أنزلها الله على أنبيائهم عليهم السلام: "وقد كشف الله تعالى شبههم وأدحض حججهم وبهتهم وقطعهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وبين عجزهم وكشف عوارهم في جميع ما انتحلوا"[١]. وسوف أتناول في هذا المبحث أبراز الشبهات التي أثارها الكفار والرد عليها:

الشبهة الأولى: **الافتراء**.

لقد زعم الكفار المكذبون أن القرآن الكريم من افتراء محمد -ﷺ-. قال تعالى: (أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨) [يونس: ٣٨].

وقال تعالى: (أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣)[هود: ١٣]. وقال تعالى: (أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥)[هود: ٣٥]. وقال تعالى: (أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣)[السجدة: ٣]. وقال تعالى: (أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي

---

[١] (١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٨١.

وَبَيْنَكُمْۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾)[الأحقاف: ٨]. وقال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾) [الطور: ٣٣]. وقد رد الله تبارك وتعالى على هذه الشبهة من جانبين:

الأول: تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله مع ما يمتلكونه من الفصاحة والبلاغة. قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾) [يونس٣٨]. ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور، فقال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾)[هود: ١٣]. ثم تحداهم بالقرآن كاملاً، فقال تعالى: (فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾)[الطور: ٣٤]. فلم يستطيعوا فعل ذلك على الرغم من ادعائهم القدرة على المجيء بمثل القرآن فبين الله عز وجل كذبهم في ذلك وعدم مقدرتهم على ذلك وإن اجتمعت الجن والإنس. قال تعالى: (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﭬ ﭭ ﭮ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾) [الإسراء:٨٨].

قال السعدي: "وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه ووقع كما أخبر الله فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان وهم أهل اللسان والفصاحة فلو كان عندهم أدنى تأمل وتمكن من ذلك لفعلوه فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعاً وكرهاً وعجزوا عن معارضته وكيف يقدر المخلوق من تراب الناقص من جميع الوجوه الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات المطلع على سائر الخفيات الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم الذي

لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مداداً والأشجار كلها أقلام لنفذ المداد وفنيت الأقلام و لم تنفد كلمات الله فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد فليس كمثله شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق وزعم أن محمداً -ﷺ- افتراه على الله واختلقه من نفسه"[(١)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فعم بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي والدعاء هو لجميع الخلق"[(٢)]. "فعجزوا عن ذلك كله و لم يطمعوا في شيء منه مع أنهم فحول اللغة وفرسان الفصاحة وأهل البلاغة وأعلم الناس بنثر الكلام ونظمه وهجزه ورجزه مع شدة معاندتهم لرسول الله -ﷺ- وما جاء به وحرصهم على معارضته بكل ممكن، ولكن جاءهم ما لا قبل لهم به وأتاهم ما لا يطيقون كلام ذي الملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء والعزة والجلال والكمال رب الأرض والسماء ورب الآخرة والأولى من له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل الأعلى الذي لا سمي له ولا كفو له وليس كمثله شيء وهو السميع البصير[(٣)]".

والثاني: تهديد الله عز وجل وتوعده لمن يفتري عليه الكذب ولو كان نبياً مرسلاً. قال تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾)[الحاقة: ٤٤-٤٧]. قال السعدي: "فلو قدر أن الرسول -حاشا وكلا- تقول على الله لعاجله بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر لأنه حكيم قدير على كل شيء؛ فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم وأنه هو وأتباعه لهم النجاة ومن خالفه فله

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٦٦.

(٢) الجواب الصحيح، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٤٢٦.

(٣) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٨٣.

الهلاك فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات ونصره على أعدائه ومكنه من نواصيهم فهو أكبر شهادة منه على رسالته"(١). "ومعنى الكلام أنه لا يتكلف الكذب لأجلكم مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاقبناه ثم لم يقدر على دفع عقوبتنا عنه"(٢). وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ [الأحقاف: ٨]. "فلا تغنون عني من الله إن عاقبني على افترائي إياه وتخرصي عليه شيئاً ولا تقدرون أن تدفعوا عني سوءاً إن أصابني به(٣)". "إذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني حينئذ بالعقوبة فكيف أجترئ على أن افترى عليه تعالى كذباً فأعرض نفسي للعقوبة التي لا مناص عنها"(٤). "وقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤] "فذكر أمرين؛ أحدهما قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ يقول: إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق فخافوا الله أن تكذبوه فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين وهذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة وهو جدالهم بالتي هي أحسن(٥)".

*** ثم الرد على هذه الشبهة عقلاً وخلاصته في الآتي:**

١- أننا لو قارنا بين أسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي؛ لوجدنا أسلوب الحديث يدور على أسلوب الخطابة والتعليم والتفهيم بخلاف أسلوب القرآن الكريم الذي لا شبيه له.

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٨٥.

(٢) زاد المسير، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٣٥٥.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٦، ص: ٥.

(٤) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٧٩.

(٥) الجواب الصحيح ج: ٥، ص: ٤٢٥-٤٢٦.

٢- إن الرسول -ﷺ- كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؛ فكيف يستطيع أن يصيغ مثل هذا القرآن؟!

٣- لقد جرت عادة المؤلفين في كل عصر وزمان أن ينسبوا مؤلفاتهم لأنفسهم؛ فهل يعقل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤلف هذا الكتاب ثم ينسبه لغيره؟!

٤- في القرآن الكريم من أخبار الأولين وفيه إعجاز علمي في شتى المجالات، ما أبهر العلماء؛ فهل يعقل أن أمياً مثل محمد -ﷺ- يعرف مثل هذه الأشياء.

٥- إن القرآن الكريم اشتمل على عتاب للرسول -ﷺ- ولوم. قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾[عبس: ١-١٠]. وقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٣٧].

٦- كانت تنزل بالرسول حوادث ومصائب يحتاج فيها لقرآن ينزل حتى يقضي فيها؛ ولو كان من قوله لما أحتاج لذلك[١].

---

١ انظر معجم افتراءات الغرب على الإسلام ،أنور محمود زناتي.(موقع رسول الله).

الشبهة الثانية: اكتتاب الرسول -ﷺ- للقرآن وتعلمه:

لقد ادعى الكفار أن الرسول -ﷺ- قد اكتتب القرآن، كما زعموا أنه إنما تعلمه من بشر مثله. قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾)[الفرقان: ٤-٥]. وقال تعالى: (وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾)[النحل: ١٠٣]. "قال المفسرون: إن المشركين يشيرون بهذا إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش قيل اسمه بلعام وقيل يعيش وقيل عائش وقيل جبر وقيل يسار وقيل غير ذلك، وربما كان رسول الله -ﷺ- يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء[(١)]".

وقد رد الله عز وجل على هذه الشبهة في آيات كثيرة منها:

١- قوله تعالى: (لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾) [النساء: ١٦٦]. وقال تعالى: (قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾)[الفرقان: ٦]. وقال تعالى: (وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾)

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٨١-٢٨٢.

[النحل: ١٠١-١٠٢]. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾[السجدة: ٣]. قال السعدي: "الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[1]". وقال الشوكاني: " فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء"[2].

٢- قال تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]. " أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل"[3].

الشبهة الثالثة: وصف القرآن بالشعر والكهانة:

لم يتوقف الكفار عن جدالهم بالباطل فوصفوا القرآن الكريم بالشعر والكهانة. قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء: ٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[القصص: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾[المدثر: ٢٤].

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٥٣.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٤٧.

(٣) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٨٢. تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٨٧.

فرد الله تعالى ذلك في آيات كثيرة منها:

١- قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢]. فشهد الله عز وجل وهو أصدق القائلين والشاهدين، بأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة. قال الرازي: " كأنه تعالى قال: ليس هذا القرآن قولاً من رجل شاعر؛ لأن هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها، إلا أنكم لا تؤمنون؛ أي لا تقصدون الإيمان فلذلك تعرضون عن التدبر، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم: إنه شاعر لمفارقة هذا التركيب ضروب الشعر، ولا أيضاً بقول كاهن؛ لأنه وارد بسبب الشياطين وشتمهم فلا يمكن أن يكون ذلك بإلهام الشياطين، إلا أنكم لا تتذكرون كيفية نظم القرآن واشتماله على شتم الشياطين فلهذا السبب تقولون: إنه من باب الكهانة(١)"؛ "فنفى تعالى أن يكون قول شاعر لمباينته لضروب الشعر، ولا قول كاهن لأنه ورد بسبب الشياطين وانتصب(٢)".

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس: ٦٩]. "رد وإبطال لما كانوا يقولونه في حقه -ﷺ- من أنه شاعر وما يقوله شعر. أي: ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، على معنى: إن القرآن ليس بشعر فإن الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة؟! ومن أين اشتبه عليهم الشؤون واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون؟!"(٣).قال السعدي: " أي ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية فهو مشتمل عليها أتم اشتمال وهو يذكر العقول ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن والنهي عن كل قبيح"(٤).

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٣٠، ص: ١٠٤.
(٢) تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٣٢١.
(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ١٧٧.
(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١،ص: ٦٩٩.

٣- قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القصص: ٤٩]. بين الله عز وجل أنه لا أهدى من التوراة والقرآن الكريم ومع هذا كفروا بهما ثم تحداهم الله عز وجل أن يأتوا بكتاب أهدى منهما إن كانوا صادقين فيما ادعوه. قال السعدي: "ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين علماً وهدى وبياناً ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما من حيث كونهما هدى وحقاً فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق"[١]. وقال صاحب "روح المعاني": "فالفعل مجزوم بجواب الأمر، ومثل هذا الشرط يأتي به من يدل بوضوح حجته؛ لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بَيِّنُ الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإلزام[٢]".

٤- ولقد توعد الله عز وجل من زعم أن القرآن سحر، فقال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المدثر: ١١-٢٩]. قال ابن كثير في

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١،ص: ٦١٨.

(٢) روح المعاني، مرجع سابق، ج: ٢٠، ص: ٩٢.

سبب نزول هذه الآية: "إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي -ﷺ- فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال: أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم؟ قال: يعطونكه؛ فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له. قال: فماذا أقول فيه فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره[١]". وقال السعدي: "هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة المعاند للحق المبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة فذمه الله ذماً لم يذم به غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه أن له الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى[٢]".

---

(١) تفسير ابن كثير ج: ٤، ص: ٤٤٤.

(٢) تفسير السعدي ج: ١، ص: ٨٩٦.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط وهي كتالي:

١- أن الإيمان بالكتب السماوية أصل من أصول الاعتقاد، والركن الثالث من أركان الإيمان الذي لا يصح إيمان العبد إلا بها.

٢- أن حقيقة الإيمان بالكتب تقتضي الإيمان بأنها جميعا من عند الله تعالى، وكذلك الإيمان باسم ما علمناه من أسمائها، والتصديق بما صح من أخبارها وما لم يبدل أو يحرف منها، والعمل بأحكام ما لم ينسخ منها.

٣- أن الكتب السماوية جميعها ما عدا القرآن الكريم لحقها التحريف من التبديل، والزيادة، والنقصان، وتغيير اللفظ، وغير ذلك من الوسائل الآخرى التي لا تقل خطورة عن سابقتها.

٤- أن هذه الوسائل التي سلكها المحرفون يهدفون منها تضليل الناس وصدهم عن الهدى.

٥- أن من أنكر الكتب السماوية أو أنكر شيئا منها فقد كفر بالله عز وجل و لم يؤمن الإيمان الصحيح كما ثبت ذلك بالأدلة القطعية.

٦- زعم الكفار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن من لدن نفسه، كما زعموا أنه تعلمه من بشر، كما أنهم لم يقفوا عند هذا الحد حتى وصفوه بالشعر والكهانة.

الفصل الرابع

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الرسل والرد عليهم.

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: موقف الكفار من الإيمان بالرسل عليهم السلام.

المبحث الثاني: شبهات الكفار المكذبين والمنكرين للرسل عليهم السلام.

الفصل الرابع

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من الرسل والرد عليهم

تمهيد:

إن الأنبياء هم أكمل الناس عقولاً، وأحسنهم أخلاقاً، وأكملهم صبراً على البلاء، اختارهم الله ليكونوا رسلاً إلى أقوامهم، فيدعوهم لعبادة الله وحده وترك عبادة من سواه ويبشروهم برحمة الله ويحذروهم من غضبه ومقته. قال تعالى: (**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**) [النساء: ١٦٥]. فالإيمان بالله عز وجل لا ينفك عن الإيمان برسله وأنبيائه عليهم السلام، كما قال تعالى: (**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ**)[البقرة: ١٣٦]. كما أن الإيمان بالرسل والأنبياء يجب أن يكون إيماناً بهم جميعاً دون التفريق بين أحد منهم، كما قال تعالى: (**لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ**) [البقرة: ٢٨٥]. وقال تعالى: (**فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧**)[البقرة: ١٣٧]. وكل هذه الآيات وغيرها تدل على أهمية الإيمان بالرسل عليهم السلام، وعظيم منزلتهم عند الله عز وجل.

ولكن مع هذا كله فقد قوبلوا من قبل أقوامهم بالتكذيب والسب والشتم والسخرية والاستهزاء كما حكى الله تعالى في كتابه الكريم؛ فالمتأمل في الآيات يجد أن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم وألصقوا بهم التهم وتحدوهم، فرد الله على تكذيبهم وعلى التهم التي ألصقوها برسله عليهم السلام. وسوف أتناول ذلك في مبحثين:

المبحث الأول: موقف الكفار من الإيمان بالرسل عليهم السلام.

المبحث الثاني: شبهات الكفار المكذبين والمنكرين للرسل عليهم السلام.

المبحث الأول

موقف الكفار من الإيمان بالرسل عليهم السلام

تمهيد:

إن الإيمان بالرسل عليهم السلام هو الركن الرابع من أركان الإيمان كما في حديث جبريل: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله..." [(١)](رواه مسلم). وهو أصل من أصول الإيمان كما قال تعالى: (قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ٨٤].

وقد دل القرآن الكريم على وجوب الإيمان بهم عليهم السلام وأن هذا الإيمان لا يكون برسول دون آخر، وإنما يكون بهم جميعاً؛ وذلك لأن دينهم واحد وأمتهم واحده، كما قال تعالى: (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ)[آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ)[الأنبياء: ٩٢]. ولكن الكفار لم يفهموا حقيقة هذا الإيمان. وسأتناول موقفهم في مطلبين:

المطلب الأول: حقيقة الإيمان بالرسل عليهم السلام.

المطلب الثاني: تكذيب الكفار بالرسل عليهم السلام.

---

(١) سبق تخريجه.

المطلب الأول

حقيقة الإيمان بالرسل عليهم السلام

تواترت الأدلة الشرعية على وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام وأنه لا يصح إيمان العبد إلا بالإيمان بالله والإيمان برسله، كما أن الله عز وجل قرن الإيمان به بالإيمان برسله عليهم السلام فقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[آل عمران: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[النساء: ١٧١]. كما أنه سبحانه وتعالى قرن الكفر بالرسل عليهم السلام بالكفر به عز وجل فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١٣٦]. فكل من زعم أنه يؤمن بالله عز وجل وهو مع هذا يكفر بالرسل عليهم السلام في الحقيقة لم يؤمن بالله و لم يقدر الله حق قدره. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾[الأنعام: ٩١]. يقول الإمام السعدي في تفسيره: "هذا تشنيع على من نفى الرسالة من اليهود والمشركين وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء فمن قال هذا فما قدر الله حق قدره ولا عظمه حق عظمته إذ هذا قدح في حكمته وزعم أن يترك عباده هملاً لا يأمرهم ولا ينهاهم ونفي لأعظم منة امتن الله بها على عباده وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة والكرامة والفلاح إلا بها فأي قدح في الله أعظم من هذا"[١]. وقال النسفي[٢]في تفسيره: "أي ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثه الرسل والوحي إليهم وذلك من أعظم رحمته ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] [٣]".

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٦٤.

(٢) محمد بن علي بن يحيى بن يونس بن الحسين بن محمد بن عبيد الله بن هبيرة أبو الرضا النسفي ثم البغدادي ،كان صاحا فاضلا خبيرا بالتفسير، والنحو، والأدب ، حدث عن طراد و ابن البطر روى عنه أبو محمد بن الخشاب النحوي وغيره مات في محرم سنة عشر وخمسمائة ذكره ابن النجار."طبقات المفسرين، ج: ١ ص: ٩٩".

(٣) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٣٤.

وعلى هذا فإن من قدر الله حق قدره علم أن من مقتضى حكمته ورحمته سبحانه أن أرسل الرسل و لم يترك الخلق سدى كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[القيامة: ٣٦]. وعلى هذا فيجب الإيمان برسل الله تعالى وهذا الإيمان يجب أن يتضمن التصديق الجازم بأنهم مبعوثون من عند الله تعالى وأن الله قد أرسل في كل أمة رسولاً كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[يونس: ٤٧]. وأنهم بعثوا بالدعوة إلى عبادة الله وحده والكفر بعبادة ما دونه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وأنهم صادقون مصدقون، وأنهم بلغوا جميع ما أمروا بتبليغه لم يكتموه و لم يحرفوه كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥]. وأن دعوتهم جميعاً من أولهم إلى آخرهم اتفقت على أصل العبادة وأساسها، وهو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة اعتقاداً وقولاً وعملاً والكفر بعبادة ما دونه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]. وأما الفروض والتشريعات المتعبد بها فقد يُفرض على قوم صلاة وصوم ولا يفرض على آخرين، وقد يحل لقوم ما يحرم على آخرون؛ امتحاناً من الله كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن كثير: "قال ابن عباس: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سبيلاً وسنة"[(١)]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه -ﷺ-:

(١) انظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٦٧.

"الأنبياء إخوة لِعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد[١]"؛ فالأنبياء عليهم السلام متحدون في الأصل وهو التوحيد وإن كانوا مختلفين في الشرائع من ناحية الأوامر والنواهي والحلال والحرام؛ لأن الإخوة لعلات أبوهم واحد وأمهاتهم متفرقات.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن من كفر برسول واحد من الرسل فقد كفر بجميع الرسل عليهم السلام كما قال تعالى عن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[الشعراء: ١٠٥]. وقال تعالى عن أصحاب الحجر: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾[الحجر: ٨٠]. وقال عن قوم عاد: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾[هود: ٥٩]. "لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]"[٢]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "والأنبياء كلهم دينهم واحد، وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم... ولهذا كان من صدق محمداً فقد صدق كل نبي، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي، ومن كذبه فقد كذب كل نبي، ومن عصاه فقد عصى كل نبي"[٣]. وقال: "من أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع، ومن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع؛ لأن كل رسول يصدق الآخر ويقول: إنه رسول صادق، ويأمر بطاعته. فمن كذب رسولاً فقد كذب الذي صدقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته[٤]". وقال ابن سعدي: "ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل،

---

(١) البخاري، ب: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ...﴾ [مريم:١٦] ج: ٣، ص: ١٢٧٠، رقم الحديث (٣٢٥٩).

(٢) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٦١.

(٣) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ١٩، ص: ١٨٥بتصرف يسير .

(٤) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ١٩، ص: ١٨٠.

لاتفاق دعوتهم. وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به[1]".

كما أن الإيمان بهم عليهم السلام يتضمن الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل محمد -ﷺ- ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى وسليمان وداود وإسماعيل ولوط قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾) [الأحزاب: ٧]. وقال تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾)[الأنعام: ٨٣-٨٦]. وقال تعالى: (۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾) [النساء: ١٦٣]. وقال تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾)[آل عمران: ٣٣]. وقال تعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا)[الأعراف: ٦٥]. وقال تعالى: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا)[الأعراف: ٧٣]. وقال تعالى: (مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)[الأعراف: ٨٥]. وقال تعالى: (وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾)[الأنبياء: ٨٥]. ومن لم نعلم اسمه فيجب أن نؤمن بهم إجمالاً كما قال تعالى:

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٣٤ .

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ويذهب الإمام السعدي إلى أن هذه الآية نصت على "الإيمان بجميع الرسل والكتب أي بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله بل يؤمنون بجميعهم لأنهم وسائط بين الله وبين عباده فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله[1]". وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

كما أن الإيمان بالرسل يتضمن الإيمان بأن محمداً -ﷺ- هو خاتمهم كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠]. "فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس"[2]. وروي أن رسول اللّه -ﷺ- خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء. قال: "ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي"[3].

كما أن الإيمان بالرسل عليهم السلام يتضمن التصديق بكل ما صح عنهم من أخبارهم. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [آل عمران: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٢٠.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٩٣.

(٣) البخاري، ب: مناقب علي بن أبي طالب، ج: ٣، ص: ١٣٥٩، رقم الحديث (٣٥٠٣).

[يوسف:١١١]. كما أن الله عز وجل بين أن ما ورد من قصص الأنبياء إنما هو وحي منه تعالى. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود: ٤٩]. كما يجب العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو محمد -ﷺ- خاتم الأنبياء المرسل إلى جميع الثقلين. قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٥]. كما يجب الإيمان بمعجزاتهم التي أيدهم الله بها وجعلها دليلاً على صدقهم. والإيمان بأنهم هداة مهتدون، وأمناء وصادقون ومعصومون في تبليغ الوحي ومعصومون من الكبائر، ويجب توقيرهم واحترامهم. قال تعالى: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ [الفتح: ٩]. "قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد تعظموه (وتوقروه) من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام[١]". قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾[الأحزاب: ٥٧]. يقول الإمام السعدي: "وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى[٢]". "وقد صرح العلماء بأن من عاب نبياً من الأنبياء فقد كفر[٣]".

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٨٦.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٧١.

(٣) القارئ: علي بن سلطان القارئ، الرد على القائلين بوحدة الوجود، تحقيق: علي بن رضا بن عبدالله بن علي رضا. (دار المأمون للتراث، دمشق ط١، ١٤١٥هـ) ج: ١، ص: ١٠٧.

المطلب الثاني

تكذيب الكفار بالرسل عليهم السلام

لقد كانت الأمم التي أرسل الله إليهم الرسل عليهم السلام تقابل رسلهم بالتكذيب والاستنكار عليهم. وقد حكى الله عز وجل موقف هؤلاء الكفار، فقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة:٨٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[الأنعام: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾[الأنعام: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾[الحج: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٦]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[الشعراء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[الشعراء: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾[الشعراء: ١٤١]. وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾[فاطر:٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ

﴿١٢﴾) [ص:١٢]. وقال تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾) (غافر:٥). وقال تعالى: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾) [ق: ١٢]. وقال تعالى: (۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾)[القمر: ٩]. وقال تعالى: (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾)[القمر: ١٨]. وقال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾) [القمر: ٢٣]. وقال تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾)[القمر: ٣٣]. وقال تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞) [الأعراف: ٦٤]. وقال تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾) [الشعراء:١٣٩]. وقال تعالى: (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾) [الشعراء:١٨٩].

وقد رد الله عز وجل على تكذيب هؤلاء المكذبين بالأدلة التي أقامها على صدق الأنبياء والرسل وصحة دعوتهم ومن تلك الأدلة:

أ- المعجزات التي أعطاها الله لأنبيائه:

لقد أيد الله سبحانه وتعالى أنبيائه بالمعجزات التي تدل على صدقهم لأن النفوس مولعة بالتكذيب فأيدهم الله بمعجزات تدل على صدقهم وتقمع المكذبين حتى ينقادوا لرسلهم ويتبعوهم. وقد تكون لنبي أكثر من آية تدل على صدقه، وأغلب هذه الآيات تكون من جنس ما برع فيه أقوامهم لتحديهم وإعجازهم.

فآية صالح عليه السلام الناقة كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[الأعراف: ٧٣]. يقول الإمام الطبري: "وقد جاءتكم حجة وبرهان على صدق ما أقول وحقيقة ما إليه أدعو من إخلاص التوحيد لله وإفراده بالعبادة دون ما سواه وتصديقي على أني له رسول وبينتي على ما أقول وحقيقة ما جئتكم به من عند ربي وحجتي عليه هذه الناقة التي أخرجها الله من هذه الهضبة دليلاً على نبوتي وصدق مقالتي فقد علمتم أن ذلك من المعجزات التي لا يقدر على مثلها أحد إلا الله"[(١)].

وآية موسى عليه السلام العصا ويده. قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[الأعراف: ١٠٧-١٠٨]. يقول الإمام السعدي: "فهاتان آيتان كبيرتان دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه وأنه رسول رب العالمين ولكن الذين لا يؤمنون لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم[(٢)]".

وآية عيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩]. يقول الإمام الطبري: "يقول جل ثناؤه: إن في خلقي من

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٢٢٤.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٩٩.

الطين الطير بإذن الله وفي إبرائي الأكمه والأبرص وإحيائي الموتى وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ابتداء من غير حساب وتنجيم ولا كهانة وعرافة لعبرة لكم ومتفكراً تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أني محق في قولي لكم إني رسول من ربكم إليكم وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق إن كنتم مؤمنين يعني إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته مقرين بتوحيده ونبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها"(١).

وآية نبينا محمد -ﷺ- أعظم معجزة. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]. قال ابن كثير: " قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد، وكذلك محمد -ﷺ- بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً لو كان بعضهم لبعض ظهيراً وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً"(٢).

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٨١.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٦٥-٣٦٦.

ب- صلاح الرسل عليهم السلام وحسن أخلاقهم وصدقهم:

إن الصدق وحسن الأخلاق والصلاح من أعظم الأمور التي تجعل الناس يتقبلوا الدعوة؛ فالأنفس ترغب في الإنسان ذي الخلق الحسن فتحبه وتقبل عليه، وفساد الأخلاق سبب في نفرة النفوس وبغض صاحبها وعدم تقبل الحق منه.

فالرسل جميعاً اصطفاهم الله عز وجل، وكانوا من أفضل أقوامهم وخيارهم وأحسنهم أخلاقاً، قال قوم ثمود لصالح عليه السلام: ﴿ **قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾** ﴾[هود: ٦٢]. يقول الإمام السعدي: " أي قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذه شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه[١]".

وقد وصف الكفار نبينا محمداً -ﷺ- بالصادق الأمين، وقد زكاه الله عز وجل فقال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾** ﴾[القلم: ٤]. ولهذا لم يستطع أهل الكفر والضلال أن يطعنوا في صلاح الأنبياء وحسن أخلاقهم، و لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

ج- أن الرسل عليهم السلام لا يطلبون من أقوامهم أجراً على دعوتهم:

فالرسل عليهم السلام دعوا إلى عبادة الله عز وجل، و لم يطلبوا من أقوامهم جزاء أو حتى شكراً في مقابل تلك الدعوة. وهذا مما يدل على صدق دعواتهم؛ فلو كانوا غير صادقين في قصدهم تبليغ رسالة ربهم التي كلفوا بها لطلبوا مقابلاً لها. فنوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ **وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ**

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٨٥.

أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾)[الشعراء: ١٠٩]. وأيضاً هود عليه السلام يقول لقومه: (يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾) [هود:٥١]. وأيضاً صالح ﷺ يقول لقومه: (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾) [الشعراء: ١٤٥]. وكذلك قال لوط وشعيب عليهم السلام: (وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾) [الشعراء: ١٦٤،١٨٠]. فقد "خاطب به كل نبي قومه إزاحة لما عسى يتوهمونه وإمحاضاً للنصيحة فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير[١]". فقد "كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة"[٢]. والمتأمل في مقالات الأنبياء يرى الأدلة الواضحة على صدق دعوتهم وصحتها.

د- عجز الكفار المكذبين عن إبادة الأنبياء واستئصالهم:

لقد وعد الله عز وجل رسله بالنصر على أعدائهم، وأخبر بأن رسله منصورون بنصره سبحانه، كما قال تعالى: (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾) [غافر: ٥١]. "قال ابن عباس: بالغلبة والقهر. وقال الضحاك: بالحجة وفي الآخرة بالعذاب. وقيل بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة. وكل ذلك قد كان للأنبياء والمؤمنين؛ فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بالقهر على من ناوأهم وإهلاك أعدائهم، ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من

---

(١) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢١٦.

(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣٩٧.

أعدائهم، كما نصر يحيى بن زكريا لما قُتل قُتل به سبعون ألفاً؛ فهم منصورون بأحد هذه الوجوه"[١].

فالله عز وجل حافظٌ رسله عليهم السلام من كيد أعدائهم ومكرهم، ولأجل ذلك تحدى هود عليه السلام قومه عندما قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾[هود: ٥٤-٥٦]. فعندما كذبه قومه تبرأ من آلهتهم، ثم تحداهم أن يمسوه بسوء على الرغم من أنه فرد واحد وهم جماعة كثيرة وقوية وذلك لأنه توكل على ربه وهو نعم الوكيل. يقول صاحب "التسهيل لعلوم التنزيل": "فهذا أمر بمعنى التعجيز؛ أي لا تقدرون أنتم ولا آلهتكم على شيء. ثم ذكر سبب قوته في نفسه وعدم مبالاته بهم فقال: إني توكلت على الله الآية"[٢]. ويقول الإمام السعدي: "وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة وهو أن قومهم في الغالب أن لهم القهر والغلبة عليهم فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله في دفع كيدهم ومكرهم وجازمون بكفايته إياهم وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾[يونس: ٧١]"[٣]. ولقد أمر الله عز وجل رسوله محمداً -ﷺ- بتبليغ رسالته وأخبره بأنه سيحفظه من الناس كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

---

(١) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٠٠.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٠٧.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٢٣.

رَبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾)[المائدة: ٦٧]. فهذه الآية "وعد وضمان للعصمة، وكان رسول الله يخاف أعداءه ويحترس منهم في غزواته وغيرها، فلما نزلت هذه الآية قال: يا أيها الناس انصرفوا فإن الله قد عصمني وترك الاحتراس"[١]. ويقول الإمام السعدي: "هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك فأنت إنما عليك البلاغ المبين فمن اهتدى فلنفسه وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم[٢]". وهذا كله دليل على صحة دعوة الرسل عليهم السلام فلم يكن الله لينصرهم ويعصمهم من الناس ودعوتهم باطلة.

هـــ- إهلاك الله عز وجل للمكذبين المعاندين للرسل عليهم السلام:

ولقد جرت سنة الله عز وجل فيمن كذب رسله عليهم السلام أن يهلكهم ويستأصلهم وأن يبيدهم بأنواع مختلفة من العقوبات، وذلك بسبب ظلمهم وتجبرهم وتكذيبهم بالحق لما جاءهم، وهم مع ذلك لم يستطيعوا رد تلك العقوبات عن أنفسهم. والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم؛ فقوم صالح عليه السلام أهلكهم الله بالصيحة. قال تعالى: (فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ)[هود: ٦٦-٦٧]. وكذلك قوم شعيب عليه السلام قال تعالى: (وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ)[هود: ٩٤].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ١، ص: ١٨٣.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٣٩.

وأهلك قوم لوط عليه السلام بأن جعل عالي قراهم سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[هود: ٨٢]. وأمثال ذلك من العقوبات التي عاقب الله عز وجل بها من كذبه كثيرة. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[العنكبوت:٤٠]. وكل هذا دليل على صحة دعوة الرسل عليهم السلام وصدقهم فيما دعوا إليه فلو كانوا كاذبين فيما قالوا لما أهلك الله عز وجل من كذبهم وأبادهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذلك ما يفعله الله من الآيات والعقوبات بمكذبي الرسل، كتغريق فرعون، وإهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، وأمثال ذلك فإن هذا من جنس لم يعذب به إلا من كذب الرسل، فهو دليل على صدق الرسل"[1].

و- إخبار الرسل عليهم السلام بالمغيبات:

إن إخبار الرسل عليهم السلام بالمغيبات الماضية والمستقبلة دليل قاطعة على صدق الرسل عليهم السلام، ومن ذلك إخبار عيسى ﷺ قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. قال الله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[آل عمران: ٤٩]. وإخبار الرسول -ﷺ- بأخبار الأمم السابقة وما كان منهم وكيف أن الله عز وجل أهلكم، وإخباره أيضاً بالفتن التي تأتي في آخر الزمان وأشراط الساعة التي ستكون في المستقبل، كل ذلك من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل.

---

(١) النبوات، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٩٤.

المبحث الثاني

شبهات الكفار المكذبين والمنكرين للرسل عليهم السلام

يحاول أعداء الدين في كل زمان ومكان تشويه دعوة الأنبياء وردها بكل طريق يجدون إليه سبيلاً، وذلك من خلال الشبهات التي يثيرونها حول دعوة الرسل. ومن تلك الشبه ما يلي:

الشبة الأولى: بشرية الرسل عليهم السلام:

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسل الذين أرسلهم لدعوة عباده بشراً ولم يكونوا ملائكة، ولكن جميع الأمم استغربت من هذا الأمر واستندوا في تكذيبهم لما جاؤوا به على أن الذين أرسلوا إليهم بشر. قال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾)[إبراهيم: ٩-١٠]. وقال سبحانه: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾) [التغابن: ٦]. وقد قال قوم نوح لنوح عليه السلام: (فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾) [المؤمنون: ٢٤]. وقال قوم موسى عليه السلام: (فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾)[المؤمنون: ٤٧]. وقال قوم هود عليه السلام: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾)[المؤمنون: ٣٣-٣٤]. وقال قوم صالح عليه السلام: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾) [القمر: ٢٣-٢٤]. وقال قوم شعيب عليه السلام: (قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾)[الشعراء: ١٨٥-١٨٦]. ومثل هذا في القرآن كثير.

ولقد صرح الله عز وجل بأن المانع للناس من الإيمان هو إرسال البشر بقوله: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾)[الإسراء: ٩٤]. وقد رد الله عز وجل على شبهتهم هذه بما يدمغ الباطل ويظهر الحق، وقد نقضها الله عز وجل هذه الشبهة من بدليلين:

*** الدليل النقلي:**

إن الرسل عليهم السلام أقروا بأنهم بشر، وأن إرسال الله لهم بشراً إنما هو أمر يتفضل الله به على من يشاء، وأن كونهم بشراً حكمة من الله تعالى ويتضح ذلك فيما حكى الله تعالى في كتابه الكريم: (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾) [إبراهيم: ١١]. يقول الإمام الرازي: "فجوابه أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من

عباده فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة"[١]. ويقول الإمام الشنقيطي: "فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعنصرهم واحد وأنهم تجري على جميعهم الأعراض البشرية لا ينافي تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضروري[٢]". ثم إن مشابهة الرسل عليهم السلام لغيرهم من حيث البشرية لا ينفي أن يكونوا مرسلين من عند الله تعالى. يقول الإمام الشنقيطي: "فالمشابهة بين الرسل وغيرهم في كون الجميع بشراً لا تقتضي المساواة بينهم في انتفاء الرسالة عنهم جميعاً، ولما قالوا للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠] أجابوهم بقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾وقياس الكفار الرسل على سائر البشر في عدم الرسالة قياس ظاهر البطلان لأن الواقع من التخصيص والتفضيل وجعل بعض البشر شريفاً وبعضه دنياً وبعضه مرؤوساً وبعضه رئيساً وبعضه ملكاً وبعضه سوقاً يبطل هذا القياس[٣]".

*** الدليل العقلي:**

يقول ابن كثير: "إن من لطف الله ورحمته أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته[٤]"ثم"إن الجنس إلى الجنس أميل فصح أن يرسل إليهم من جنسهم لئلا ينفروا وليعقلوا عنه، ثم تخصيص ذلك الجنس بما عجز عنه دليل على صدقه[٥]". ويقول الإمام القرطبي: "ولأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه فلو جعل الله تعالى الرسول إلى

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٩، ص: ٧٦.

(٢) تفسير أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٣٥٦.

(٣) تفسير أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٩٠.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٦٥.

(٥) تلبيس إبليس، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٣-٨٤.

البشر ملكاً لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله فلا تعم المصلحة"[١].

الشبهة الثانية: أن الرسول لا بد أن يكون ملكاً:

ومن الشبه التي أثارها الكفار ضد الرسل الذين أرسلوا إليهم هو كون الله تعالى لم يجعل رسله من الملائكة كما قال قوم نوح ﷺ: (**فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾**) [المؤمنون: ٢٤]. وكما قال عاد وثمود عندما جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم فقالوا: (**جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾**) [فصلت: ١٤]. ثم إن شبهتهم لم تقف فقط عند كون الرسول لا بد أن يكون ملكاً، ولكن إذا كان هذا الرسول من البشر فلا بد أن يكون معه ملك من الملائكة حتى يصدقوه ويتبعوه كما قال فرعون لموسى ﷺ: (**أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾**) [الزخرف: ٥٢-٥٣]. وكما قال مشركو العرب عن النبي محمد -ﷺ-: (**وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾**) [الفرقان: ٧]. (**وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ**) [الأنعام: ٨-٩].

---

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٣٩٣-٣٩٤.

يقول الرازي في هذه الشبهة: "اعلم أن هذا النوع الثالث من شبه منكري النبوّات فإنهم يقولون: لو بعث الله إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر وقدرتهم أشد ومهابتهم أعظم وامتيازهم عن الخلق أكمل والشبهات والشكوك في نبوّتهم ورسالتهم أقل[١]".

وقد نقض الله هذه الشبه ورد عليها، ويتضح ذلك من خلال الآيات السابقة:

١- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[الأنعام: ٨-٩].

وهذه الآية تتضمن أمرين هما:

الأمر الأول: أنه في حين إنزال الملائكة على صورتهم الحقيقة التي خلقوا عليهم ثم لم يؤمنوا هؤلاء الكفار بهم فإن ذلك سوف يكون سبباً في تعجيل العقاب لهم واستئصالهم دون إمهال لهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾. "قال قتادة: لو أنزلنا ملكاً ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب و لم يؤخروا طرفه عين"[٢]. فهذه سنة الله تعالى في الكفار إذا طلبوا آية ثم كفروا بها و لم يؤمنوا أن يعجل لهم العقاب. يقول الإمام السعدي: "لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع؛ فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم وأرسل لم يطيقوا التلقي عنه ولا احتملوا ذلك ولا أطاقته قواهم الفانية[٣]".

---

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٢، ص: ١٣٣.

(٢) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٨٦.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٥١.

الأمر الثاني: أن يجعل الله الرسول ملكاً فيكون هذا الملك على هيئة رجل. قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾. وذلك حتى يطيقوا رؤيته والأخذ عنه وحتى يأنسوا به ولا ينفروا منه: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾. يقول الإمام القرطبي: "ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك. وعادوا إلى مثل حالهم، وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطاً في صورة الآدميين وأتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي[(١)] أي لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء ولو نزل على عادته لم يروه فإذا جعلناه رجلاً التبس عليهم[(٢)]". فلم ينتفعوا حينئذ بإرسال الملك إليهم ولرجعوا إلى شكهم هل هو ملك أم بشر؟!

٢- في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]. فإنزال الملائكة إلى الأرض يقتضي أن يكون أهل الأرض ملائكة لأنهم هم الذين فقط يقدرون على رؤيتهم وعلى الأخذ منهم والسماع لهم. يقول الشنقيطي: "بين جل وعلا في هذه الآية أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم فلو كان

---

(١) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف الكلبي، صحابي مشهور أول مشاهده الخندق، وقيل أحد ولم يشهد بدرا، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته،وقد شهد دحية اليرموك وكان على كردوس وقد نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية. " انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ٢ ص: ٣٨٤-٣٨٥".

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٣٩٤.

مرسلاً رسولاً إلى الملائكة لنزل عليهم ملكاً مثلهم أي وإذا أرسل إلى البشر أرسل لهم بشراً مثلهم"[١].

ويقول الإمام الرازي: " أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس إلى الجنس أميل أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر[٢]".

٣- في قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾[الحجر: ٨]. فقد رد الله عز وجل على هؤلاء الكفار حيث بين أن نزول الملائكة لا يكون إلا بالوحي أو لمصالح ولا يكون ذلك لاقتراح يقترحه هؤلاء الكفار. يقول الإمام الرازي: "إن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وعند حصول الفائدة وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم وعلى هذا التقرير فيصير إنزالهم عبثاً باطلاً ولا يكون حقاً فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى[٣]". "وقال مجاهد في قوله: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ بالرسالة والعذاب[٤]". كما بين الله تعالى أن الكفار عندما يرون الملائكة لن يستبشروا قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢ ﴾[الفرقان: ٢٢]. يقول الإمام الشنقيطي: "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار الذين طلبوا إنزال الملائكة عليهم أنهم يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم أي لا تسرهم رؤيتهم ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير. ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم وتكون يوم القيامة ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين[٥]".

---

(١) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٨٦.

(٢) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٢١، ص: ٥٠.

(٣) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٩، ص: ١٢٦.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٤٨.

(٥) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٣٨.

الشبهة الثالثة: أن الرسل لا بد أن يكون من أهل الجاه والثراء:

وهذه الشبهة تقوم على فرضية تسليم الكفار على كون الرسول من البشر فلا بد عندهم أن يكون هذا الرسول من ذوي الجاه والثراء وأن يكون غنياً لا فقيراً حتى يؤمنوا به ويصدقوه. كما قالت ثمود لصالح عليه السلام: (أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾)[القمر: ٢٥]. وكما قال مشركو العرب للنبي محمد -ﷺ-: (أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾) [ص: ٨]. وقالوا أيضاً: (وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾) [الزخرف: ٣١]. يعنون "بالقريتين: مكة والطائف، وعنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة وبعظيم الطائف عروة بن مسعود الثقفي، وأرادوا بالعظيم من كان ذا مال وذا جاه ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيماً"(١). فاقترحوا هذا الاقتراح زاعمين أنهما أحق بالنبوة وحمل الرسالة من النبي -ﷺ-.

*** ونقض هذه الشبهة يكون بالدليل النقلي:**

١- بقوله تعالى في الرد على قول ثمود لصالح عليه السلام: (أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾)[القمر: ٢٥]. فقد هددهم الله عز وجل وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة بسبب هذه المقولة، فقال تعالى: (سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾)[القمر: ٢٦]. "أي سيرون العذاب يوم القيامة أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا"(٢).

---

(١) تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١١٣.

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ١٧، ص: ١٣٩. تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٩٦.

٢- قال تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾[ص: ٨-١٠]. ففي قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ "وعيد لهم وتهديد والمعنى أنهم إنما حملهم على الكفر كونهم لم يذوقوا العذاب فإذا ذاقوه زال عنهم الشك وأذعنوا للحق"(١). وفي قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾يقول الإمام السعدي: "فيعطون منها من شاؤوا ويمنعون منها من شاؤوا حيث قالوا: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ أي هذا فضله تعالى ورحمته وليس ذلك بأيديهم حتى يتجرؤوا على الله"(٢). وفي قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾توبيخ لهم وتعجيز لهم حيث إن الله تعالى أمرهم "إن ادعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا في الأسباب التي توصلهم إلى السماء فليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون. قال مجاهد وقتادة: أراد بالأسباب أبواب السماء وطرقها من سماء إلى سماء. وكل ما يوصلك إلى شيء من باب أو طريق فهو سببه. وهذا أمر توبيخ وتعجيز"(٣).

٣- قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٢]. يقول الرازي: "وتقرير هذا الجواب من وجوه أحدها أنا أوقعنا التفاوت في مناصب

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٨٠.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧١٠.

(٣) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٤٩.

الدنيا و لم يقدر أحد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوّة بأن لا يقدروا على التصريف فيه كان أولى"[(١)]. ويقول السعدي: "فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى وهو الذي يقسمها بين عباده فيبسط الرزق على من يشاء ويضيقه على من يشاء بحسب حكمته فرحمته الدينية التي أعلاها النبوة والرسالة وأحرى أن تكون بيد الله تعالى فالله أعلم حيث يجعل رسالته[(٢)]". ويقول ابن كثير: "أي ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته؛ فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً"[(٣)].

٤- وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]". قال المفسرون: قال الوليد بن المغيرة: والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها من محمد فإني أكثر منه مالاً وولداً. فنزلت هذه الآية. وقال الضحاك: أراد كل واحد منهم أن يخص بالوحي والرسالة كما أخبر الله تعالى عنهم[(٤)]". وقد رد الله عز وجل على هذا بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ يقول السعدي: "فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين فضلاً عن أن يكونوا من النبيين والمرسلين فقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ

(١) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٢٧، ص: ١٨٠.
(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧٦٥.
(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٢٨.
(٤) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٣، ص: ١٤٣.

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ). فيمن علمه يصلح لها ويقوم بأعبائها وهو متصف بكل خلق جميل ومتبرئ من كل خلق دنيء أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً ومن لم يكن كذلك لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده[1]". يقول ابن كثير: "الآية هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله (صَغَارٌ) وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا وأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا"[2].

الشبهة الرابعة: وصف الأنبياء والرسل بالكذب والجنون والسحر والسفه:

لقد سلك الكفار ضد الأنبياء والرسل عليهم السلام مسلكاً جديداً لرد دعوتهم وهو إلصاق التهم بهم والقدح فيهم؛ فوصفوهم بالكذب والسحر والجنون، كل ذلك حتى يردوا دعوتهم فكيف تقبل من ساحر وكاذب وكاهن ومجنون؟! قال تعالى عن فرعون مشهِّراً بموسى عليه السلام: (فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾)[الذاريات: ٣٩]. وكذلك في سورة الذاريات بعد أن قص الله بعضاً من أخبار قوم هود وقوم نوح قال تعالى: (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾) [الذاريات: ٥٢]. يقول الشنقيطي: "فبين أن سبب تواطئهم على ذلك ليس التواصي به لاختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ولكن الذي جمعهم على ذلك مشابهة بعضهم لبعض في الطغيان[3]". وكذلك نبينا محمد -ﷺ- لم يسلم من هذا الأذى فقال له قومه: (وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾)[ص: ٤]. وقالوا عنه أيضاً شاعر: (بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾)[الأنبياء:

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٧٢.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٧٥.

(٣) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٣٤٠.

٥]. يقول السعدي: "وإنما يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به تنفيراً عنه لمن لم يعرفه"[١].

ونقض هذه الشبهة بالأسلوب العقلي من خلال الآيات القرآنية الكريمة.

أولاً: نشأة الرسل عليهم السلام:

لقد كانت نشأة الرسل عليهم السلام في وسط أقوامهم و لم تكن بعيدة عنهم، فعرفوهم حق المعرفة وعرفوا ما كانوا عليه من مكارم الأخلاق ورجاحة العقول وسداد الرأي وأنهم منزهون عن الكذب والافتراء. قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ ﴾[هود: ٦٢]. يقول ابن كثير: "وهذه شهادة منهم لنبيهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وأنه من خيار قومه ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملاً والآن أخلفت ظننا فيك وصرت بحالة لا يرجى منك خير وذنبه ما قالوه عنه: ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾؟! وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح"[٢]. فشهدوا له بالصلاح ومكارم الأخلاق ورجاحة العقل. كما ذكر تعالى أن كفار قريش كانوا يعرفون محمداً -ﷺ- حق المعرفة، فقال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٩-٧٠]. يقول ابن كثير: "أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم؟! أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهته فيه؟! ولهذا قال جعفر بن

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥١٨-٥١٩.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٨٥.

أبي طالب[١] رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي -ﷺ- ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك[٢]".

٢ـ مخالفة ما جاء به الرسل عليهم السلام للشعر والسحر والجنون:

لقد شهدت الفطر السليمة والعقول الراجحة بأن ما جاء من عند الله ليس مما ينطبق عليه السحر ولا الشعوذة ولا الشعر ولا الجنون، كما أن الكفار أنفسهم شهدوا بأن ما جاء به الرسل عليهم السلام لا ينطبق عليه شيء من ذلك كما قال الوليد ابن المغيرة عندما جاء إلى الرسول -ﷺ- وأسمعه الرسول -ﷺ- شيئاً من القرآن الكريم فعاد إلى كفار قريش وأخبرهم بأن ما سمعه من الرسول -ﷺ- لا ينطبق عليه وصف السحر أو الكهانة أو الجنون أو الشعر. ومع هذا وصف ما جاء به الرسول -ﷺ- بالسحر مع أنه في قرارة نفسه ليس مقتنعاً بذلك، ولكن حمله على ذلك الكبر والإعراض عن الحق. وقد ذم الله عقول هؤلاء الكفار بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾[الطور: ٣٢]. "أي أهذا التكذيب لك والأقوال التي قالوها هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم فبئس العقول والأحلام التي هذه نتائجها وهذه ثمراتها فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً مجنوناً وجعلت أصدق الصدق وأحق الحق كذباً وباطلاً لهي العقول التي ينزه المجانين عنها أم الذي حملهم على ذلك ظلمهم وطغيانهم وهو

---

(١) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، أبو عبد الله بن عم النبيﷺ ، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأخو علي شقيقه، قال بن إسحاق أسلم بعد خمسة وعشرين رجلا وقيل بعد واحد وثلاثين قالوا وآخى النبيﷺ بينه وبين معاذ بن جبل، كان أبو هريرة يقول إنه أفضل الناس بعد النبيﷺ ، استشهد بمؤتة من أرض الشام مقبلا غير مدبر مجاهدا للروم في حياة النبيﷺ سنة ثمان."انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج: ١ ص: ٤٥٨-٤٨٧".

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٥١.

الواقع فالطغيان ليس له حد يقف عليه فلا يستغرب من الطاغي المتجاوز الحد كل قول وفعل صدر منه"[١].

وقد نفى الله تعالى عن نبيه محمد -ﷺ- كل ما وصفه به الكفار: (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾) الطور: [٢٩-٣٠].

الشبهة الخامسة: تحدي الأنبياء بطلب أمور معجزة لإظهار عجزهم عليهم السلام:

لقد جرت سنة أعداء الرسل عليهم السلام من لدن نوح عليه السلام حتى نبينا محمد -ﷺ- على إثارة الشبهات، ومطالبة الرسل عليهم السلام، بالآيات والمعجزات، لا رغبة منهم في زيادة الإيمان والاطمئنان إلى ما جاؤوا به، وإنما أردوا مشاقة الرسل عليهم السلام وإظهار عجزهم، حتى يؤكدوا لمن حولهم من ضعفاء النفوس أنهم على حق في عدم الإيمان بهؤلاء الرسل عليهم السلام. قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾)[البقرة: ١١٨]. وقال تعالى عن أهل الكتاب: (يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾)[النساء: ١٥٣]. كما أن مشركي العرب طلبوا من الرسول محمد -ﷺ- مطالب فقالوا: (وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨١٦.

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾)[الإسراء: ٩٠-٩٤]. يقول الإمام السعدي: "فهذا دأبهم مع رسلهم يطلبون آيات التعنت لا آيات الاسترشاد و لم يكن قصدهم تبين الحق فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر"[(١)]. وقد تولى الله عز وجل الرد عليهم في آيات كثيرة ومن ذلك:

١-قال تعالى: (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾): "هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له لا يقدر على ذلك غيره[(٢)]". فما أنا إلا رسول "كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حال قومهم و لم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله[(٣)]". وقال تعالى: (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى) [الأعراف: ٢٠٣]. "أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي فإن بعث آية قبلتها وإن منعها

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٤.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٥، ص: ١٦٤.

(٣) تفسير البيضاوي ج: ٣، ص: ٤٦٧.

لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم[١]". كما نفى تعالى أن يأتي رسول بآية إلا بإذنه سبحانه. قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾) [الرعد:٣٨]. "فإن المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح منها"[٢].

٢- قال تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾)[الإسراء: ٥٩]. يقول ابن كثير: "أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها"[٣]. يقول البيضاوي: "(وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ) إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سنتنا"[٤]. وقال السعدي: "وهؤلاء كذلك لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه هل هو حق أو باطل فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة بما دل على صحة ما جاء به الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها فترك إنزالها

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٨١.
(٢) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٢٨٥. تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ١٠٢.
(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٩.
(٤) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٥٣.

والحالة هذه خير لهم وأنفع"[١]. وقال تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾ [الأنبياء: ٥-٦]. "والمعنى أنهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثاً.[٢]".

٣- قال الله تعالى عن قوم موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢ ﴾[الأعراف: ١٣٢]. وقال تعالى عن كفار قريش: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٥ ﴾ [الأنعام: ٢٥]. يقول ابن كثير: "أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج والبينات والبراهين لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف[٣]". وقال السعدي: "وهذا غاية الظلم والعناد أن الآيات البينات الدالة على الحق لا ينقادون لها ولا يصدقون بها بل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق"[٤]. وقال تعالى عنهم أيضاً: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ ﴾[القمر: ٢]. يقول السعدي: "فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعاً واتبعوا محمداً -ﷺ- لأن الله أراهم على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٦١.
(٢) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٢٢، ص: ١٢٤.
(٣) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٢٨.
(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٥٤.

والمقاصد الشرعية[١] ". وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[يونس: ٩٧]. قال الإمام السعدي: "فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[٢]". وقال الشوكاني: "﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ من الآيات التكوينية والتنزيلية فإن ذلك لا ينفعهم لأن الله سبحانه قد طبع على قلوبهم وحق منه القول عليهم"[٣]. ﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾[الأنعام: ٤]. قال السعدي: " هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين وشدة تكذيبهم وعداوتهم وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثلات"[٤]. وقال الطبري: "إلا أعرضوا عنها؛ يعني عن الآية فصدوا عن قبولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلت على صحته جهلاً منهم بالله واغتراراً بحلمه عنهم"[٥].

والخلاصة من كل ما تقدم أن الكفار لم يقيموا حجة صحيحة مبنية على الدليل والبرهان فيما ادعوه، وأن ما جاؤوا به من الشبه والمطالب مبني فقط على العناد والاستكبار والإنكار والتكذيب.

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٢٤ ، وانظر: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٧ ص: ٨٧.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٧٤.

(٣) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٤٧٤.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٥٠.

(٥) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ١٤٨.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط وهي كتالي:

١- أن الإيمان بالرسل عليهم السلام أصل من أصول الاعتقاد، والركن الرابع من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها.

٢- أن حقيقة الإيمان بالرسل تقتضي التصديق الجازم بأنهم مبعوثون من عند الله تعالى، وأنهم صادقون مصدقون، وأنهم بلغوا جميع ما أمروا بتبليغه فلم يكتوه و لم يحرفوه، وأن دعوتهم جميعا من أولهم إلى آخرهم اتفقت على أصل العبادة، كما تقتضي التصديق بكل ما صح من أخبارهم، والإيمان بمعجزاتهم التي أيدهم الله بها.

٣- يحاول أعداء الدين في كل زمان ومكان صد الناس عن قبول دعوة الرسل عليهم السلام من خلال إثارة الشبهات التي تشكك في صحت دعوة الرسل عليهم السلام، ومن هذه الشبه، كون الرسل عليهم السلام بشرا، وكون الرسول لا بد أن يكون ملكا، وأن الرسول لا بد أن يكون من أهل الجاه والثراء، ثم لم يكتفوا بذلك حتى وصفوهم بالكذب والجنون والسحر والسفه، وتحدوهم بطلب أمور معجزة لإظهار عجزهم، ولكن الله عز وجل أبطل كل هذا في كتابه الكريم فبين أن هذه الشبه لم تبنى على الدليل والبرهان وإنما بنيت على العناد والاستكبار والإنكار والتكذيب.

الفصل الخامس

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من اليوم الآخروالرد عليهم

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: حقيقة الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثاني: شبه المنكرين لليوم الآخر.

الفصل الخامس

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من اليوم الآخر والرد عليهم

تمهيـد:

إن الإيمان باليوم الآخر –أو يوم البعث، أو يوم الجمع، أو يوم الفزع الأكبر، أو يوم التناد، أو يوم الدين، أو يوم الحسرة، أو يوم الفصل، أو الواقعة، أو الحاقة، أو الطامة، أو يوم الحشر، وغير ذلك من أسماء اليوم الآخر التي تعددت في القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من أهوال ومشاهد، ابتداء بحياة البرزخ إلى ما بعد ذلك من بعث، وحشر، وحساب، وجنة، ونار– ضرورة حتمية؛ إذ هو الركن الخامس من أركان الإيمان. فالمتأمل فيما خلق الله عز وجل في هذا الكون من دلائل على ربوبيته وألوهيته، يعلم علما يقينياً بأنه لم يخلق عبثاً ولا سدى. قـــال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المؤمنون: ١١٥].

ولقد اتفق المسلمون وغيرهم من أهل الملل كاليهود والنصارى على إثبات المعاد؛ فحين ظلت الوثنية السائدة بين العرب تنكر البعث وتعتبر إحياء الأموات ضرباً من الخرافة أو المستحيل معتمدين في ذلك على القياس الفاسد فقاسوا بعقولهم القاصرة قدرة الله عز وجل بقدرة البشر، فاعتقدوا استحالة ذلك. وسوف أتناول –بإذن الله تعالى– في هذا الفصل مبحثين:

المبحث الأول: حقيقة الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الثاني: شبه المنكرين لليوم الآخر.

المبحث الأول

حقيقة الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، ولقد ربط الله عز وجل بين الإيمان به سبحانه وبين الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات القرآنية فقال تعالى: (وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾)[البقرة: ٤]. وقال تعالى: (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ) [البقرة:١٧٧]. وقال تعالى: (يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾)[آل عمران: ١١٤]. وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي ربطت بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن التصديق الجازم بأنه واقع لا محالة، والإيمان بكل ما هو داخل فيه مما أخبر عنه الله عز وجل في كتابه الكريم، أو أخبر به رسوله -ﷺ- من الإيمان بالموت وأنه مصير كل من كان في الدنيا من اللإنس والجن والملائكة وكل مخلوق على وجه الأرض. قال الله تعالى: (كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾) (القصص:٨٨). وقال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾)[آل عمران: ١٨٥]. ويدخل في ذلك أيضاً الإيمان بأن الله عز وجل جعل لكل نفس أجلاً محدوداً وأمداً تنتهي إليه لا تزيد عنه ولا تقصر. قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن

تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾) [آل عمران:١٤٥]. وقال تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾)[الأعراف: ٣٤]. ولقد أخبر الله عز وجل أن هذا الأجل من مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو سبحانه. قال تعالى: (وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾) [لقمان: ٣٤]. والإيمان أيضاً بما في الموت من أحوال الاحتضار وما بعده من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، فإن الإنسان بمجرد خروج روحه ومفارقتها لجسده تودع إما في روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار فقد أخبر الله عز وجل عن قوم نوح عندما أهلكهم بالغرق أنهم أدخلوا ناراً. قال تعالى: (مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾)[نوح: ٢٥]. وقال عن فرعون وقومه: (وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾)[غافر: ٤٥-٤٦].

وأما عن نعيم القبر فهو كما أخبر الله عز وجل عن الذين يقتلون في سبيله بأنهم في قبورهم في رياض الجنة. قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾) [آل عمران: ١٦٩].

كما يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بعلامات الساعة التي تسبقه. والقرآن الكريم مليء بالآيات التي وردت فيها بعض علامات الساعة ومنها الدخان. قال تعالى: (فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ

بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾)[الدخان: ١٠]. ومنها عيسى عليه السلام. قال تعالى: (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾) [النساء: ١٥٨-١٥٩]. ومنها أيضاً يأجوج ومأجوج. قال تعالى: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾)[الكهف: ٩٢-٩٩].

والإيمان أيضاً بأهوال اليوم الآخر وبالنفخ في الصور. قال تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾) [الأنعام: ٧٣]. وقال تعالى: (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾)[الكهف: ٩٩]. وقال تعالى: (وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾)[الزمر: ٦٨].

والإيمان بالبعث والنشور. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف:١٢]. وقال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٥]. والإيمان أيضاً بما في القيامة من أهوال وشدائد، والإيمان أيضاً بالحشر، والحساب والجزاء، والجنة والنعيم. والإيمان أيضاً بلقاء الله عز وجل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[العنكبوت: ٥].

ولقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن جميع الأنبياء عليهم السلام آمنوا باليوم الآخر وبالجنة والنار، وأنها من الأصول التي عرفوا بها أممهم وذكروهم بها؛ فقد بشروهم بالجنة إن هم أطاعوهم، وحذروهم من النار إن هم عصوهم وخالفوا أمرهم.

فنوح عليه السلام قال: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾[نوح: ٤].

وأما قوم هود عليه السلام فأخبر الله تعالى أن هود عليه السلام بين لهم حقيقة اليوم الآخر وخوفهم منه، ويتضح ذلك من خلال قول قومه: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ

ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)[المؤمنون: ٣٣-٤١].

وأما صالح عليه السلام فقد حذر قومه اليوم الآخر ولكنهم كذبوا بذلك. قال تعالى: (كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾)[الحاقة: ٤].

وأما إبراهيم عليه السلام فقد ورد ذكر اليوم الآخر كثيراً في قصته عليه السلام. قال تعالى: (وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾)[البقرة: ١٢٦].

كما أن يوسف عليه السلام جاء في قصته ما يدل على دعوته لقومه للإيمان باليوم الآخر. قال تعالى: (قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾)[يوسف: ٣٧].

وأما موسى عليه السلام فقد جاء في قصته ما يدل على دعوته لفرعون وقومه: (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ) [القصص: ٣٧].

وأما شعيب عليه السلام فقد ذكر قومه باليوم الآخر. قال عز وجل: (وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾) [العنكبوت: ٣٦].

وقال عيسى عليه السلام عند ولادته عندما تكلم في المهد: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٣].

وفي دعوة نبينا محمد -ﷺ- خاتم النبيين الذي ختم الله برسالته جميع الرسالات، دعوة إلى الإيمان باليوم الآخر. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى:٧].

"والحاصل أن هذا أمر اتفقت عليه الشرائع، ونطقت به كتب الله عز وجل سابقها ولاحقها وتطابقت عليه الرسل أولهم وآخرهم، و لم يخالف فيه أحد، وهكذا اتفق على ذلك أتباع جميع الأنبياء من أهل الملل والنحل و لم يسمع عن أحد منهم أنه أنكر ذلك"[١].

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٨٩-٥٩٠.

المبحث الثاني

شبه المنكرين لليوم الآخر

وقد حكى الله عز وجل قول هؤلاء الكفار المنكرين للبعث مطلقاً في كتابه الكريم، وبين تمسكهم بما ورثوه من آبائهم من إنكار للبعث بعد الموت ومجادلتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الرعد: ٥]. وقـال تعالى: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[الإسراء: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الإسراء:٩٨]. وقال تعالى: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[المؤمنون:٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[النمل: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٦]. وقال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الصافات: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ق:٣]. وقال تعالى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الواقعة:٤٧]. وقال تعالى: ﴿ أَءِذَا

كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾) [النازعات:١١]. وهذا مجمل ما قصه الله تبارك وتعالى علينا من أقول المكذبين بالبعث والنصوص في ذلك كثيرة.

والمتأمل في النصوص يجد أن شبهتهم قامت على أمرين هما:

أولاً: الظن. وذلك حين قالوا: (مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾)[الجاثية: ٢٤]. والظن في حقيقة الأمر كما أخبر الله تعالى أنه لا يغني عن الحق شيئاً.

ثانياً: استبعادهم أن يستطيع الله عز وجل جمع ما تفرق من أجزائهم بعد الموت.

ونقض هذه الشبهة يعتمد عل دليلين هما:

١ـ الدليل الحسي:

فقد أثبت الله عز وجل البعث بوقوعه في الحياة الدنيا كما في قصة خلق آدم عليه السلام وكما في قصة البقرة. قال تعالى: (فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ)[البقرة: ٧٣]. وكما في قصة الملأ الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت. قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾) [البقرة:٢٤٣]. عن ابن عباس قال: "كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من

الطاعون فأماتهم الله فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم حتى يعبدوه فأحياهم"[١]. وكما في قصة إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وفي قصة الذي مر على قرية وهي خاوية. قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٩]. يقول الإمام الطبري: "والمقصود بهذه الآية تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب"[٢].وفي قصة أصحاب الكهف. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩]. يقول الإمام الطبري: "وإن الله أعثر عليهم القوم الذين أعثرهم عليهم ليتحقق عندهم -ببعث الله هؤلاء الفتية من رقدتهم بعد طول مدتها بهيئتهم يوم رقدوا و لم يشيبوا على مر الأيام والليالي عليهم و لم يهرموا على كر الدهور والأزمان فيهم- قدرته على بعث من أماته في الدنيا من قبره إلى موقف القيامة يوم القيامة؛ لأن الله عز ذكره بذلك أخبرنا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٥٨٦. وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٩٩. وانظر: الدر المنثور، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٧٤١.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٩. وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣١٥. وانظر: تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٤٥

ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ)"[١] [الكهف:٢٠]. وكذلك ما أجرى الله عز وجل على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى فقال تعالى: (وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ)[آل عمران: ٤٩]. وقال تعالى: (وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِي) [المائدة: ١١٠].

٢ـ الدليل العقلي وفيه:

أ– الاستدلال بقدرة الله عز وجل على الخلق من العدم على قدرته على الإعادة مرة أخرى:

قال تعالى: (إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ)[يونس: ٤]. يقول الإمام السعدي: "فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكر إعادته للخلق فهو فاقد العقل منكر لأحد المثلين مع إثبات ما هو أولى منه؛ فهذا دليل عقلي واضح على المعاد[٢]". وقال تعالى: (ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾) [الروم:١١]. يقول الإمام الرازي في تفسيره: "فمن خلق بالقدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة فإليه ترجعون[٣]". وقال تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾)[الروم: ٢٧]. "فالإعادة يوم القيامة أهون عليه من الخلقة الأولى، وهذا تقريب لفهم السامع وتحقيق للبعث؛ فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثاني مرة،

---

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٥، ص: ٢٢٢–٢٢٣. وانظر: أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٠٩. وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص، ٧٨.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٥٧. وانظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج:٣، ص: ١٠٤.

(٣) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ٢٥، ص: ٨٩.

ولكن الأمور كلها متساوية عند الله؛ فإن كل شيء على الله يسير"[١]. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "مما يدل على أن إعادة الخلق أولى بالإمكان من ابتدائه وخلق الصغير أولى بالإمكان من خلق العظيم[٢]". وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥ ﴾[الحج: ٥]. يقول الإمام الطبري: "وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم اتباعاً منه للشيطان المريد وتنبيهاً له على موضع خطأ قيله وإنكاره ما أنكر من قدرة ربه. قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك من قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلائكم استعظاماً منكم لذلك فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم -ﷺ- من تراب ثم إنشائنا لكم من نطفة آدم ثم تصريفكم أحوالاً حالاً بعد حال، من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة لكم معتبراً ومتعظاً تعتبرون به فتعلمون أن من قدر على ذلك فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم كما كنتم أحياء قبل الفناء[٣]". يقول ابن القيم رحمه الله: "خلق الإنسان فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٢٢، وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٣٢. وانظر: تفسير الثعالبي، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٣٠٠-٣٠١.

(٢) منهاج السنة النبوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٧٠.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٧، ص: ١١٦. وانظر: أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٦٤-٢٦٥. وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٣٤.

وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والعلوم والإرادات والصناعات كل ذلك من نطفة ماء[١]". وقال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾[الإسراء: ٥٠-٥١]. يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد -ﷺ-: قل يا محمد -للمكذبين بالبعث بعد الممات من قومك القائلين أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً-: كونوا إن عجبتم من إنشاء الله إياكم وإعادته أجسامكم خلقاً جديداً بعد بلاكم في التراب ومصيركم رفاتاً وأنكرتم ذلك من قدرته حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم إن قدرتم على ذلك فإني أحييكم وأبعثكم خلقاً جديداً بعد مصيركم كذلك كما بدأتكم أول مرة"[٢] . ويقول ابن القيم: "فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا أولاً: إذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟! فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب فهلا كنتم خلقاً جديداً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك. فإن قلتم لنا رب خالق خلقنا على هذه الصفة وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء و لم يجعلنا حجارة ولا حديداً؛ فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً. وللحجة تقرير آخر وهو أنكم لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما لكان قادراً على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ومن قدر على

---

(١) ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الفوائد،(دار الكتب العلمية – بيروت- ط/٢، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م)، ص: ٢١.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٥، ص: ٩٨. وانظر: السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٦٠. وانظر: تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ١٠، ص: ٢٧٤.

التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة ونقلها من حال إلى حال فما يعجزه عن التصرف فيما هو دونها بإفنائه وإحالته ونقله من حال إلى حال. فأخبر سبحانه أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت أجسامنا وفنيت؟! فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]. فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها ولم يجدوا عنها معدلاً؛ انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به كما يتعلل المقطوع بالحجاج بمثل ذلك[١]". وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[يس: ٧٧-٧٩]. يقول الإمام السعدي: "وهذه الآيات الكريمات فيها ذكر شبهة منكري البعث والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المنكر للبعث أو الشاك فيه أمراً يفيده اليقين التام بوقوعه وهو ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ﴾ ابتداء ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً حتى كبر وشب وتم عقله واستتب ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة؛ فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق من باب أولى... وهذا بمجرد تصوره يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور[٢]". ويقول ابن كثير: "أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة؛ فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما

---

(١) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٧٨-٤٧٩.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٩٩-٧٠٠. وانظر: تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج: ١٥، ص: ٥٨.

قال عز وجل: (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾) [المرسلات:٢٠-٢٢]. وقال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) [الإنسان:٢] أي من نطفة من أخلاط متفرقة فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته[1]". ويقول ابن أبي العز: "فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز[2]". وقال تعالى: (أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾) [ق:١٥]. يقول الإمام السعدي: "استدل تعالى بالخلق الأول وهو النشأة الأولى على الخلق الآخر وهو النشأة الآخرة؛ فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرفات والرمم[3]".

فيتضح من كل ما تقدم أن من قدر على إنشاء الخلق من العدم قادر على إعادته مره أخرى فهو أهون عليه؛ لأن إنشاء الأصل في نظر الناس أصعب من إعادته مرة أخرى.

ب- الاستدلال بعجز الآلهة عن إعادة الخلق على كمال قدرة الله عز وجل:

قال تعالى: (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾)[يونس: ٣٤]. يقول الإمام الشنقيطي: "ألقم الله تعالى المشركين في هذه الآيات حجراً بأن الشركاء التي يعبدونها من دونه لا قدرة لها على فعل شيء، وأنه هو وحده جل وعلا الذي يبدأ

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٥٨٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٦٠.

(٣) تفسير السعدي ج: ١، ص: ٨٠٥. وانظر: أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٤٢٥.

الخلق ثم يعيده بالإحياء مرة أخرى"(١). فدل ذلك على كمال قدرته سبحانه وتعالى. وقال تعالى: (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾) [الفرقان: ٣]. وفي هذه الآية "تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء(٢)". فمن لم يكن كذلك لا يستحق أن يكون إلهاً يعبد.

ج- العدل الإلهي:

إن حكمة الله تعالى وكمال عدله يقتضي إثابة المحسن على إحسانه وعقاب المسيء على إساءته، وهذا لا يكون في دار العمل بل في دار الجزاء، وهذا يقتضي أن يكون هناك بعث وجزاء. قال تعالى: (إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾) (يونس: ٤). يقول الإمام الرازي: "فاعلم أن المقصود منه إقامة الدلالة على أنه لا بد من حصول الحشر والنشر حتى يحصل الفرق بين المحسن والمسيء، وحتى يصل الثواب إلى المطيع والعقاب إلى العاصي"(٣). فبين سبحانه وتعالى في هذه الآية "أن غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة(٤)". وقال تعالى: (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾)[طه: ١٥]. فبين الله عز وجل الحكمة من قيام الساعة وهي:

---

(١) تفسير أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٥٥. وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٦٤.

(٢) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٢٠٦.

(٣) التفسير الكبير، مرجع سابق، ج: ١٧، ص: ٢٦.

(٤) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١١٩.

"لِتُثاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تعمل من خير وشر وطاعة ومعصية"[١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨].

إن من كمال حكمة الله عز وجل وكمال عدله أن لا يساوى الكافر والمؤمن. يقول ابن كثير: "وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء؛ فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده؛ فلابد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في الدار الدنيا فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة"[٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[النحل: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧]. وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. وقال

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٦، ص: ١٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ٣٤.

تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠]. و قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾[القصص: ٨٤]. فدلت هذه الآيات جميعاً على أنه لابد من دار أخرى يحاسب فيها العبد ويسأل عن أعماله فيثاب فيها المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء فيها على إساءته.

د- الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾[يونس٢٤]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾[الحج: ٥-٦].

يقول ابن كثير: "وهذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء... فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت؛ أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها[١]". وفي هذا اثبات "أنه سبحانه الحق وأنه المتفرد بإحياء الموتى وأنه قادر على كل شيء من الأشياء، والمعنى أنه المتفرد بهذه الأمور وأنها من شأنه لا يدّعى غيره أنه يقدر على شيء منها"[٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[الأعراف: ٥٧]. فبين سبحانه في هذه الآية أنه "كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس[٣]". وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾[فاطر: ٩]. يقول ابن كثير: "ينبه الله تعالى عباده أن يعتبـروا بهذا على ذلك؛ فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥] كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، وتنبت الأجساد في قبورها

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٠٩.

(٢) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٤٣٧.

(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٣٤.

كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: "كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾[فاطر: ٩]" [١]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾ [الزخرف: ١١]. يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة بعد جدوبها وقحوطها النبات والزرع كذلك أيها الناس تخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرض رفاتاً بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم من بعد مماتكم منها أحياء كهيئتكم التي بها قبل مماتكم"[٢]. وقال تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق:١١]. يقول الإمام الشنقيطي: "إن الله تبارك وتعالى يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها بعد انعدامه واضمحلاله دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم تراباً وعظاماً، فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ يعني أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن[٣]". ومن كل ما سبق يتضح أن من قدر على إحياء الأرض الميتة قادر على أن يبعث الناس من بعد موتهم.

هـــ- القادر على خلق الأعظم قادر خلق ما دونه:

إن الله الذي خلق السماوات والأرض على عظم خلقها قادر على خلق الإنسان من جديد، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٥٤٩ وانظر: تفسير السعدي،مرجع سابق، ج: ١ ص: ٦٨٥.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٥، ص: ٥٢، وانظر: تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ ص:٧٦٣.

(٣) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٧، ص: ٤٢٤، وانظر الطبري، مرجع سابق، ج:٤ ص: ١٧١.

رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾)[الإسراء: ٩٩]. يقول الإمام الشنقيطي: "بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن من خلق السماوات والأرض مع عظمها قادر على بعث الإنسان بلا شك؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك[١]". وقال تعالى: (أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾) [يس:٨١]. يقول ابن أبي العز: "فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامها وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً فيردها إلى حالتها الأولى[٢]". ويقول ابن القيم: "فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقتهما أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً فيردها إلى حالتها الأولى[٣]". يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: "أو ليس الذي خلق السماوات السبع والأرض بقادر على أن يخلق مثلكم؟! فإن خلق مثلكم من العظام الرميم ليس بأعظم من خلق السماوات والأرض؛ فمن لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم من خلقكم فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمت وبليت"[٤]. وقال تعالى: (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾) [غافر: ٥٧]. يقول الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: لابتداع السماوات والأرض وإنشاؤها من غير شيء أعظم أيها الناس عندكم إن كنتم مستعظمي خلق

---

(١) أضواء البيان، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٨٦، وانظر: التسهيل في علوم التنزيل، مرجع سابق، ج : ٣ ص: ١٦٧.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٤٦١.

(٣) الصواعق المرسلة، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٧٦.

(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٣، ص: ٣٢.

الناس وإنشائهم من غير شيء من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن خلق جميع ذلك هين على الله"[١]. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك[٢]". وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأحقاف: ٣٣]. فقد أنكر الله على المنكرين كيف لم "يبعثوا بأبصار قلوبهم فيروا ويعلموا أن الله الذي خلق السماوات السبع والأرض فابتدعهن من غير شيء و لم يعي بإنشائهن فيعجز عن اختراعهن وإحداثهن، بقادر على أن يحيي الموتى فيخرجهم من بعد بلائهم في قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم[٣]".

و- الاستدلال على البعث بخلق المتضادات ووقوعها:

قال تعالى: ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[يونس: ٥٦]. يقول الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى ذكره: إن الله هو المحيي المميت لا يتعذر عليه فعل ما أراد فعله من إحياء هؤلاء المشركين إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم ولا إماتتهم إذا أراد ذلك وهم إليه يصيرون بعد مماتهم فيعاينون ما كانوا به مكذبين من وعيد الله وعقابه[٤]". وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]. "أي المتصرف في الحياة والموت هو

(١) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٤، ص: ٧٧، وانظر: تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج:٤ ص: ٨٦.

(٢) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٢٩٩.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٦، ص: ٣٥، وانظر: تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨ ص: ٨٩.

(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١١، ص: ١٢٣. وانظر: تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٣٣

الله وحده"[١]. وقال تعالى: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الدخان: ٨].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [غافر: ٦٨]. فيأمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم: "ومن صفته جل ثناؤه أنه هو الذي يحيي من يشاء بعد مماته ويميت من يشاء من الأحياء بعد حياته"[٢]. وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحديد: ٢]. "فيحيي ما يشاء من الخلق بأن يوجده كيف يشاء وذلك بأن يحدث من النطفة الميتة حيواناً بنفخ الروح فيها من بعد تارات يقلبها فيها ونحو ذلك من الأشياء، ويميت ما يشاء من الأحياء بعد الحياة بعد بلوغه أجله فيفنيه وهو على كل شيء قدير[٣]". وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ ﴾[النجم:٤٤]. فهو سبحانه وتعالى "المنفرد بالإيجاد والإعدام والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم سيعيدهم بعد موتهم ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا"[٤]. فدل كل ما سبق على أن الله عز وجل هو وحده الذي يحيي ويميت ويبعث الخلق جميعاً يوم القيامة ليجازيهم على أعمالهم.

والخلاصة أنه بهذه الأدلة مجتمعة تبطل دعوى من أنكر البعث والنشور، وما ترتب على هذا الإنكار من إنكار ما يعقب البعث من الحشر والعرض والحساب والجنة والنار؛ إذ لا يمكن أن تقع هذه الأمور إلا إذا وقع البعث؛ فمن أنكر البعث، فلا بد أن يكون منكراً لكل هذه الأمور.

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٥٥٧. وانظر: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٤، ص: ١٦٤. وانظر: تفسير النسفي، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٢٨.

(٢) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٤، ص: ٨٢.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٧، ص: ٢١٥.

٤ – تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٢٢.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط وهي كتالي:

١- أن الإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الاعتقاد، وهو الركن الخامس من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان عبد إلا بها.

٢- أن حقيقة الإيمان باليوم الآخر تقتضي التصديق الجازم بأنه واقع لا محالة، والإيمان بكل ما هو داخل فيه مما أخبر به تعالى في كتابه أو أخبر به رسوله -ﷺ-.

٣- أن الكفار قد تمسكوا بما ورثوا من آبائهم من إنكار البعث بعد الموت ومجادلتهم في ذلك، وقد بنوا ذلك كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، وكذلك استبعادهم أن يستطيع الله عز وجل جمع ما تفرق من أجزائهم بعد الموت، وقد رد الله عز وجل على هذا كله في كتابه الكريم بأدلة حسية وعقلية تبطل دعوى من أنكر البعث والنشور.

٤- أن من أنكر البعث والنشور فقد أنكر ما يعقب ذلك من الحشر والعرض والحساب والجنة والنار، إذ لا يمكن أن تقع هذه الأمور إلا إذا وقع البعث.

الفصل السادس

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من القدر والرد عليهم

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالقدر.

المبحث الثاني: دلالة القرآن الكريم على مراتب القدر .

المبحث الثالث: شبهات الكفار في الإيمان بالقدر والرد عليهم

الفصل السادس

الآيات القرآنية الواردة في موقف الكفار من القدر والرد عليهم

تمهيد:

للإيمان بالقدر أهمية كبرى، يدركها كل من له معرفة ولو يسيرة بأصول الدين وأركان الإيمان، ولذلك نصت السنة النبوية على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره.

وتبرز أهمية هذا الركن من أركان الإيمان لكون الإيمان بالقدر مرتبط بالإيمان بالله تبارك وتعالى؛ وذلك لكونه مبنياً على المعرفة الصحيحة بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته (كصفة العلم، والإرادة، والقدرة، والخلق).

كما أننا لو تأملنا الكون من حولنا كيف نشأ، وكيف خلقت الكائنات، نجد كل ذلك مرتبطاً بالإيمان بالقدر.

فالإيمان بالقدر هو الطريق لمعرفة مدى الإيمان بالله تعالى الوجه الصحيح المطلوب، كما أنه الامتحان القوي لمدى معرفة الإنسان بربه المعرفة الصحيحة المتضمنة لليقين الصادق بالله تبارك وتعالى، وبما له من صفات الكمال والجلال.

وسوف أتناول في هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالقدر.

المبحث الثاني: دلالة القرآن الكريم على مراتب القدر .

المبحث الثالث: شبهات الكفار في الإيمان بالقدر والرد عليهم

المبحث الأول

حقيقة الإيمان بالقدر

إن الإيمان بالقدر خيره وشره هو الركن سادس من أركان الإيمان الستة، وهو أصل من أصول الدين التي لا يصح إيمان أحد إلا به، قال تبارك وتعالى في كتابه الكريم: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾) [القمر: ٤٩]. وقال تعالى وتبارك: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾)[الفرقان: ٢]. وقال ﷺ في حديث جبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان: "قال الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه"[١]. وقال ﷺ: "احرص على ما ينفعك، ولا تعجزنَّ، فإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل. فإن (لو) تفتح عمل الشيطان"[٢].

فمن لم يؤمن بهذه الركن يكون ترك ركناً من أركان الإيمان. قال ﷺ: "لن يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[٣].

ويكون أشبه من قال الله تبارك وتعالى فيهم: (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ) [البقرة:٨٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم، ب: في الأمر بالقوة وترك العجز، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو جزء من حديث طرفه: "المؤمن القوي خيرٌ..."، ج: ٤، ص: ٢٠٥٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ج: ٢، ص٢١٢، رقم الحديث: (٦٩٨٥). من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره). قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن.

فإذاً من أنكر القدر فليس بمؤمن بل ولا بمسلم؛ فلا يقبل عمله. قال العلامة ابن القيم رحمه الله بعد ذكر آثار الإيمان بالقدر: "وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله و لم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله على رسله" [(١)]انتهى كلامه رحمه الله. وعلى هذا من جحد أو أنكر القدر فقد خرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر. فمن جحد أصلاً من أصول الإيمان فقد كفر؛ فقد نزلت بها الكتب وجاءت بها الرسل، وأجمع عليها علماء المسلمون. وقد جاءت آثار كثيرة في ذم ومقت القدرية وكانت فيها ضعف وهي موقوفة على الصحابة رضي الله عنهم ومرفوعة منها أيضاً.

فالإيمان بالقدر هو الإيمان بأن الله تبارك وتعالى عليم بما الخلق به عاملون بعلمه الأزلي، والإيمان بمشيئة الله تبارك وتعالى النافذة وقدرته الشاملة سبحانه، والإيمان بأن الله تبارك وتعالى قد كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق منذ الأزل. وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة"[(٢)].

فالإيمان بالقدر مرتبط أشد الارتباط بتوحيد الربوبية كما أن له ارتباطاً بتوحيد الأسماء والصفات.

فحقيقة الإيمان بالقدر هي: أن يعلم الإنسان أن ما أصابه في هذه الدنيا لم يكن ليخطئه وما أخطئه لم يكن ليصيبه. قال الله تعالى: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي

---

(١) ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، طريق الهجرتين، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر(دار ابن القيم-الدمام-ط/٢ ١٤١٤هـ-١٩٩٤م) ج: ١، ص: ١٥١.

(٢) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٣، ص١٤٨-١٤٩، وج٨، ص٤٥٩، ٤٥٢، ٤٤٩، وانظر: ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: محمد بن عبد العزيز بن مانع، (الرئاسة العامة-الرياض-ط/٢، ١٤١٢هـ) ص٣٥-٣٦، وانظر: ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن تيمية، الرسالة التدمرية في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصفاته وبيان حقيقة الجمع بين الشرع والقدر(دار الوعي الإسلامي، دسوق)ص١٦٦-١١٩، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٢٠-٣٢١، وانظر: لمعة الاعتقاد، مرجع سابق، ص: ٢١، وانظر: القنوجي: محمد صديق حسن خان القنوجي، قطف الثمر، تحقيق: د/عاصم عبد الله القريوتي، (شركة الشرق-ماركا الشماوية، ط/١ ١٤٠٤هـ)ج: ١، ص:٩٠، انظر: شرح قصيدة ابن القيم، ج: ٢، ص: ١٣٤-١٣٥.

كِتَـٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾) [الحديد: ٢٢-٢٣].

وأن يصدق تصديقاً جازماً بأن كل ما يحدث في الكون واقع بقدر الله تبارك وتعالى.

ومن لوازم صحة الإيمان بالقدر:

أولاً: أن يؤمن كل إنسان ويعلم أن له مشيئة وقدرة واختياراً يفعل بهما ما يشاء ويترك. قال تعالى: (لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾)[التكوير: ٢٨]. وقال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا) [البقرة: ٢٨٦]. وقال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا)[الطلاق: ٧]. وقال تعالى: (وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾)[الزخرف: ٧٢]. وقال تعالى: (وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾)[السجدة: ١٤]؛ أي بسبب.

ثانياً: أن مشيئة العبد وقدرته تحت مشيئة الله تبارك وتعالى؛ فالله هو الذي خلق العبد وجعل له قدرة وتمييزاً واختياراً كما قال تعالى: (وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾) [المدثر: ٥٦]. وقال تعالى: (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾) [الإنسان: ٣٠]. وقال تعالى: (وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾) [التكوير: ٢٩]. قال ابن تيمية: "ومما اتفق عليه سلف الأمة و أئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء أن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله[١]".

---

(١) توحيد الألوهية، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٥٩.

ثالثاً: الإيمان بأن القدر سر الله تعالى في خلقه. قال الإمام الطحاوي: "خلق الخلق بعلمه، وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته. وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء الله لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً، وكلهم متقلبون في مشيئته بين فضله وعدله . وهو متعال عن الأضداد والأنداد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره. آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلاًّ من عنده. وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، لا يزاد في ذلك العدد، ولا ينقص منه. وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله. وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال الله تعالى: (لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾) [الأنبياء: ٢٣] . فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين. فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منوّرٌ قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك العلم المفقود. ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد قدر، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى في أنه كائن، ليجعلوه غير كائن، لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى

فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبدَ لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه. وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل، ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢] . وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فويل لمن صار في القدر لله خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً"[١]. وقال شارح كتاب "التوحيد": "والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[٢]" [الأعراف:١٧٩]. فما بينه تبارك وتعالى لنا آمنا به وما لم يبينه تبارك وتعالى لنا سلمنا به مع الإيمان به؛ فعقولنا قاصرة جداً عن إدراك حكمته تبارك وتعالى في أفعاله وأحكامه.

وقد أجمع العلماء المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أنَّ الله خالق كلّ شيء ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد. وأنه سبحانه

---

(١) الطحاوي: أبو جعفر، العقيدة الطحاوية، (دار الصميعي-السعودية-ط/١، ١٤١٩هـ). ج: ١، ص: ٣٢-٣٦.

(٢) شرح كتاب التوحيد، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٢٠.

ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاءَه، بل هو القادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه. وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة. فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون... إلى أن قال: وسلف الأمة وأئمتها متفقون على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة ومتفقون على أنه لا حجّة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرّم فعله، بل لله الحجة البالغة على عباده[1]".

وقال أيضاً: "ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأن العباد لهم مشيئة وقدرة، يفعلون بقدرتهم ومشيئتهم ما أقدرهم الله عليه مع قولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله[2]". وقال صاحب كتاب "قطف الثمر": "ويجب الإيمان بالقدر خيره وشره وحلوه ومره وقليله وكثيره أنه من الله تعالى ليس في العالم شيء يخرج على تقديره ولا يصدر شيء إلا عن تدبيره وقضائه ولا محيد لأحد عن القدر والمقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المحفوظ لا خير ولا شر إلا بمشيئته خلق من شاء للسعادة واستعمله بها فضلاً، وخلق من أراد للشقاوة واستعمله بها عدلاً فهو سر استأثر الله تعالى به وحجبه عن خلقه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾"[3] [الأعراف:١٧٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٤٩-٤٥٢.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ٤٥٩.

(٣) شرح كتاب التوحيد، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٢٠.

هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾) [السجدة: ١٣]. وقال: (إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾) [القمر: ٤٩]. وقال رسول الله -ﷺ-: "اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له[١]".

خلق الخلائق وأفعالهم وقدر أرزاقهم وآجالهم يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته. قال تعالى: (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) [الأنعام:١٢٥]. وقال تعالى: (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾) [الحديد: ٢٢] [٢]".

قال البغوي في "شرح السنة": "الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد، خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم. قال الله تعالى: (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾)[الصافات:٩٦] فالإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، كلها بقضاء الله وقدره، وإرادته ومشيئته، غير أنه يرضى الإيمان والطاعة، ووعد عليها الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية، وأوعد عليهما العقاب. قال الله تعالى: (وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾) [إبراهيم:٢٧]. والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً، لا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين: أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً"[٣].

وجملة القول: إن حقيقة الإيمان بالقدر تتركز في أن القدر ركن من أركان الإيمان الستة، كما أنه من تمام توحيد الربوبية، كما أنه موجب لصدق الاعتماد والتوكل على الله تبارك وتعالى، وتفويض الأمور

---

(١) البخاري،ب: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[الليل: ٧] ، ج: ٤ ص: ١٨٩٠،رقم الحديث(٤٦٦٣).

(٢) قطف الثمر، مرجع سابق، ج: ١ص: ٨٩.

(٣) البغوي: شرح السنة للإمام البغوي، تحقيق: زهير الشاويش، شعيب الأرناؤط، (المكتب الإسلامي، دمشق، ط/١، ١٣٩٠، بيروت، ط/٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م). ج: ١ص: ١٤٢.

كلها له سبحانه وتعالى، مع القيام بالأسباب، فكما أن الله عز وجل أخبرنا بأن كل شيء بقضائه وقدره، فهو أيضاً الذي أمرنا بالعمل، وبذل الأسباب وأنهما من قضاء الله وقدره، ولهذا لَمَّا سافر عمر بن الخطاب إلى الشام، وبلغه وقوع الوباء فيه، وعزم على الرجوع؛ قال له بعض أصحابه: أتفرُّ من قدر الله يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم؛ نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله"[1].

فالعمل بالأسباب من الأمور الموجبة لحصول الطمأنينة في نفس العبد، خاصة إذا علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطئه لم يكن ليصيبه.

كما أن العبد إذا علم أن كل شيء يقع بقدر الله الذي أحاط بعلمه كل شيء وأن كل ذلك واقع بمشيئته النافذة وقدرته الشاملة وأن ذلك كله مكتوب في اللوح المحفوظ، فإن ذلك كله كفيل بأن ينفي إعجاب المرء بنفسه عند تحقيقه لأي عمل، كما أنه يدفع المرء لشكر الله عز وجل الذي وفقه لتحقيق ذلك بفعل الأسباب المؤدية إلى حصول مراده.

---

(١) انظر: صحيح البخاري،ب: ما يذكر في الطاعون، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه ج: ٥ص: ٢١٦٣، رقم الحديث: (٥٣٧٩).

المبحث الثاني

دلالة القرآن الكريم على مراتب القدر

وبعد أن تبين لنا حقيقة الإيمان بالقدر وما يلزمه من أن يؤمن بعلم الله تعالى القديم، وإحاطة علمه بكل شيء، وكتابته لكل شيء كائن في اللوح المحفوظ، وأن مشيئته تبارك وتعالى وقدرته النافذة الشاملة، وخلقه تبارك وتعالى لكل شيء وإيجاده لكل شيء، فإنه لا بد للمسلم من أن يفهم حقيقة مراتب القدر كما هي في القرآن الكريم وكما بينها علماء المسلمين، لأن فهمها سبب في زيادة الإيمان وترسيخه وتثبيته في نفوس العباد.

المرتبة الأولى: العلم (أي علم الله الأزلي):

وهو: "الإيمان بعلم الله عز وجل المحيط بكل شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات؛ فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم وأعمالهم في جميع حركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار علم دق ذلك وجليله وكثيره وقليله وظاهره وباطنه وسره وعلانيته ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته ومقتضى اسمه العليم الخبير عالم الغيب والشهادة علام الغيوب[(١)]".

وقد اتفق على ذلك جميع الرسل عليهم السلام ابتداء من آدم ﷺ إلى محمد -ﷺ-، كما اتفق على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم من الأمة. ومن الآيات الدالة على ذلك قال تعالى: (عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٩٢٠.

كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾) [سبأ: ٣]. "قال مجاهد وقتادة: (لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ): لا يغيب عنه أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء؛ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم"[١]. وقال السعدي: "أي قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمنه الكتاب المبين الذي هو اللوح المحفوظ فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات ويعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما يبقى من أجسادهم قادر على بعثهم من باب أولى وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط[٢]". وقال تعالى: (لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾) [الطلاق: ١٢]. قال الطبري: "فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته[٣]". قال السعدي: "لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها وإحاطة علمه بجميع الأشياء؛ فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة عبدوه وأحبوه وقاموا بحقه؛ فهذه هي الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته[٤]". قال الشوكاني: "واللام في (لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ) متعلق بـ(خلق) أو بـ(يتنزل) أو بمُقدَّر؛ أي فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته وإحاطته بالأشياء وهو معنى: (وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾)؛ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان[٥]". وقال تعالى: (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾) [الأنعام:٥٩]. قال ابن

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٥٢٦.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٦٧٥.

(٣) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٨، ص: ١٧٦.

(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٧٢.

(٥) فتح القدير، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٢٤٨.

كثير: "أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[(١)]". قال السعدي: "هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط وأنه شامل للغيوب كلها التي يطلع منها ما شاء من خلقه وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين فضلاً عن غيرهم من العالمين وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار والرمال والحصى والتراب وما في البحار من حيوانات ومعادنها وصيدها وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ويشتمل عليه ماؤها... إلى أن قال: وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء ويذهل أفئدة النبلاء؛ فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها، وأن الخلق من أولهم إلى آخرهم لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك؛ فتبارك الرب العظيم الواسع العليم الحميد المجيد الشهيد المحيط وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء وكتابه المحيط"[(٢)]. وقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾)[البقرة: ٣٠]. "قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وخلقه لها. وقال قتادة: كان في علمه أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة. وقال ابن مسعود: أعلم ما لا تعلمون من إبليس. وقال مجاهد أيضاً: علم من إبليس أنه لا يسجد لآدم[(٣)]".

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٣٨

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٥٩.

(٣) شفاء العليل، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٩.

ولقد أشارت هذه الآيات السابقة وغيرها من الآيات الكثيرة التي طال المقام بذكرها إلى وجوب أن يؤمن العبد بأن الله تبارك وتعالى عليم بكل شيء كائن وأن علمه هذا أحاط بكل شيء وأنه غير مسبوق بجهل ولا يلحقه نسيان، كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]. قال ابن كثير: "يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه؛ فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان؛ أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء. والآخر: نسيانه بعد علمه. فنزه نفسه عن ذلك[١]". "فعلم الله صفة قائمة به ولا تكون حاصلة في الكتاب؛ لأن ذلك لا يعقل. فالمعنى أن بقاء تلك المعلومات في علمه كبقاء المكتوبات في الكتاب؛ فالغرض التوكيد بأن أسرارها معلومة له لا يزول شيء منها[٢]".

فيجب أن نؤمن إيماناً صريحاً جازماً أن علم الله عز وجل أزليٌّ أبديٌّ، فالله تبارك وتعالى عالم بما خلق وما الخلق به عاملون من قبل أن يخلقهم ومن بعد خلقهم إلى الدين كما صرحت بذلك الآيات السابقة.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة:

تعني الإيمان بأن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الخلق، وأنه تبارك وتعالى لم يفرط في الكتاب من شيء. قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]؛ "يعني اللوح المحفوظ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من الجليل والدقيق لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد"[٣]. وقال السعدي: "أي ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء بل جميع الأشياء صغيرها وكبيرها مثبتة في

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٥٦.
(٢) تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، ج: ٦، ص: ٢٣٣.
(٣) تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٤٠٦.

اللوح المحفوظ على ما هي عليه فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم، وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر؛ فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته العامة النافذة في كل شيء، وخلقه لجميع المخلوقات حتى أفعال العباد[١]". فالله عز وجل قد كتب "آجالها وأعمالها وأرزاقها وآثارها؛ أي إن ذلك كله مكتوبٌ عند الله[٢]". وقال تعالى: (قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا) [التوبة: ٥١]. "أي علينا في اللوح المحفوظ"[٣]. وقال تعالى: (وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾) [يس: ١٢]. "جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ"[٤]. وقال تعالى: (وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾)[القمر: ٥٢-٥٣]. "مسطور في اللوح المحفوظ بتفاصيله، ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله تعالى: (إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ) [الزخرف:٧٤] مما يستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب بين ما لهم من حسن الحال بطريق الإجمال[٥]". وقال السعدي: "أي مسطر مكتوب وهذه حقيقة القضاء والقدر وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فما أصاب

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) ابن أبي زمنين: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة-محمد بن مصطفى الكنز(الفاروق الحديثة-مصر- القاهرة-ط/١ ١٤٢٣هـ)ج: ٢، ص: ٦٧.

(٣) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ٢٩٩. تفسير الثعالبي، مرجع سابق، ج: ٥، ص: ٥٣. تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٣٣٩.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٥٦٧. التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ١٦١. تفسير البغوي ج: ٤، ص: ٧.

(٥) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨، ص: ١٧٥.

الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[١]. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾[الحج: ٧٠].

وقد جمع الله عز وجل في هذه الآية بين مرتبة العلم والكتابة. قال ابن كثير: " ألم تعلم أن يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه وأنه محيط مما في السموات وما في الأرض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ[٢]". وقال السعدي: "لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور وبواطنها خفيها وجليها متقدمها ومتأخرها، ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبته الله في كتاب وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة[٣]". وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [فاطر: ١١] "عن ابن عباس هو اللوح المحفوظ[٤]"وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[الحديد: ٢٢]. " المعنى أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون"[٥] إلى غير ذلك من الآيات التي جمع فيها الله تبارك وتعالى بين علمه وكتابته لكل شيء في اللوح المحفوظ أو يذكر كلاً على حده.

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١، ص: ٨٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٢٣٥.

(٣) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٥٤٥.

(٤) روح المعاني، مرجع سابق، ج: ٢٢ص: ١٧٨. زاد المسير، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٤٣. تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٧ص: ١٤٧.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٩٩. تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨ص: ٢١١. تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٢٩٩. تفسير البيضاوي، مرجع سابق، ج: ٥ص: ٣٠٣. تفسير الثعلبي، مرجع سابق، ج: ٩ص: ٢٤٥.

ولقد ورد في السنة النبوية ما يثبت ذلك، ومن تلك الأحاديث: ما ورد عن عبد الله بن عمرو ابن العاص: قال سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة [(١)]".

وروى البخاري في صحيحه أن النبي -ﷺ- قال: "كان الله و لم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء[(٢)]".

ومنها ما رواه الترمذي أن رسول الله -ﷺ- قال: " إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد[(٣)] ".

وهذه الأحاديث دالة دلالة صريحة على أن الله عز وجل كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن كل ما يقع في هذا الكون مكتوب في اللوح المحفوظ، وأن ما أصاب الإنسان من مصيبة لم تكن لتخطئة وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقد جفت الأقلام وطويت الصحف بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة.

وإذا علم الإنسان بذلك كله اطمئن قلبه واستسلم لله تبارك وتعالى وعاش راضياً مطمئناً؛ فلا يفرح بنعمة حلت به فرحاً ينسيه شكر من أعطاه هذه النعمة، ولا يحزن حزناً يخرجه عن الصبر الذي يثيبه الله تبارك وتعالى عليه ويعطيه عليه عطاء جزيلاً.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة:

وتعني أن يؤمن العبد بمشيئة الله تعالى النافذة في كل شيء سواء كانت هذه المشيئة متعلقة بأفعاله تبارك وتعالى أو بأفعال عباده، وكما تعني أن يؤمن العبد بقدرة الله تعالى الشاملة لكل شيء. فكل ما في

---

(١) مسلم، ك:القدر، ب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ج: ٤ص: ٢٠٤٤، رقم الحديث: (٢٦٥٣).

(٢) البخاري، من حديث عمران بن حصين ، ج: ٣ص: ١١٦٦، رقم الحديث: (٣٠١٩) ، وأحمد في مسنده ج: ٤ص: ٤١٣، رقم الحديث: (١٩٨٨٩) وغيرهما.

(٣) الترمذي،من حديث عبادة بن صامت، ج: ٥ ص: ٤٢٤، رقم الحديث:(٣٣١٩).

السماوات والأرض من موجود ومعدوم ومن صغير وكبير وظاهر وباطن إلا بمشيئته سبحانه وتعالى سواء كان من فعله أو من فعل مخلوقاته. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾[فاطر: ٤٤] .

وأدلة هذه المرتبة كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية معاتباً لنبيه محمد -ﷺ- "وتأديباً له وتعليماً فأمره بالاستثناء بمشيئة الله في كل أمر يريد أن يفعله فيما يستقبل[١]". قال ابن كثير: "هذا إرشاد من الله تعالى لرسول -ﷺ- إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون"[٢]. وقال السعدي: "وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذور محظور لأن المشيئة كلها لله[٣]"، وقوله تعلى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]، "أي لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله عز وجل لأن الأمر إليه[٤]". "فللعباد قدرة على أعمالهم ولهم مشيئة والله خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم ولا قدرة لهم ولا مشيئة إلا بإقدار الله عز وجل لهم إذا شاء وأراد[٥]". "فنص تعالى على أن لنا مشيئة إلا أنها لا تكون منا إلا أن يشاء الله كونها[٦]". ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، مرجع سابق، ج: ٢، ص: ١٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٣، ص: ٨٠.

(٣) تفسير السعدي ج: ١ص: ٤٧٤.

(٤) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤ص: ٤٣٢. تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ٢ص: ١١٦٠.

(٥) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢٢٣.

(٦) الفصل في الملل، مرجع سابق، ج: ٣ص: ١٥.

ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً) [هود:١١٨]. "وعدم مشيئته للشيء مستلزم لعدم وجوده كما أن مشيئته تستلزم وجوده فما شاء الله وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده[1]". قال ابن العربي: "وهذه آية لا يؤمن بها إلا أهل السنة الذين يعتقدون ما قام الدليل عليه من أن الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وأن مشيئته وإرادته تتعلق بالخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية"[2].

وكذلك قوله تعالى: (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ) [البقرة: ٢٥٣]. "فهو سبحانه يحول بين المرء وقلبه وبين الإنسان ونطقه وبين اليد وبطشها وبين الرجل ومشيها فكيف يظن به ظن السوء ويجعل له مثل السوء أنه لا يقدر على ما يقدر عليه عباده ولا تدخل أفعالهم تحت قدرته تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون"[3]. قال السعدي: "فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة فإذا وجدت اضمحل كل سبب وزال كل موجب فلهذا"[4]. وقيل: "كرر ذكر المشيئة باقتتالهم تكذيباً لمن زعم أنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم لم يجر به قضاء من الله[5]". وكذلك قوله تعالى: (وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾) [إبراهيم: ٢٧]. قال الطبري: " يعني تعالى ذكره بذلك وبيد الله الهداية والإضلال فلا تنكروا أيها الناس قدرته ولا اهتداء من كان منكم ضالاً ولا ضلال من كان منكم مهتدياً فإن بيده تصريف خلقه وتقليب قلوبهم يفعل فيهم ما يشاء"[6]. وقوله

---

(١) شفاء العليل، مرجع سابق: ج: ١ص: ١٠٤.
(٢) أحكام القرآن لابن العربي، مرجع سابق، ج: ٣ص: ٣١.
(٣) شفاء العليل، مرجع سابق، ج: ١ص: ٥٤.
(٤) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ١٠٩.
(٥) تفسير الواحدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ١٨٢.
(٦) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ١٣ص: ٢١٩.

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ [الرعد: ٢٦]. "لما أخبر عمن تقدمت صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار أنحى بعد ذلك على أغنيائهم وحقر شأنهم وشأن أموالهم، والمعنى: أن هذا كله بمشيئة الله يهب الكافر المال ليهلكه به ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره[(١)]".

فهذه الآيات وغيرها من الآيات تشير إلى أنه لا يكون شيء في هذا الكون صغيراً كان أو كبيراً ظاهراً كان أو باطناً إلا بمشيئته سبحانه، ولا يكون في ملكوته سبحانه إلا شيئاً هو يريده سبحانه.

وهنا وقفة مهمة نبهنا لها العلماء حينما قسموا الإرادة إلى إرادة كونية وإرادة شرعية، وقصدوا بالإرادة الكونية أنه سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه إلا ما يرده كوناً وقدراً. وقصدوا بالإرادة الشرعية أنه يمكن أن يكون في الأرض خاصة بين بني الإنسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى للاختبار والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾[الملك:٢] ما لا يريده شرعاً.

مثال على ذلك: الله سبحانه وتعالى أمر العباد بالإيمان، فلم يقبلوه، فهم لم يستجيبوا لما أراده الله شرعاً وأحبه لهم وهو الإيمان فكان ما لا يريده وما لا يحبه وهو الكفر، فالله سبحانه لا يرضى لعباده الكفر مع كون ذلك بمشيئته وإرادته، وهم بهذا الكفر لم يخرجوا عن الإرادة الكونية التي "لا خروج لأحد عنها ولا محيد له عنها سواء سبقت له بالشقاوة أو السعادة"[(٢)]. فقد اقتضت إرادته الكونية أن يخلق هذا الإنسان للاختبار، كما اقتضت أن يخلق الجنة جزاء للمحسنين والنار جزاء للمسيئين.

ومن هنا قرر العلماء أن الإرادة الكونية تعني المشيئة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾[هود: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج: ٣ص: . ٣١١.

(٢) معارج القبول، مرجع سابق، ج: ١ص: ٨٤.

لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾) [الرعد: ١١]. وقوله تعالى: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾) [النحل: ٤٠]. والإرادة الشرعية تعني المحبة، حيث قال تعالى: (يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) [النساء: ٢٦-٢٧]. وقال سبحانه: (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) [البقرة: ١٨٥]. وعلى هذا فالإرادة الكونية تتعلق فيما وقع في ملكه سبحانه وتعالى سواء أحبه أم لم يحبه فهي إرادة مستلزمه لوقوع المراد، بخلاف الإرادة الشرعية التي تتعلق فيما أحبه سبحانه سواء وقع أم لم يقع فهي لا تستلزم وقوع المراد.

وبهذا يرتفع اللبس عمن يحتج بالقدر وتقوم عليه الحجة، فهذه المسألة من أخطر المسائل في الاحتجاج بالقدر عند من لا يفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ومقتضيات كل إرادة؛ فالكونية لها علاقة بالعلم السابق، والشرعية لها علاقة بالحب والرضا، وهذا التفريق يزيل إشكالات كثيرة في باب القدر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق:

وتقتضي هذه المرتبة "الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء فهو خالق كل عامل وعمله وكل متحرك وحركته وكل ساكن وسكونه وما من ذرة في السماوات ولا في الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها وخالق حركتها وسكونها سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه[١]".

وهذه المرتبة أجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي مما اتفقت على الإيمان بها الفطر الصحيحة، والعقول السليمة، والقرآن الكريم مليء بالآيات الدالة على هذه المرتبة ومن هذه الأدلة قوله

---

(١) معارج القبول، مرجع سابق: ج: ٣ص: ٩٤٠.

تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢] . وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ [الصافات:٩٦]. وعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله -ﷺ-: "إن الله يصنع كل صانع وصنعته(١)". فأفعال العباد داخلة في عموم خلق الله عز وجل فالله تبارك وتعالى خالق ومقدر لها ولكن العبد -كما قرر العلماء- هو الفاعل لها المكتسب لها، فالله تبارك وتعالى خالق لأفعال عباده والعباد هم الفاعلون المكتسبون لها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون إن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله ومفعول لله، لا يقولون هو نفس فعل الله ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول(٢)".

والخلاصة من كل ما تقدم أن الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أمور هي العلم والكتابة والمشيئة والخلق، وأن القرآن الكريم قد أثبت هذه المراتب، وأنه يجب على العبد متى ما آمن بهذه المرتب الأربعة فمتى ما آمن بها كلها فسوف يرقى إلى كمال العبادة وكمال الاستجابة لله عز وجل وعاش مطمئناً ساكن القلب.

---

(١) البخاري في (خلق أفعال العباد) ج: ١ص: ٤٦، برقم: (١٠٢، ١٠٣)، والبيهقي في الاعتقاد ج: ١ص: ١٤٤، وغيرهم، قال الهيثمي -في مجمع الزوائد ج: ٧ص: ٤٠٤، برقم: (١١٨٣٢)-: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله أبو الحسين الكردي وهو ثقة، وقال الألباني: صحيح، وفي بعض ألفاظه (خالق) مكان يصنع.

(٢) منهاج السنة النبوية ج: ٢ص: ٢٩٨.

المبحث الثالث

شبهات الكفار في الإيمان بالقدر والرد عليهم

عقيدة الإيمان بالقدر كغيرها من العقائد لقيت كثير من الاعتراضات، وأثير حولها العديد من الشبهات، فهذا حال الكافرين والمشركين في عبادة الله تبارك وتعالى والمنحرفين عن الطريق الصحيح، ليجدوا لأنفسهم مخرجاً وليصدوا الناس عن الحق وليردوا دعوة المرسلين. ومن هذه الشبه ما يلي:

الشبهة الأولى: الاحتجاج بالقدر على الكفر:

لقد وجد الكفار في باب القدر مجالاً للاحتجاج به على كفرهم وشركهم وانحرافهم وفسادهم وتقصيرهم كما حكى ذلك الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٠]. وقال سبحانه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[الأنعام: ١٤٨] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل: ٣٥]. وهذا ليس بالغريب عليهم فقد سبقهم إلى ذلك إمامهم إبليس فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[الحجر: ٣٩]. وقد رد الله عز وجل على هذه الشبهة في أكثر من آية ومنها:

أولاً: إن الله عز وجل نفى العلم عن هؤلاء الكفار وأثبت أنهم بنوا علمهم على الخرص والظن قال تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الزخرف: ٢٠]. قال مجاهد: "يعني ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك"[١]. وقال السعدي: " أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يغني من الحق شيئا فإنها باطلة [٢]"؛ فمن بنى حجته على الظن والخرص فهي باطلة خاسرة.

فالله عز وجل هو وحده العالم علما أزليا أبديا محيطا بكل شيء والأمور تقع بمقتضى علمه الكامل، لا يخرج شيء عنه.

ثانياً: لو صحت حجتهم لم يهلكهم الله عز وجل بالعقوبات المتنوعة لأنه تبارك وتعالى لا يحل بأسه وعقابه إلا بمن يستحق ذلك فالله عز وجل لا يظلم أحدا، وقد حرم الظلم على نفسه، ونفاه في كتابه الكريم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤]. وغير ذلك من الآيات التي تنفي عن الله تعالى ظلم العباد سواء في الدنيا أو الآخرة. وهذا أمر مهم في باب الاحتجاج بالقدر، فإذا وسوس الشيطان للإنسان فليتذكر أن الله لا يظلم مثقال ذرة سبحانه تبارك وتعالى. فالله تبارك وتعالى جعل للإنسان قدرة وإرادة واختياراً فإن شاء فعل وإن شاء كف فالله عز وجل لم يجبره على فعل شيء وهذا أمر لا ينكره إلا مكابر.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩] قال السعدي: " إن لله الحجة البالغة التي لم تبق لأحد عذرا التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون والكتب الإلهية والآثار النبوية والعقول

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤ص: ١٢٦.

(٢) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢٧٨.

الصحيحة والفطر المستقيمة والأخلاق القويمة فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة باطل لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلا[١]". وهذا أمر ينبغي أن يدركه المسلم فحجة الله تبارك وتعالى قد قامت على عباده.

الشبهة الثانية: نسبة الأفعال للدهر:

لقد جرت عادة الكفار المشركين المنحرفين بنسبة كل ما يحدث في الكون من الأفعال للدهر قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤]. قال ابن كثير: " كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر. فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل تلك في الحقيقة"[٢]وقد رد الله عز وجل على هذه الشبهة من عدة وجوه:

الأول: أنهم بإضافتهم ما يحدث لهم من المصائب والشدائد قد سبوا الدهر الفاعل وهم في حقيقة الأمر قد سبوا الله عز وجل لأنه هو الفاعل الحقيقي لكل ما يحدث في هذا الكون. قال البغوي: " فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها وكان مرجع سبهم إلى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يضيفونها إلى الدهر"[٣]. وقال ابن كثير: " فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل تلك في الحقيقة فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال [٤]". ففي الصحيح

---

(١) تفسير السعدي، مرجع سابق، ج: ١ص: ٢٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤ص: ١٥٢.

(٣) تفسير البغوي، مرجع سابق، ج: ٤ص: ١٦٠.

(٤) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج: ٤ص: ١٥٢.

"عن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار[١]".

الثاني: إن الله عز وجل قد نفى عنهم العلم بهذا وأنهم إنما بنوا ذلك على الظن فجعلوا الدهر هو المقدر. قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[الجاثية: ٢٤] "فنفى الله تعالى علمهم بهذا وأعلم أنها ظنون وتخرص تفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى[٢]". "فما هم إلا قوم صار أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شيء يصح أن يتمسك به في الجملة هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم[٣]". قال الطبري: "يقول تعالى ذكره وما لهؤلاء المشركين القائلين ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر بما يقولون من ذلك من علم يعني من يقين علم لأنهم يقولون ذلك تخرصاً بغير خبر أتاهم من الله ولا برهان عندهم بحقيقته إن هم إلا يظنون[٤] ". "فكانوا يسندون الحوادث مطلقاً إليه لجهلهم أنها مقدرة من عند الله تعالى وأشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر وهؤلاء معترفون وجود الله تعالى فهم غير الدهرية فإنهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً"[٥].

والخلاصة من كل ما تقدم أن الله عز وجل هو المقدر لكل شيء في هذا الكون وأن من أنكر ذلك ما هو إلا مكابر ومعاند للحق وأن حجتهم لم تُبْن على أي أساس من الصحة.

---

(١) البخاري، ب: تفسير سورة حم جاثية، ج: ٤ص: ١٨٢٥، رقم الحديث(٤٥٤٩).

(٢) تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مرجع سابق، ج: ٥ص: ٨٧.

(٣) تفسير أبي السعود، مرجع سابق، ج: ٨ص: ٧٣.

(٤) تفسير الطبري، مرجع سابق، ج: ٢٥ص: ١٥٣.

(٥) تفسير روح المعاني، مرجع سابق، ج: ٢٥ص: ١٥٣.

خلاصة الفصل

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل بعدة نقاط وهي كتالي:

١- أن الإيمان بالقدر خيره وشره أصل من أصول الدين وركن من أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان أحد إلا بها.

٢- أن حقيقة الإيمان بالقدر تقتضي التصديق الجازم بكل ما يحدث في الكون واقع بقدر الله تبارك وتعالى، وأن لكل إنسان مشيئة وقدرة واختيار، وأن هذه المشيئة تحت مشيئة الله تبارك وتعالى، والإيمان بأن القدر سر الله تعالى في خلقه.

٣- أن الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أمور هي العلم والكتابة والمشيئة والخلق كما أثبتها القرآن الكريم.

٤- لا بد للمسلم من أن يفهم حقيقة مراتب القدر كما هي في القرآن الكريم، وكما بينها العلماء المسلمين، لأن فهمها سبب في زيادة الإيمان وترسيخه وتثبيته في نفوس العباد.

٥- إن عقيدة الإيمان بالقدر قد لقيت كغيرها من العقائد كثير من الأعتراضات والشبهات التي أثيرت حولها، وكل هذا ليجدوا لأنفسهم مخرجا ليصدوا الناس عن الحق وليردوا دعوة المرسلين، ومن هذه الشبه احتجاجهم بالقدر على الكفر، ونسبة الأفعال للدهر، ولكن الله عز وجل قد رد على هذه الشبهات وبين أن من أثار هذه الشبهات ما هو إلا مكابر ومعاند للحق.

الخاتمـــــــة

الخاتمـــة

تتضمن مجموعة من النتائج والتوصيات، بيانها في التالي:

١- إن أول واجب يجب على المكلف هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فالرسل جميعا عليهم السلام أرسلوا بلا إله إلا الله، وهذا التوحيد هو المطلوب من العباد فإذا آمنوا به دخلوا في دين الله.

٢- إن الكائنات جميعاً فطرت على الإقرار والاعتراف بربوبية الله عز وجل وأنه الخالق الرازق، وعلى الإقرار بحاجتهم له وخضوعهم له. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[الأعراف: ١٧٢].

٣- إن أن الفطرة السليمة والعقل الصريح المجرد من الأهواء والسمع ليدلان دلالة قاطعة على استحقاق الله عز وجل دون ما سواه للألوهية، وأن هذا ثابت بالطريق الفطري الذي قرره الشارع في كتابه الكريم من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد اللألوهية، وهو الطريق الذي سلكه الأنبياء عليهم السلام في إثبات الألوهية لله تعالى.

٤- إن الكون بما فيه من تنسيق وتنظيم ليدل دلالة قاطعة على أن الخالق واحد أحد فرد صمد وهو الله تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

٥- إن الآيات الواردة في الربوبية وهي أن الله هو الخالق الرازق فيها إلزام للعباد إذا أقروا بأنه الرب فيلزمهم عبادته وحده وترك عبادة ما سواه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[البقرة: ٢١].

٦- إن ربط الله عز وجل بينه وبين نبيه محمد -ﷺ- في آيات كثيرة من كتابه الكريم سواء كان ذلك في الإيمان أو في الطاعة فإن ذلك يدل على أن الإيمان بالله عز وجل وطاعته سبحانه لا يتحقق إلا بالإيمان بالرسول -ﷺ- فهذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله -ﷺ-.

٧- لقد اقتضت سنة الله تعالى في عباده أن خلقهم مختلفين في أديانهم وعقائدهم وفي ألوانهم وألسنتهم، فقد قدر الله وقضى ذلك لحكمة عظيمة وغاية جليلة وهي الابتلاء والاختبار. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

ولا سبيل لدفع هذا الاختلاف والوصول إلى الحق إلا من خلال الحوار والجدال بالتي هي أحسن.

٨- إن الحوار في القرآن الكريم لم يقتصر على نوع واحد بل كان له عدة أنواع منها: حوار الله عز وجل مع الملائكة ، وحوار الله عز وجل مع إبليس ، وحوار الله مع أنبيائه ، وحوار الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ، والحوار بين الصالحين ، والحوار بين الكافرين وأنواع أخرى كثيرة. كما أن الحوار كان في مجالات شتى مما يدل على مشروعية الحوار مع غير المسلمين لدعوتهم إلى الله عز وجل، لا كما يقول بعض من يرى أنه لا فائدة من الحوار مع الكفار وأنه من تضييع الوقت.

٩- إن القرآن الكريم وضع لنا قاعدة عظيمة في الموالاة والمعادة فأمرنا بأن نوالي أهل التوحيد وأن نعادي أهل الكفر والضلال. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ

حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾)

[المجادلة: ٢٢].

١٠- إن القرآن الكريم رسم المنهج الصحيح الذي يمكن للأمة الإسلامية من خلاله التعامل مع غيرها من الأمم التي لا يمكن لها أن تعيش بمعزل عنها في عصرنا الحاضر، معاملة تحقق بها مصالحها ولا تساوم بها على دينها.

١١- إن قتال الكفار من القضايا التي احتلت مكانة كبيرة بين المسلمين، ولقد وضح القرآن الكريم الهدف الحقيقي من القتال وهو تعبيد العباد لله وترك عبادة العباد ثم إنه وضح الأسباب الموجبة للقتال من دفاع أو نصرة للمستضعفين أو حتى يعبد الله وحده دون ما سواه أو بسبب الغدر ونكث العهد وإضمار العداوة والبغضاء للمسلمين... وغير ذلك. وأنها أسباب مشروعة يقرها العقل والنقل والأخلاق. كما أن القرآن رد على الشبه التي أثيرت حول هذا الموضوع.

١٢- تصوير القرآن الكريم لحال الكافر في الدنيا والآخرة وبين سبب شقاءهم في الدنيا وكيف أهلك الله عز وجل من خالف أمره ورد دعوة رسله عليهم السلام. كما صور لنا عذابهم في الآخرة ابتداء من الموت وحتى دخول النار والخلود فيها وما يلقونه من ذلة وهون وحسرة وإحباط الأعمال وأصناف العذاب والتخاصم الذي يحدث بينهم ومن ثم التأكيد على خلودهم فيها وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة في أن الجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبد.

١٣- تفنيد القرآن لشبه الكفار في الذات الإلهية وأنها شبه لا تقوم على حجة ولا برهان وإنما تقوم على الظن والعناد والاستكبار.

١٤-تفنيد القرآن الكريم لشبهات الكفار في الملائكة عليهم السلام التي قامت على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً وعلى العداوة للملائكة عليهم السلام.

١٥-في القرآن الكريم تصوير لحقيقة الإيمان بالكتب جميعاً المنزلة على رسله عليهم السلام، وكيف قامت الأمم السابقة بتحريفها وإثارة الشبه حولها وأنها شبه لا تقوم على أساس من الصحة.

١٦- في القرآن الكريم تصوير لحقيقة الإيمان بالرسل عليهم السلام وتفنيد لشبهات ومعارضة الكفار لرسل عليهم السلام ورد رسالاتهم وتشكيك في صحة نبوتهم دعوة بلا حجة ولا برهان.

١٧- في القرآن الكريم تصوير لحقيقة الإيمان باليوم الآخر وإثبات البعث من خلال الدليل الحسي والدليل العقلي.

١٨- في القرآن الكريم تصوير لحقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره، من خلق وتقدير وإرادة ومشيئة وكتابة الله تعالى لكل أمر في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الخليقة، وهي مراتب القدر التي يجب الإيمان بها، والرد على شبه الكفار في ذلك.

ب- التوصيات:

١- من المعلوم أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر ثورة المعلومات وذلك عبر وسائل الاتصالات المختلفة ووسائل الإعلام المتقدمة، وأصبح القاطنون على الكرة الأرضية في جوانبها المختلفة وكأنهم يسكنون في قرية صغيرة يتبادلون فيها المعلومات بكل يسر وسهوله ولكن هذا التقدم في الاتصالات والإعلام لا يخلو من أمور سلبية فقد سهلاً على كثير من الحاقدين على الإسلام والمسلمين وإثارة الشبهات على هذا الدين وأهله ومن هذا المنطلق فلابد أن يهتم المسلمون بالحفاظ على دينهم، وأن

يتميزوا في تمسكهم بعقيدتهم حتى يكونوا قدوة للآخرين كما صنع سلف هذه الأمة عندما نشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ففتحوا القلوب قبل فتح البلاد فبالأخلاق يتميز المسلمون على غيرهم. لذا توصي الباحثة المؤسسات التعليمية والتربوية بالاهتمام بأصول العقيدة الإسلامية، والتأكيد عليه أثناء تدريس العقيدة للحفاظ على عقيدة الأبناء.

٢- توصي الباحثة بإخراج الآيات التي تحدثت عن الكفار وما تضمنته من أهداف في جميع الجوانب الدعوية والعقدية، من أطر التعليم النظري إلى تطبيق العملي، فنحن بحاجة إلى منهجية صحيحة في الدعوة إلى الله تعالى.

٣- إن تحمس الشباب المسلم واندفاعه والذي يظهر جلياً اتجاه الكفار بوصفهم أهل الكفر والضلال كثيراً ما يأخذ اتجاه سلبي وهذا راجع لضعف الإلمام بفقه التعامل مع الكفار وفقه الجهاد أو لتغليب الجانب العاطفي للانتقام من العدو والبطش به، الأمر الذي قد يجعل الإنسان يضر بنفسه وبأمته، لذا يجب على المؤسسات التعليمية، والهيئات المتخصصة، الأخذ بيد الناشئة والرجوع بهم إلى القرآن الكريم والتأمل في الآيات القرآنية التي تحدثت على الكفار لرسم المنهج الصحيح لجهادهم ودعوتهم والرد عليهم.

ثبت بالمراجع والمصادر

ثبت بالمراجع والمصادر.

القرآن الكريم

١- أ.د: محمد بركات مراد، منهج الجدل والمناظرة (الصدر للطباعة والنشر، القاهرة، عام ١٩٩٠م).

٢- ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ).

٣- ابن أبي زمنين: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة-محمد بن مصطفى الكنز(الفاروق الحديثة،مصر- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ).

٤- ابن الحاج، المدخل(دار الفكر العربى، بيروت، ١٩٨٥م).

٥- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان).

٦- ابن القيم: لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، (دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م).

٧- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أبو عبد الله الزرعي، هداية الحيارى(الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة).

٨- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أحمد البكري- شاكر توفيق العاروري (رمادي للنشر- دار ابن حزم، الدمام- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م).

٩- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الفروسية، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان(دار الأندلس، حائل، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣).

١٠- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الفوائد،(دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م).

١١- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، طريق الهجرتين، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر(دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

١٢- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، زاد المعاد في هدي خير العباد.

١٣- ابن القيم: محمد بن أبي بكر، الروح، (دار الكتب العلمية، بيروت،١٣٩٥هـ-١٩٧٥م).

١٤- ابن القيم:محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الصواعق المرسلة، تحقيق: د/ علي بن محمد الدخيل الله (دار العاصمة-الرياض- ط/٣، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م).

١٥- ابن باز: عبد العزيز بن باز وابن عثيمين: محمد بن صالح العثيمين، فتاوى مهمة، تحقيق: إبراهيم الفارس، (دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ).

١٦- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس ، ومحمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد، (دار القاسم للنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ).

١٧- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، النبوات، (المطبعة السلفية،القاهرة،١٣٨٦هـ).

١٨- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني أبو العباس، كتاب الإيمان (المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق-الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

١٩- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، (دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).

٢٠- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الرد على الأخنائي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني (المطبعة السلفية، القاهرة).

٢١- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري (دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ).

٢٢- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، العقيدة الأصفهانية، تحقيق: إبراهيم سعيداي(مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ).

٢٣- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الفتاوى الكبرى، تحقيق: حسنين محمد مخلوف(دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ).

٢٤- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تلخيص كتاب الاستغاثة، تحقيق: محمد علي عجال،(مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، 1417هـ).

٢٥- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم (دار الكنوز الأدبية، الرياض،١٣٩١هـ).

٢٦- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، مجموع الفتاوى.

٢٧- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، منهاج السنة، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم (مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ).

٢٨- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، السياسة الشرعية (دار المعرفة).

٢٩- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الجواب الصحيح، تحقيق: علي سيد صبح المدني (مطبعة المدني، مصر).

٣٠- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، توحيد الألوهية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي (مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية).

٣١- ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن تيمية، الرسالة التدمرية في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصفاته وبيان حقيقة الجمع بين الشرع والقدر(دار الوعي الإسلامي، دسوق).

٣٢- ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن تيمية، العقيدة الواسطية، تحقيق: محمد بن عبد العزيز بن مانع، (الرئاسة العامة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ).

٣٣- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخارى، (دار الشروق للنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ).

٣٤- ابن حجر: إنباء الغمر بأنباء العمر(دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، مصورة من نسخة طبعت ١٣٨٧هـ بدائرة المعارف العثمانية، الهند).

٣٥- ابن حجر:الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق،(دار الكتب الحديثة، ١٣٨٥هـ).

٣٦- ابن حزم: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد، الإحكام في أصول الأحكام (دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ).

٣٧- ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبي محمد، الفصل في الملل والنحل (مكتبة الخانجي، القاهرة).

٣٨- ابن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الأمام أحمد بن حنبل، (مؤسسة قرطبة ، القاهرة).

٣٩- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، (دار صادر ، بيروت).

٤٠- ابن عثيمين:محمد بن صالح العثيمين، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين،جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان،(الرياض، دار الوطن، الطبعة الأخيرة،١٤١٣هـ).

٤١- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، غريب الحديث لابن قتيبة، تحقيق: د/ عبد الله الجبوري (مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ).

٤٢- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مختلف الحديث، تحقيق: محمد محيي الدين الأصفر (المكتب الإسلامي، دار الإشراق، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م).

٤٣- ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، لمعة الاعتقاد، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر (الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ).

٤٤- ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، (دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ).

٤٥- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، تحقيق: مكتب التحقيق (دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

٤٦- ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري المتوفى سنة٧١١هـ، لسان العرب، (دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى).

٤٧- ابن هشام:ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي (دار المعرفة، بيروت-لبنان).

٤٨- أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي أبو إسحاق، المهذب، (دار الفكر، بيروت).

٤٩- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، أعلام النبوة، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي (دار الكتاب العربي، بيروت،لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٥٠- أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي- محمود محمد الطناحي (المكتبة العلمية-بيروت-١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)

٥١- أبو الفرج: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، تلبيس إبليس، د/السيد الجميلي(دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

٥٢- أبو الفضل: عبد الرحمن بن أبي بكر محمد السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول (دار إحياء العلوم، بيروت).

٥٣- أبو داود: سليمان الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (دار الفكر).

٥٤- أبو زكريا: يحي بن شرف النووي، تحرير ألفاظ التنبية، تحقيق: عبد المغني الدقر (دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ).

٥٥- أبو يوسف: القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الخراج، تحقيق: محمد البنا، (دار الإصلاح للنشر والتوزيع).

٥٦- أبي السعود:محمد بن محمد العمادي،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،(دار إحياء التراث العربي،بيروت).

٥٧- أحمد بن إبراهيم عيسى ، شرح قصيدة ابن القيم، تحقيق: زهير الشاويش. (المكتب الإسلامي،بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ).

٥٨- الأدنروي: أحمد بن محمد الأدنروي، طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي ، (مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة،
الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م).

٥٩- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، (دار النفائس، مكتبة الفلاح،الكويت، الطبعة الثانية١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، والثالثة١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، والرابعة١٤١٠هـ-١٩٨٩م).

٦٠- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، (دار النفائس، الأردن ، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م).

٦١- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر، اليوم الآخر الجنة والنار، (دار النفائس، الأردن ، عمان، الطبعة السابعة ١٤١٨هـ-١٩٩٨هـ).

٦٢- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر، اليوم الآخر القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى،(دار النفائس، الأردن ، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ-١٩٩١م).

٦٣- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر، اليوم الآخر القيامة الكبرى، (دار النفائس، الأردن ، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

٦٤- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة الأبرار، (مكتبة الفلاح،الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

٦٥- الأشقر: د:عمر سليمان الأشقر،القضاء والقدر ،(دار النفائس، الأردن ، الطبعة الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م).

٦٦- الأصبحي: مالك بن أنس، المدونة الكبرى، (دار صادر، بيروت).

٦٧- الأصبحي:مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، موطأ مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء التراث، مصر).

٦٨- الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني، (دار إحياء التراث،بيروت).

٦٩- الأمير الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، رفع الأستار، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني (المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ).

٧٠- الأندلسي: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

٧١- انظر: الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨هـ، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني (دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ).

٧٢- انظر: محمد بن أحمد، عبد الرحمن بن أبي بكر ، المحلي، السيوطي، تفسير الجلالين (دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى).

٧٣- الإيجي: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، المواقف في علم الكلام، (عالم الكتب، بيروت).

٧٤- الباجي: سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي، التعديل والتجريح ,لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، تحقيق : د. أبو لبابة حسين،(دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض ،الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م).

٧٥- البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا (دار ابن كثير ، اليمامة، بيروت،الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

٧٦- البربهاري: الحسن بن علي بن خلف البربهاري أبو محمد، شرح السنة، تحقيق: د/محمد سعيد سالم القحطاني (دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ).

٧٧- البستي: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مشاهير علماء الأمصار، تحقيق : م. فلايشهمر، (دار الكتب العلمية ،بيروت ، ١٩٥٩م).

٧٨- البغوي: تفسير البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك (دار المعرفة، بيروت).

٧٩- البغوي: شرح السنة للإمام البغوي، تحقيق: زهير الشاويش، شعيب الأرناؤط، (المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٠، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).

٨٠- البيضاوي: تفسير البيضاوي، (دار الفكر،بيروت).

٨١- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (دار الكتب العلمية ،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ).

٨٢- البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا(مكتبة دار الباز،مكة المكرمة،١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

٨٣- الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون

٨٤- تقي الدين أبو بكر الحصني الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٩هـ، دفع شبه من شبه وتمرد (المكتبة الأزهرية،مصر).

٨٥- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت).

٨٦- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان (تفسير الثعلبي) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي (دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).

٨٧- الجرجاني: علي بن محمد بن علي الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإبياري (دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ).

٨٨- الجعفي: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، التاريخ الكبير، تحقيق : السيد هاشم الندوي، (دار الفكر).

٨٩- جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي القحطاني النجدي، الدرر السنية في الأجوبة النجدية (الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م).

٩٠- الجويني : الإرشاد، (مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م).

٩١- الحافظ بن أحمد حكمي، معارج القبول، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، (دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٩٢- الحموي: ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، معجم البلدان (دار الفكر، بيروت).

٩٣- الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، الغنية عن الكلام وأهله، (مكتبة نور السمان الرقمية، دمشق- سوريا).

٩٤- د. محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن والسنة (مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، ١٤٠٠هـ).

٩٥- د: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، (دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثامنة، ١٤٢٣هـ).

٩٦- د: عبد الرحمن بن صالح المحمود، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، (دار الوطن ، الرياض، الطبعة الثانية ،١٤١٨هـ-١٩٩٧م).

٩٧- د:عبد الكريم زيدان، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).

٩٨- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

٩٩- الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، تذكرة الحفاظ.

١٠٠- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب (دار الكتب العلمية ،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ).

١٠١- الزركلي: خير الدين الزركلي، الأعلام،(دار العلم للملايين ، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م).

١٠٢- الزهري: محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، الطبقات الكبرى، (دار صادر ، بيروت).

١٠٣- السرخسي: شمس الدين السرخسي، المبسوط، (دار المعرفة،بيروت).

١٠٤- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر السعدي المتوفى١٣٧٦هـ، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين، (مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).

١٠٥- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، القواعد الحسان لتفسير القرآن، (دار العصيمي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).

١٠٦- سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تحقيق: زهير الشاويش، (المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق-عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م).

١٠٧- سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، شرح كتاب التوحيد (مكتبة الرياض الحديثية ، الرياض).

١٠٨- السمرقندي: نصر بن محمد أحمد أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي، تحقيق: د/محمود مطرجي، (دار الفكر، بيروت).

١٠٩- سيف الله أحمد فاضل، نص إنجيل برنابا، (دار القلم ، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ).

١١٠- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،طبقات المفسرين —السيوطي، تحقيق : علي محمد عمر (مكتبة وهبة ،القاهرة،

الطبعة الأولى ، ١٣٩٦).

١١١- السيوطي: عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، (دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م).

١١٢- الشافعي: محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله، الأم، (دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ).

١١٣- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، أضواء البيان، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، (دار الفكر للطباعة ، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).

١١٤- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (دار الفكر، بيروت).

١١٥- الطبري: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، (مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م).

١١٦- الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ).

١١٧- الطحاوي: أبو جعفر، العقيدة الطحاوية، (دار الصميعي،السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ).

١١٨- عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق: د/ عبد الكريم عثمان، (مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م).

١١٩- عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب(المكتبة العصرية، صيدا).

١٢٠- عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بين الفرق، (دار الآفاق الجديدة،بيروت،الطبعة الثانية، ١٩٧٧م).

١٢١- عدد من المؤلفين، الموسوعة الميسرة،(دار النفائس،الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م).

١٢٢- العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي (دار الجيل ، بيروت،الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ).

١٢٣- العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، لسان الميزان، تحقيق : دائرة المعرف النظامية ،الهند (مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م).

١٢٤- العكري: عبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (دار الكتب العلمية).

١٢٥- الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: د/مهدي المخزومي ود/إبراهيم السامرائي(دار ومكتبة الهلال).

١٢٦- فرشوخ: د/ محمد أمين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام(دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

١٢٧- الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب، القاموس المحيط.

١٢٨- الفيومي: لأحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير، (الدار العلمية، بيروت).

١٢٩- القارئ: علي بن سلطان القارئ، الرد على القائلين بوحدة الوجود، تحقيق: علي بن رضا بن عبدالله بن علي رضا. (دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ).

١٣٠- القاري: علي بن سلطان محمد القاري، الآيات البينات في عدم سماع الأموات، تحقيق: مشهور بن حسن بن سلمان (مكتبة الغرباء، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ).

١٣١- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (دار الشعب، القاهرة).

١٣٢- القرطبي: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي (دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ).

١٣٣- القنوجي: محمد صديق حسن خان القنوجي، قطف الثمر، تحقيق: د/عاصم عبد الله القريوتي، (شركة الشرق، ماركا الشماوية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ).

١٣٤- الكاساني: علاء الدين الكاساني، بدائع الصنائع، (دار الكتاب العربي، بيروت،الطبعة الثانية، ١٩٨٢م).

١٣٥- كحالة: عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين،(مكتبة المثنى ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

١٣٦- محمد بن أبي بكر أبو عبد الله، شفاء العليل، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي(دار الفكر،بيروت، ١٣٩٨هـ).

١٣٧- محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، (دار الكتاب العربي ، لبنان،الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).

١٣٨- محمد بن عبد الرحمن الخميس، الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة (مكتبة الفرقان، الإمارات العربية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ).

١٣٩- محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الدية، (دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت- دمشق- الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ).

١٤٠- المرغيناني: برهان الدين أبي الحسن المرغيناني، الهداية شرح بداية المبتدى، الناشر: المكتبة الإسلامية- إستانبول،

١٤١- المرغيناني: برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني، بداية المبتدي، (مكتبة ومطبعة محمد علي صبح، القاهرة).

١٤٢- المزي: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، تهذيب الكمال، (مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

١٤٣- مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء التراث، بيروت).

١٤٤- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تجريد التوحيد المفيد، تحقيق: على بن حسن، (دار عمار، الطبعة الأولى).

١٤٥- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف:د/مانع بن حماد الجهني، (دار الندوة العالمية، الرياض ، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ).

١٤٦- النسفي:أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي،مدارك التنزيل وحقائق التأويل.

١٤٧- النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ).

١٤٨- النيسابوري: محمد بن عبد الله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥هـ، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ-١٩٩٠م).

١٤٩- النيسايوري:محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك(الجزء الخاص بالقرآن)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا،(دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩٠م).

١٥٠- هراس:محمد خليل هراس،شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية،ضبط نصه وخرج أحاديثه:علوي بن عبد القادر السقاف، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٥١- الهندي: علي بن حسام الدين المتقي الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال،(مؤسسة الرسالة ،بيروت، ١٩٨٩م).

١٥٢- الواحدي: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، (دار القلم ،دار الشامية،دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ).

١٥٣- ياسين:د/محمد نعيم ياسين،الإيمان،أركانه،حقيقته،نواقضه،(دار الاعتماد الثقافي،بيروت، لبنان،الطبعة السابعة).

المجـــــلات:

١٥٤- مجلة الجندي المسلم ،(العدد١٢٥، ١/ ٩/ ٢٠٠٦م).

الموقع الإلكترونية:

١٥٥- مكتبة رسالة الإسلام الشاملةwww.islamww.com

١٥٦- الموسوعة الشاملة www.islamport.com

١٥٧- موقع ابن باز www.binbaz.org.sa.

١٥٨- موقع ابن جبرين www.ibn-jebreen.com

١٥٩- موقع ابن عثيمين www.ibnothaimeen.com

١٦٠- موقع الدرر السنية www.dorar.net

١٦١- موقع سفر الحوالي www.alhawali.com

١٦٢- موقع صيد الفوائدwww.saaid.net

أ- فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ....)	٢١٣	٣٤٦-٦٩
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ....)	٢١٧	١٦٤-١٦٣
(وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ....)	٢٢١	١٢٩-١٢٨
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ....)	٢٤٣	٤٢٧
(مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً....)	٢٤٥	٢٩٥
(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن....)	٢٥٣	٤٦١
(اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ....)	٢٥٥	٢٨٠
(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ....)	٢٥٦	١٥٦-١٣٨
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ....)	٢٥٨	٨٣-٨٤-٢٦٥- ٢٧٢-٢٧٣
(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا....)	٢٥٩	٤٢٨
(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى....)	٢٦٠	٤٢٨
(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ....)	٢٨٥	٣١٦-٣٣٨-٣٨١- ٣٨٦-٣٨٨
(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ....)	٢٨٦	٤٤٧
آل عمران (الم..)	١	٣٤٦
(اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ..)	٢	**٣٤٦**
(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ....)	٣	**٣٤٦**

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا...)	٥٨	١٣٩
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ....)	٥٩	٧٢-٧٧
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ....)	٦٠	١٩٢
(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ....)	٦٥	٧٢-٣٨٩
(وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ....)	٧٥	١٦٥-١٦٦
(مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ....)	٧٩	٢٢-٧١
(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ....)	٨٠	٧٦
(وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء....)	٨٩	١٦٤
(إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ....)	٩٠	١٦٦-١٧٥
(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ....)	٩١	١٦٧
(لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ .....)	٩٥	١٧٨
(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ....)	٩٧	١١٧
(إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ....)	٩٨	١١٧
(فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ....)	٩٩	١١٧
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ....)	١٣٥	١٣٩
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ....)	١٣٦	٢٥٧-٣١٧-٣١٨-٣٣٨-٣٤٤-٣٨٤
(لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ....)	١٤٨	٩٣
(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ....)	١٥٠	٣٣٤
(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ....)	١٥٣	٤١٢

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي.....)	٧٨	٨٥
(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ.....)	٧٩	٣٠-٨٥
(وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ.....)	٨٠	٨٥
(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ.....)	٨١	٨٥-٨٦
(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ.....)	٨٣	٣٨٧
(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً.....)	٨٤	٣٨٧
(وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ.....)	٨٥	٣٨٧
(وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً.....)	٨٦	٣٨٧
(ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.....)	٨٨	٢٧٩
(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ.....)	٩٠	٩٣
(وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ.....)	٩١	٦٩-٧٠-٣٤٣- ٣٥٢-٣٥٥- ٣٦٦-٣٨٤
(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً.....)	٩٣	٢١٠-٣٢٦
(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.....)	٩٤	٣٠٠
(إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ.....)	٩٥	٥٢
(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ.....)	١٠٠	٢٩٩
(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ.....)	١٠١	٣١١
(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.....)	١٠٢	٢٨

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ.....)	١٣١	٢٠٦
(وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا.....)	١٣٢	٢٠٦-٤١٥
(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ.....)	١٣٦	٢٠٥
(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً.....)	١٤٥	٣٤٢-٣٤٣
(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً.....)	١٤٨	٢٩٧-٣٠٥
(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.....)	١٥٨	٢٢-٧٥
(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ.....)	١٧٢	٤٦-٢٦٣-٢٦٤- ٤٧١
(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ.....)	١٧٩	٤٤٩-٤٥٠
(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ.....)	١٨٤	٣٧
(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.....)	١٨٥	٣٧-٥٥
(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ.....)	١٨٨	٧٣
(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)	١٩١	٥٢
(وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)	١٩٢	٥٢
(وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ.....)	١٩٣	٥٢
(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ.....)	١٩٤	٥٢
(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا.....)	١٩٥	٥٢-٥٣
(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا.....)	٢٠٣	٤١٣
(إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ .....)	٢٠٦	٣٢١

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.....)	٣٨	٣٠٢
(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ.....)	٣٩	٢٥٩
(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ.....)	٥٠	٢٥٩
(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ.....)	٥٢	٢٥٩
(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)	١٠٦	٣٠٠
(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.....)	١٠٨	١٨
(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ.....)	١١١	٣٨٨
الرعد (وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي.....)	٥	٤٢٦
(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ....)	١١	٣٢٧-٤٦٢-٤٦٣
(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ.....)	١٤	٣٠٥
(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ.....)	١٦	٦٥-٣٠٥
(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ.....)	٢٥	١٨٦
(اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا.....)	٢٦	٤٦٢
(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ.....)	٣٢	١٩٤
(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً.....)	٣٨	٤١٤
إبراهيم (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ.....)	٧	١٩٧
(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ.....)	٩	١٩٤-٣٩٩
(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.....)	١٠	٣٨-٤٥-٢٥٩- ٢٦٦-٣٩٩-٤٠١
(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ.....)	١١	٤٠٠
(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ.....)	١٨	٢٢٨-٢٢٩

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً)	١٠٣	٢٢٩
(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.....)	١٠٤	٢٢٩
(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ .....)	١٠٥	٢٢٩-٢٢٣
(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي ا.....)	١٠٦	٢٢٩
مريم (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا.....)	١٧	٣٢٠
(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً)	٣٠	٢٨٧
(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ.....)	٣١	٣٥٠
(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً)	٣٣	٤٢٥
(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ .....)	٣٩	٢٢٣
(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً)	٥٥	٣٥٠
(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا .....)	٦٤	٣٣٤
(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً)	٧٩	٣٣٠
(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً)	٨١	٣٠٤
(كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً)	٨٢	٣٠٤
(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً)	٨٦	٢٣٢
(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً)	٨٨	٣١٠-٣٠٩
(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً)	٨٩	٣١٠
(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً)	٩٠	٣١٠-٢١
(أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً)	٩١	٢١
(وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً)	٩٢	٢١
(إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً)	٩٣	٢١
(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً)	٩٤	٢١

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ)	١٢٣	٣٩٠
(فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ)	١٣٩	٣٩١
(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)	١٤١	٣٩٠
(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)	١٤٥	٣٩٥
(وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)	١٥١	١٨٧
(الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)	١٥٢	١٨٧
(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ)	١٦٠	٣٩٠
(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)	١٦٤	٣٩٥
(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)	١٦٥	٩٢-١٩٩
(وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ)	١٦٦	٩٢
(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)	١٦٧	١٩٩
(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)	١٧٦	٢٠٢
(إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)	١٧٧	٢٠٢
(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)	١٧٨	٢٠٢
(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)	١٧٩	٢٠٢
(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)	١٨٠	٢٠٢-٣٩٥
(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)	١٨١	٢٠٢
(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)	١٨٢	٢٠٢
(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)	١٨٣	٢٠٢
(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ)	١٨٤	٢٠٢-٢٠٣

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى.....)	٥٩	٣١
(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.....)	٦٠	٣١-٣٢
(أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ.....)	٦١	٣٢
(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً.....)	٦٧	٤٢٦
(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا.....)	٦٩	٢٧٠
القصص (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً.....)	٤	٢٠٧
(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ.....)	٣٧	٤٢٤
(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي.....)	٣٨	٢٦٢
(فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا.....)	٤٨	٣٧٥
(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ.....)	٤٩	٣٧٧
(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ.....)	٥٢	٣٤٥
(وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا.....)	٥٣	٣٤٥
(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا.....)	٥٨	١٩٦
(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا.....)	٦٣	٣٠٧-٣٠٨
(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ.....)	٧٦	٢٠٣
(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ.....)	٧٧	**٢٠٣**
(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي.....)	٧٨	**٢٠٣**
(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ.....)	٧٩	٢٠٣

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ....)	٦١	٢٥٩-٢٠
(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا.....)	٦٣	٢٦٠-٢٥٩
الروم (عْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ.....)	٦	٣٧
(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.....)	٧	٣٧
(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا.....)	٨	٥٥
(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ.....)	١١	٤٢٩
(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ.....)	١٢	٢٢٥
(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ.....)	٢٠	٥١
(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.....)	٢٧	٤٢٩
(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.....)	٣٠	١٥٩-٤٦-٣٨
(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ.....)	٤٢	٢٧٠
(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ.....)	٥٠	٥٦
لقمان (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ.....)	١٣	١٩٠

فصلت (إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ.....)	١٤	٤٠٢
(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ.....)	١٥	٢٧٢-٢٧٣-٣٤٤
(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)	١٩	٢٤٠
(حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ.....)	٢٠	٢٤٠
(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي .....)	٢١	٢٤٠
(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً.....)	٢٧	٣٦٦
(ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ.....)	٢٨	٣٦٦
(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ .....)	٢٩	٢٤١
(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ.....)	٣٠	٢١٥
الشورى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً.....)	٧	٤٢٥
(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ.....)	١١	٤٤
(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا.....)	١٣	٢٠-١٨٣
(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ.....)	١٥	٢٠-٣٣٨
(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ ....)	١٦	٣٠
(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء.....)	٥١	٣٤٢
(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا.....)	٥٢	٣٦٣
الزخرف (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ..)	٩	٢٦٠
(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً....)	١١	٤٣٨

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً.....)	١٩	٣٢١-٣٢٨- ٣٢٩-٣٣٠
(وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)	٢٠	٤٦٥-٤٦٦
(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)	٢٢	٣٠١
(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ.....)	٢٣	٣٠١
(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)	٣١	٤٠٦
(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.....)	٣٢	٤٠٧
(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)	٤٥	٣٨٥
(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ....)	٤٦	٢٠٥
(فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ)	٤٧	٢٠٥
(وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا.....)	٤٨	٢٠٥
(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ.....)	٤٩	٢٠٦
(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)	٥٠	٢٠٦
(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ.....)	٥١	٢٠٦-٢٦٣
(أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ)	٥٢	٢٠٦-٤٠٢
(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ .....)	٥٣	٢٠٦-٤٠٢
(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ.....)	٥٤	٢٠٦

طرف الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
(لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ)	٢٨	٤٤٧
(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ.....)	٢٩	٤٤٧
الانفطار (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)	٩	٣٢٦
(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)	١٠	٣٢٦-٣٢٩
(كِرَاماً كَاتِبِينَ)	١١	٣٢٦-٣٢٩
(يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)	١٢	٣٢٦
الانشقاق (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ)	١٠	٢٣٢
(فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً)	١١	٢٢١
الأعلى (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)	١٣	٢٥٢
(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى)	١٤	٣٤٨
(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)	١٥	٣٤٨
(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)	١٦	٣٤٨
(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)	١٧	٣٤٨
(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى)	١٨	٣٤٨
(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)	١٩	٣٤٨
الغاشية(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)	١٧	٢٦٤
(وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ)	١٨	٢٦٤

﴿العاديات﴾ (أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ)	٩	٢٢٠
﴿الهمزة﴾ (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ)	٨	٢٢٥
(فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ)	٩	٢٢٥
﴿الكافرون﴾ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)	١	٢٧٨
(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)	٢	٢٧٨
(وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)	٣	٢٧٨
﴿الإخلاص﴾ (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)	٣	٢٨٦

[٣]- فهرس الأحاديث والآثار

[٣]- فهرس الأعلام المترجم لهم

[٤]- فهرس الفرق المعرف بـها

[٥]- فهرس الأماكن والبلدان

[٧]- فهرس الموضوعات